



الأدب في البرازيل

تأليف:

د. شاكر مصطفى



Bibliothèque Alexandrine

ثقافة شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



سلسلة كتب ثقافية شهرية يُصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

الأدب في البرازيل

تأليف :
د. شاكر مصطفى

١٠١ - شعبان ١٤٠٦ هـ - مايو (أيار) ١٩٨٦ م

المشرف العام :

احمد مشاري العدواني
الأمين العام للمجاس

نائب المشرف العام:

د. خليفة الوقيان
الأمين العام المساعد

هيئة التحرير:

د. فؤاد زكريا المستشار
د. أسامة الخولي
زهير الكرمي
د. سليمان الشطي
د. سليمان العسكري
د. شاكر مصطفى
صديق حطاب
د. عبد الرزاق العدواني
د. فاروق العمر
د. محمد الرميحي

الملاحظات :

ترجمه باسم السيد الأمين العام للمجاس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص.ب ٢٣٩٩٦ - الكويت

الآدَبُ فِي الْبِرِّ وَالزَّيْلِ

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر عن رأي كاتبها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

كلمة لابتدئها

منذ اثنتين وعشرين سنة كتبت كتابا عن تاريخ الأدب البرازيلي لم أنشره ، لأني ، كرمي لصديق أديب هناك يرحمه الله ، اختصرته في صفحات تبلغ حوالي الخمسين عددا ، فيما أذكر ، وجعلته مقدمة لكتاب آخر ترجم فيه ذلك الصديق بعض القصص البرازيلي ، ونشرته وزارة الثقافة والارشاد القومي في دمشق سنة ١٩٦٤ . وقد دثر هذا الكتاب منذ زمن طويل ، حتى أنني لا أملك أنا نفسي نسخة منه . فلم يطبع منه سوى ألف نسخة توزع معظمها الأصدقاء . وقد أعاد ذلك الصديق المرحوم طبع الكتاب المترجم في البرازيل سنة ١٩٧٠ حاذفا منه معظم ما كتبت فيه ، مبقياً فقط على أربع صفحات !

ومضت الأيام . وعز علي أن يقبر كتابي الأصلي ، ويلف النسيان ما بذلت فيه ، وفي المقدمة المحذوفة ، من جهد ودراسة هما قطعة مني . في حين لم يظهر كتاب واحد بالعربية ، حتى الآن ، عن الأدب البرازيلي . والحاجة إلى مثل هذا الكتاب واضحة في المكتبة العربية ، لا بوصفها إحدى الحاجات الثقافية التي نفتقد وحسب ، ولكن لأن لهذا الأدب أيضا مكانه الأصيل ، ومذاقه الخاص الحار في دنيا الفكر والأدب .

وهكذا رأيت أن أقدم الكتاب للنشر ، بعد أن أعدت النظر فيه جميعا ، ثم أعدت ، وتابعتم رسم التطورات الأدبية البرازيلية فيه ، حتى الثمانينات . . .

وأجد من الواجب أن أقدم الاعتذار عن معاودة نشر صفحات محدودة في هذا الكتاب سبق نشرها في كتاب سابق . أكان في وسعي التخلي عنها للنسيان وهي جزء من ذاتي ، ومن ذكرياتي هناك . . . في البرازيل ؟

ش . م .

بين يدي الكتاب

تبدو كتابتي اليوم عن البرازيل وأدب البرازيل ودنيا البرازيل كما لو كانت
أصداء بعيدة للسنوات التي عشتها هناك قبل ربع قرن . تبدو كما لو كانت عودة
إلى الشباب . ولكني في الواقع ما انقطعت يوما عن تلك الجنة الوحشية التي تحمل
في اسمها النار ، وفي أرضها خماثر ألف ثورة ، وفي أحلامها الغدوية ألف وعد
ووعد . ما وقع بيدي كتاب عنها إلا قرأته ، ولا مقال في مجلة إلا تدبرته ، أو خبر في
صحيفة إلا جمعته إلى إخوته . وجانب من حصاد ذلك ينعكس على هذه
الصفحات ، تماما كما ينعكس عليها ما درست ثم درست في البرازيل نفسها من
أدب البرازيل .

والبرازيل عالم . . . بكل ما في العالم من تنوع لا ينتهي ، ومفاجأة تلجم
اللسان ، وجمال يورث الدوار ، ودبيب وحش ، وجوع ، وجنون ،
ورعب ، وأنهار كالبحار تندفق في جلال مكين ، وصخور ثلجية تثقب الغيم
لتطل على الفضاء المطلق ، وسهول تركض الفرسان شهورا في جنباتها الخضراء
والأفق هو الأفق . . . وهنود بلون النحاس ، وزنوج كالليل أو أشد سوادا ،
وسمر أخذوا الشمس تحت الإهاب ، وأوروبيون أتعبتهم زرقة العيون وشقرة
الشعر ، فهم غرباء كالعنز البيضاء في القطيع الأسود .

وتصور بعد ذلك الأدب والشعر والقصة وأخيلة الناس ، وماذا يمكن أن تكون
عليه من الخصب ، وما يمكن أن تبني من الغريب ، وما قد تبتكر وتخيّل وتصوغ
من العوالم المدهشة .

ولهذا فقد لاتفي هذه الصفحات - ومن المؤكد انها لاتفي - للإحاطة بما في
البرازيل من أدب ، وحرف حلو ، وتنوع خارق جميل . ولكنها بلى ! سوف
تحاول الإطلال على ذلك العالم الوجشي الملون ، والتعرف إلى مساربه وألوانه ،
وأجوائه التي تنبت كالغابات الأمازونية فيه كثيفة مؤثرة رائعة .

وما كتبت هذا الكتاب لأعلمك أدب البرازيل ورجاله ومدارسه ، مع أي
الممت بها جميعا قدر الطاقة والمساحة . ما يهمني ليس الأدب البرازيلي في ذاته .
إنك يجب أن تقرأ هذا الأدب قراءة حب لتعرفه . ولكن كبتة لأمر مختلفة كل
الاختلاف :

أولها :

أن يكون مدخلا إلى فهم البرازيل لا أدبها فحسب ، ومدخلا مثيرا لا من
الوجهة الأدبية ولكن في الأجواء وانعكاس الأضواء . أردت أن أثير فضول
القارئ ، ورغبته في التعرف إلى عوالم أخرى غير ما اعتاد من الأدب الأوروبي
عامة وما يقرأ . أردت أن أقي القارئ في أجواء البرازيل الحارة ، أن أنثرها
أمامه ، في غابتها الوحشية ، وعبر سمائها ذات الزرقة اللازوردية ، وعلى آفاقها
في بعدها اللانهائي ، وبين ناسها الذين تختلط فيهم كل ملامح البشر وكل ألوان
البشر . . . بدون هذه الأجواء لاتستطيع فهم البرازيل ولا النفوذ إلى أدب
البرازيل الحار القلق . أدب البرازيل معجون بطينها وصخرها وغابتها ، ملتصق
الالتصاق الرحي بناسها وعروقها فلا سبيل إليه إلا من خلال هذا الطين والصخر
والغابة والناس والعروق . هنا المدخل !

الأمر الثاني :

أن في هذا الأدب نماذج غريبة مدهشة جريئة من الابداع والمواقف لاتجدها
- فيها أعلم - في أي أدب آخر . وقد تقبل هذه النماذج كلاً أو بعضاً ، وقد تنكرها

كل الانكار . ولكنك في الحالين معترف بأصالتها الجريئة ، معترف بأنها « برازيلية » حتى العظم ، معترف أنها على أي حال تستحق الاهتمام والتوقف .

من ذلك الموقف العرقي ، إن « الأبيض » لايلعب دوره وحيدا في هذا الأدب - كما في الأدب الأوروبية - ولا يلعب دوره مع الأسود كما في الأدب الأمريكي (الولايات المتحدة) ، ولكن يشاركه البطولة مع الزنجي أيضا : الهندي النحاسي ، ويشارك الاثنين ويقفز إلى المقدمة الخلاسي الخليط من هذا ، وذاك ومن الآخر ، بأسماله ، وهجراته ، وخرافاته وأناشيده ، وبؤسه الساحق وضباعه في الكون ! . . إن طعاما غريبا يحمل « ربا القرقة والقرنفل » والإملاق المميت تفوح من هذا الأدب ، وإن كتب البيض وأهل الطبقة المتوسطة معظم صفحاته .

ومن ذلك أيضا الموقف التراثي : الموقف من التراث في البرازيل خاص بالبرازيل . إنهم منذ خمسين سنة يرفضون التراث الأوروبي الذي تكون - وما يزال يكون - ثقافتهم وأدهم وكتابتهم ، ويحاولون الرجوع إلى الأصول الأولى . . . وأين هذه الأصول الأولى ؟ لدى الهندي الأقدم السابق للكشف البرتغالي . يحاولون ربط أنفسهم من خلاله بعجلة أخرى غير العجلة الأوروبية المعتادة . وليس هذا الموقف نتيجة تخيلات أسطورية ، أو شطحات رومانتيكية ، ولكنه موقف فكري علمي يحاولونه بالدراسة والتعمق . وإذا كان ذلك الهندي الأقدم يأكل لحوم أعدائه ليمحوهم ، ويكتسب صفاتهم ، فإن أدباء البرازيل المعاصرين قد ألفوا تيارا يحمل الصفة نفسها : الانثروبوفاجيون (أكلة لحوم البشر) إنهم يبحثون ، من خلال ذلك كله عن « الهوية » البرازيلية !

ومن ذلك أيضا وأيضاً الموقف اللغوي . ثاروا على اللغة البرتغالية الأم لا يريدونها . ويريدون للغة أن تكون - كما يدعونها - برازيلية . وتكون كذلك في رأيهم حين تتخلى عن تقعرها وارستقراطيتها الفارغة . وتنزل إلى الشعب

العادي فتتبني لغته المحكية ، بما فيها من خللاط لغوية هندية قديمة ، وרטانة شعبية ، وزنجية افريقية . ولم يكتفوا بهذا بل وصلوا أخيرا في الأدب إلى لغة الائماء ، والرمز والصراخ من جهة ، وإلى محاولة ادخال الوسائل التقنية الحديثة من سينما وتلفزيون ، وإذاعة وتسجيل وموسيقى ، ومكبرات صوت في الكتابة الأدبية والشعرية . . بل استخدموا الصور مكبرة ومصغرة في أشكال شتى للتعبير الأدبي . يطمحون « في كل ذلك » إلى ابتكار لغة جديدة تمشي مع العصر . . . ومن ذلك أخيرا مواقف الإبداع الأدبي ونماذجه ، وكل يوم هم منها في شأن وطريقة وابتكار . بعضهم يلح على الغرق في اللغة ، وبعض على ملائحة الصور ، وبعض ثالث يمتح من واقع البؤساء والمسحوقين يريد أن يكون شاهد عصره ، وبعض يدخل أناشيد الشعبية في أدبه ، وجوقة المغنين ، وبعض يدخل الشعر على الرواية والرواية على الشعر . لا حدود لهذا أو تلك . وبعض يمزج القصص والشعر بالصور والرسوم في محاولة يائسة للابتكار ، وبعض يعتمد الرؤية الداخلية الاستيطانية ، وبعض يهوى الخيال المجنح (الفانتازيا) التي يسمونها في البرازيل « الكرنفالية » . . . هل اتابع ؟ ليس ينتهي الإحصاء .

الأمر الثالث :

أن هذا الأدب إنساني النزعة حتى آخر قطرة في عروقه . إنه إنساني لا الإنسانية الصوفية الروسية : ولا الإنسانية الشكلية الأوروبية ، ولكن الإنسانية الراحفة الجدلية المصيقة بالأرض وبإنسان الأرض . إنه يحمل في صياح أخرس كل شقاء الهندي القديم . . . في مجاهل الأمازون ، وآلام الزنجي البعيد في باهيا ، ومآسي « الكابوكلو » في السرتون ، وجوع الفلاح الخلاسي المهارب إلى المصانع ، وشقاء المهاجر الضائع في الدروب . . . إنه أدب مخلص لنفسه . ولانستطيع أن نعتبره نسخة من أي أدب آخر ، ولكنه وجه البرازيل وصوتها الحقيقي : وسواء كتب هذا الأدب من قبل خوسيه دو اليكار أم ماشادو

دو أسيس، من آدونياس فيليو أم انطونيو كايودو ، من عثمان لينز أم أغنا سيودي ليولا ، من مواسير سلييار أم غيدو غيرا ، من ويلسون لينز أم مارسيدو سوزا فإن الأدب البرازيلي لا يزور الحياة ، لا يخون الإنسان وليس مغمض العيون عن البرازيل « التي تعيش منه في القلب !

إن تعيش الأجناس المتباينة كل التباين في البرازيل ، ونضالها وشقاءها لم يعلمها جميعا فقط أنها متوازية متساوية ، ولكن أوجد منها شعبا خلاسيا خليطا ، وثقافة خلاسية وأدبا خلاسيا بدوره . . . أي أدبا إنسانيا لا يجد غذاءه وحياته إلا في الإنسان وفي الإخلاص لقصيته .

الأمر الرابع الأخير والأهم :

هو أنه أدب مجهول . قد تكون بعض آثاره قد ترجمت عن الفرنسية - واقصد بالذات عدداً من آثار جورج آمادو ، لأنها تحك الجراح الطبقية ، وتحكي عن « دروب الجوع » ولكن اسماء اللامعة الأخرى مازال مجهولة تحبسها من كوكب آخر . ولقد نعلم الكثير عن البرازيل ، انتاجا واقتصادا وسياسة ، ولكننا في غيبة مطلقة عن يصنعون الفكر البرازيلي والثقافة البرازيلية . إنهم في زعمنا بعض من امريكا اللاتينية وكفى ، بل قد تكون السامبا والكرنفال والسينما الجديدة والماكومبا ، كلها أموراً معروفة مشهورة عن البرازيل وثقافة البرازيل ، لكن الأدب البرازيلي هو المنسي الكبير في هذا الزحام ، سواء أعبّر عن البرالقاحل في السرتون ، أم عن آلام ميغالوبوليس . . . حتى في أوروبا ندر أن اهتم أحد بهذا الأدب . لقد كتب ستيفان تزفايغ عن البرازيل ، وامتدح روجيه كايوا عبقرية غيمارائش روزا ، وترجم جيلبرتو فرييري ، وكُتب ثم كُتب عن هذا وذاك في فرنسا . . . وعبثا ما كتب عن هؤلاء وعن الآخرين . لقد وضعوا في الغرب كله أصابعهم في آذانهم ، لا يسمعون إلا أنفسهم ، ولا يقرؤون إلا كتبهم وبلغتهم . وإذا كان كتاب أمريكا اللاتينية يجدون السبيل إلى العالم عن طريق

اللغة الإسبانية ، فإن كتاب البرازيل أكثر بعدا لأنهم سجناء لغتهم البرتغالية الخاصة التي لا يتكلمها غيرهم إلا تلك الزاوية الصغيرة في غرب ايبيريا . . . وإذا كان هذا هو الحال في الغرب فماذا نقول نحن عن معرفتنا بالبرازيل وأدب البرازيل ؟ وماذا عن الجهل الكامل حتى بوجود البرازيل ! وكل تلك القارة المريخية . . . ؟

أتراني بعد كل هذا الذي ذكرت ، قدمت التبرير الكافي لكتابة هذا الكتاب عن الأدب البرازيلي . أحسب ذلك وأرجوه .

إن هذا الكتاب « إذن » ليس نافذة نفتحها على ذلك العالم الإنساني الحار في عواطفه وألوانه ، والسجين وراء الحاجز اللغوي البرتغالي ، والمجهول تمام الجهل ، منا ومن غيرنا . كبرت دعوى ندعيها ، فليس يكفي في تقديم الأدب البرازيلي كتب أعداد من مثل هذا الكتاب . ولكنها ليست أكثر من دعوة إلى تأمل تلك التجربة الفكرية الحضارية الفريدة التي هي تجربة البرازيل : الوحدة في التنوع ، ومحاولة إثبات الذات والهوية القومية من وراء أشتات العروق ، وتنافر الرواسب الحضارية ، والألوان والبيئات . . .

إن الثقافة البرازيلية على تعدد منابعها ، وتباين هذه المنابع حتى التناقض ، تتعانق في تيار برازيلي جامع . قارة المتناقضات تصهرها ، رغم اختلاف العروق وألوان الجلود من نحاسي وأسود وأبيض وأسمر وأصفر ، ورغم تنوع التكوينات الكامنة وراء الجلود ، وأبعاد التطلعات النائمة في العيون .

أليس لنا في هذا تجربة خصيبة وعبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد ؟

شاكر مصطفى

الكويت يناير ١٩٨٦

الفصل الأول

البرازيلي

الأرض والإنسان والتاريخ

١ (الكشف الأول والاستعمار

ليست هذه بمقدمة أو نحو منها ، وإن كانت فاتحة الكتاب ، وكانت تحتجز عددا من الصفحات فيه . إنها محاولة لمعرفة الإنسان في البرازيل من خلال خلائطه : ومن خلال ترابه ، ومن خلال تاريخه المعقد المختلط . إنها تحسّس للأرض التي نبت عليها ذلك الأدب ذو المذاق الخاص والطعم الحريف ، وتعرف على المسرح وما توالى عليه من أقدام وأصوات وأنين بشري . . . إن الأرض البرازيلية مختلفة عن كل أرض لافي تركيبها الجيو-فيزيائي ، ولكن في التكوينات البشرية ، والتاريخية ، والخلقية الاجتماعية ، والتربوية التي تصالبت عليها ، قبل أن تسمى البرازيل ، وبعد أن سميت بهذا الاسم . تلك الأرض كانت قارة شاسعة الأطراف بعيدة الاتساع جدا ، إلا أنها ظلت فترة طويلة ، بعد أن اكتشفت في مطلع القرن السادس عشر ، دون اسم ، ولا حدود . ماكانت تعتبر من الأهمية بحيث تمنح اسما خاصا . الاسماء الدينية التي اطلقت عليها بعضها إثر بعض ، لم تثبت أبدا . أما اللقب الذي كان يطلق على الجامعين الأولين للخشب الأحمر بلون النار فيها ، واسم الصباغ الذي إذا ما عرض للشمس اكتسب لون الجمر (Brasas) فهو وحده الذي ثبت . فكان من ذلك البرازيليون

(Brasileiros) وكان من ذلك البرازيل . (١) .

وكما لم يهتم أحد باعطاء اسم للبرازيل في البدء ، أو رسم حدود ، فكذا ما اهتم أحد بكتابة تاريخها الأول . الغزاة الأولون ندر فيهم من يعرف الكتابة ، حتى القادة الزعماء . وندر فيهم من اهتم بما يجاوز افتراس الأرض والناس ، واستغلال العبيد والهنود . ولذلك لم يعرف التاريخ المبكر لهذه البلاد إلا بالمصادفة ، وفي اللوحات المجموعة من هنا وهناك . والتي كتبها من يعرف الكتابة من رجال الدين . لم يتوغل أحد أول الأمر في الداخل . . . كان التوغل رهيبا في الغابات الكثيفة المملوءة ، بالعيون الهندية الحاقدة والنصال الحادة . ولكن حتى على الساحل الممدود بلانهاية ، من أطراف غويانا حتى مشارف الاورغواي ، والذي عرف ملاحم الفتح والقتل ، والنزاعات الدموية ، والأويثة ، وتدفق العبيد ، وغزو النساء ، حتى عليه لانعرف الا القليل القليل . (بدرو الفارس كابرال) ، البرتغالي الذي وصل هذا الساحل بسفنه ، كان يقلد فاسكودي غاما متوجها إلى الهند في رحلة عملاقة نحو الغرب ، وحاول تجنب الملاحه الصعبة عند سواحل غينيا الاريقية فوجد نفسه بالصدفة أمام بر لم يعرفه أحد بعد ! . . . ولكنه ما اهتم أبدا بهذا البر الفقير ، فإغراء الهند أقوى بكثير . لذلك اكتفى بقداس صغير تكلفه تكلفاً ، مدعياً لنفسه حق امتلاك هذه الجزيرة التي اكتشف بعد ان اطلق عليها اسم : فيراكروث (الصليب الحق) ثم تابع طريقه إلى الهند ! . . .

هذه الجزيرة التي تقع في أقصى الشمال الشرقي من القارة البرازيلية قرب

(١) ينطقها البرازيليون برازيو (بسكون الواو) واحسن الكتب حول تاريخ البرازيل كتبت بالبرتغالية . ومن ابرزها الكتاب الذي لم يكمل :
(Formacao do Brasil contemporaneo ، تكون البرازيل المعاصرة . من تأليف Caio Prado (طبع سان باولو ١٩٤٢) . وانظر المراجع ،

ريسفيه (Recife) كانت أول ما اكتشف من هذه القارة التي ظلت السنين الطوال بعد ذلك مهملة ، متروكة لاهلها من هنود التوبي (Tubi) وقلما يرتادها أحد . كانت البرتغال القليلة السكان مأخوذة ، في تلك الفترة بذهب الشرق ولؤلؤه وتوابله وبالنهب العظيم فيه ، وبتفوقها بالبارود المتفجر على أهله . فلم تكن لديها الرغبة ولا الفرصة للاهتمام بهذه الأرض الفارغة إلا من الغاب والوحش والهندي (التوبي) المتأخر ! . . وهكذا مضت فترة طويلة قبل أن تضم البرتغال إلى مشاريعها فيها وراء البحار هذه الأرض . اكتفت بالخط الوهمي الذي رسمه لها البابا على الخارطة فاصلاً بينها وبين الممتلكات الاسبانية دون ان تعلم حتى سلطاتها العليا أين يقع هذا الخط على الأرض ومن الأرض ^(١) .

ومضت السنون والبرازيل أهون من أن تكون ضمن مشاريع البرتغاليين وراء البحار . مغامرون متفرون فقط من ربانة السفن هم الذين كانوا يطرُقون جوانب تلك الأرض ، فهم واقفون على سواحلها ، فجامعون ما يقع لهم من الخشب الجمري ، ومن الببغاوات المرقشة الريش ، والقردة للعب . ! . ان لم يكن لهم حظوظ من حمولات التوابل والجواهر التي تحملها الأساطيل كالأعلام من جزر الهند إلى لشبونة . وكانوا يؤثرون للذات الرخيصة مع الهنديات

(١) اختلف الاسبان والبرتغاليون سنة ١٤٩٣ ، فور الوصول الى امريكا واكتشافها حول تملكها ، واحتكموا إلى البابا بورجيا الذي رسم على الخارطة خطاً وهمياً يمتد من القطب الشمالي إلى الجنوبي عرف بخط التحديد أو التقسيم (Demarcation) ويمر بنقطة تبعد مائة فرسخ غربي جزر آزور بحيث تكون الأراضي غرب هذا الخط مجالا لكشوف إسبانيا ، والأراضي في شرقه مجالا للبرتغال . ثم زحزح هذا الخط في السنة التالية نحو الغرب لصالح البرتغال . وهو نظرياً الخط الذي يفصل اليوم بين البرازيل البرتغالية اللغة ، وبين باقي امريكا اللاتينية ولغتها الاسبانية . ومن الطريف أن هذا الخط لم توضع حدوده على الأرض حتى اليوم لوعورة جبال الاند وضخامة الغابة الأمازونية وأهوالها . فالحدود بين البرازيل من جهة وكل من فنزويلا . كولومبيا ، الاكوادور ، بيرو ، الباراغواي ، بوليفيا غير واضحة . المعاهدة التي وقعت بعد ذلك في هذا الشأن سنة ١٤٩٤ عرفت بمعاهدة توسيدياس .

المتسامحات . . .

ما كان هؤلاء المغامرون من البرتغاليين فقط . فالفرنسيون شاركوهم في وقت مبكر التسلسل إلى البلاد ، وأقاموا مستعمرات ما بين مصب النهر الأعظم : الأمازون ، في أقصى الشمال ، إلى خليج الريو في الجنوب . غير أن فرنسا أيضا كانت لديها مشاغلها الامبراطورية في مواقع أخرى من العالم . فلم تحتل البرازيل مكانة لديها . . وبينما كان البرتغاليون يفقدون تدريجيا مواقعهم الهندية في الشرق ، وفي افريقية ، كان الفرنسيون يثبتون تلك المواقع ويتوسعون فيها . ولهذا استطاعت البرتغال اهتبال الفرصة والتشبث « كما يتشبث سرطان البحر بالكلاليب » بالساحل البرازيلي ، رغم عددهم القليل ، وجهلهم الثقافي . كل ما كان يميزهم هو الجشع المادي والعناد الشديد ! وقد انتصروا بهما . . . وازاحوا الفرنسيين .

في أواسط القرن السادس عشر كانت أولى خطوات الحكومة البرتغالية لاحتلال البلاد . أصدرت مراسيم ترخص لبعض الأعيان والفرسان احتلال بعض المناطق لحسابهم . . . وكانت من ذلك سانتوس ، سان فيسنته ، باهيا ، رسيغي ، اولندا .

كانت البرازيل إذ ذاك فراغا شاسع الأبعاد . ليس من أحد لديه فكرة عن أبعادها . وكانت أكبر مشكلاتها ترامي المسافات بين مواقعها ، وعقبات الطبيعة ، وإيجاد قاعدة اقتصادية تقوم عليها . واستطاع البرتغاليون التغلب على هذه المشكلات ، لا بحسن ادراكهم ، فهم متهمون بالغباء ، وقصص الغباء التي تروى عنهم الفت فيها الكتب ، ولكن بالعناد ، وبأمر آخر لا يد لهم فيه هو انهم لم يضطروا الى النزاع مع دول كبيرة قوية ، كما فعل الاسبان في المكسيك وباناما وبيرو . ولكن مع هنود متفرقين في الأرض الواسعة ، مساكين في القوة العسكرية وفي التدبير والترابط . وفي حين كان الاسبان فاتحين في المكسيك

يحاربون دولة غنية حربية منظمة هي دولة الازتيك ، كما يحارب قسم آخر منهم دولة المايا في وسط امريكا ، وقسم ثالث يحارب دولة الانكا في بيرو . وتسيل الدماء على طول جبال الأنذر انهارا بين هؤلاء وهؤلاء . كان على البرتغاليين المستعمرين أن يزيحوا هنود التوبي تدريجيا إلى الورا نحو الغرب ، ويستفيدوا من تخلفهم ، ومن جهلهم بالأسلحة النارية . . صحيح أن التوبي كانوا قبائل شرسة تحب القتال ، ولكنها صرفت جهودها للقتال فيما بينها ، وعجزت عن إقامة جبهة موحدة ضد البرتغاليين . والقتال المتقطع التي قاداته ضدهم فشل . وأسلوب الاستعمار الذي زحف به البرتغاليون على التوبي كان مختلفا عن أسلوب الفتح الدموي الذي فرض به الإسبان أنفسهم من المكسيك حتى شيلي والأرجنتين . . . والسفوح الشرقية لجبال الأنذر المملوءة بالغابات والأنهار من أعالي كولومبيا حتى الأرجنتين كانت حاجزا طبيعيا إضافيا بين الإسبان والبرتغاليين . فاكثف هؤلاء ، رغم محاولات المغامر الكسو غارسيا مع هنود الجواراني ، بالسهول البرازيلية الواسعة . وبينما كان اقرب توضع للإسبان ، مع البعثات التبشيرية اليسوعية التي رافقتهم ، في شرقي بوليفيا ، وفي اسونسيون من الباراغواي ، كان البرتغاليون يرتعون في البر البرازيلي الأوسع يقتلون التوبي ، ويستثمرون الأرض بالعبيد دون رقيب . . ولم يكشف الاتصال بين الشرق إلى الغرب مع المستعمرات الإسبانية في بيرو إلا سنة ١٨٣٨ حين صعد بدروايتيشيرا نهر الأمازون إلى اقليم كيتو في الاكوادور . . ترى هل كشفت تلك البقاع إلى اليوم ؟

الواقع أنك حين تتحدث عن البرازيل ، أدبا أم سكانا وحضارة ، أم تصالب عروق أم اقتصادا ، أم فكرا ، فإنك إنما تتحدث عن نصف البرازيل ، عن قسمها الشرقي ، عن أرضها المطللة عن قريب على المحيط الأطلسي . أما الامتداد الأكبر إلى الغرب فخارج الحديث . وخارج الحساب ، وخارج الوصف ، لأنه عالم آخر قائم بذاته . كان حتى الأمس القريب ، وإلى ما قبل غزو

الشركات المتعددة الجنسيات لأطرافه ، وبدء استغلاله الواسع ، العالم المجهول
ذا الأسرار ، والغابة التي يدعونها ، مع الرهبة ، بجهنم الخضراء .

حتى عهد غير بعيد لم يكن يأوى إلى هذا المحيط الغابي الأوسع إلا من ينشد
المهرب ، أو يقبل الضياع في الخضرة القاتلة : رحالة يهوى الغرابة ، أو مبشر
وهب نفسه للأب والأبن وروح القدس ، أو صعلوك طريد المجتمع ، أو مجرم
هارب ، مع بعض البقايا من الهندي القديم اللاجئ بدوره من افتراس الحضارة
الغريبة له . رواج المطاط في مطلع هذا القرن جلب بعض الشركات ، وبعض
المغامرين ، وحب الريح بالاخشاب والزراعات والبن جلب بعضها الآخر .
ورأس المال أمريكي في الغالب . ومع ذلك فهؤلاء جميعا يضيعون في البحر
المحيط الأخضر الذي يشكل أكبر مساحة غابية على الأرض ، وأكبر مجرى مائي
على الأرض أيضا . . الغابة والماء هما السيدان غير المنازعين في هذه الدنيا
الجهنمية المنقطعة عن الدنيا . الفاتحون الأولون هربوا عن هذه « الجهنم » منذ
الخطوات الأولى فيها . مسالكها المظلمة أرعبتهم . كانوا يجمعون بالذهب فيها أو
بمدينة أرض الذهب « الدورادو » الخيالية التي أوصلت الكثيرين إلى التهلكة .
ولكنهم لم يجدوا حتى حائط معبد فيها ! الغارات التي شنوها عليها كانت طويلة
شاقة . ولكنها انهارت أمام أسوار بعد أسوار من النبات الوحشي ، ومن البعوض
القاتل ، والحشرات حاملة السموم ، والمياه الهاوية « كجلمود صخر حطه السيل
من عل » ، والرطوبة المرهقة بالعرق بعد العرق . والحرارة التي تقطع
الأنفاس ، والمطر المتوالي كأن بينه وبين الأرض عهدا بالآل ينقطع

كل الحياة في هذه الغابة تقوم على أطراف الأنهار ، وتيارات الماء التي يعوم
عليها الناس في قوارب محفورة من جذوع الأشجار (الغايولا) ، أو في عبّارات
تدور على عجلات البخار ، وحديثا بالزوارق والسفن الميكانيكية والجميع
يعلمون مخاطر دوامات الماء ، والتيارات الخفية فيه ، وقصص السمك المفترس

في مياهه ، والسلاحف المائية ، والأفاعي السباحة في الأعماق . . . (الاناكندا) ، والتماسيح ! وتجتمع كل المياه في مجرى واحد في النهاية هو الأمازون ، (البارانا - غواسو = النهر الكبير) حسب تسمية الهنود ، أو النهر البحر (كما يسميه البرتغاليون ريو - مار) الذي تتضاءل أمام تدفقه سائر أنهار الدنيا . إن عرضه قرب المصب يصل إلى ٣٠٠ كم من المياه الموحلة ، وفيضانه الأصفر الذي لا يرحم يذهب بالجزر والغابات الضخمة التي تتشكل في وسطه أو عند أطرافه حسب صدف التيارات ، وتمحى غارقة حسب صدفها أيضا ، في أصوات كقصف الرعود وهزيمها الرهيب .

أما الغابة وراء الأنهار فأدغال لانهاية لها من النبات الكثيف المتلبد ، والشجر الاستوائي الشديد التنوع ، تحس معه بهمجية الحياة الأولى وحيويتها المفرطة . وثمت اعتمة داكنة يتكاثف بعضها فوق بعض ، وزوايا مدارية ، وأعاصير تهدأ وتثور ، وهوام تدب ، وحشرات تمرح في فردوسها الأرضي من نمل مفترس وذباب وبعوض . وسكون قلق يابس يخترقه بين حين وآخر تكسر غصن ، أو صراخ حيوان يفترسه آخر ، أو قفز فريق القردة عبر الأغصان في لخط وعواء متصل . وإذا تخلصت وانت تَعَسُّ على الأرض من الأفعى القمطرة (البوا) ، و(الجساركا) الصغيرة الناقعة السم ، فلن نتخلص من الوطواط الرمادي مصاص الدماء ، عفريت الخرافات الساخر ، ولا من سحر الفراشات العملاقة ذات الأجنحة المتألقة والمزركشة بقوس قزح . . . إنه عالم الموت بقدر ما هو عالم الحياة . فكل حي هناك ، كل كائن ضحية بالقوة يترصده الموت في كل لحظة . وكل شيء عدو لكل شيء ، في ظاهري من الخضرة والألوان والأبدية . . . وتعرضك في الدروب التي تشقها مستنقعات كريهة مبتلعة ، روائح مثيرة للقيء ، وجدوع أشجار هاوية في أحوال . . . كما تجد أحيانا كثيرة أوراق الكوكا التي يزعم الهنود أن إلهاً مزعوما رماها على المرتفعات في ساعة غضب ، إنه عالم السكون والكآبة والقلق . . . وعالم الحشرات والحيوان المفترس ، هذا العالم

الأمازوني الذي لم يكشف بعد إلا بعض أسرارهِ .

على أن هذه الأسرار أخذت الآن في الزوال . . . إن الغابة الجبارة تتقشع بالرغم منها ، ويصيبها القرع التدريجي . المحاولات الأولى التي تمت لكشفها في القرن الماضي كانت محاولات مسكينة هزيلة ، أمام المحاولات الجبارة الحالية . كانوا يبحثون من قبل عن المطاط ، وينتقلون بالمراكب النهرية . أما اليوم ، منذ حلت الدكتاتورية العسكرية في البرازيل ، فقد هجم أقفوان الشركات المتعددة الجنسيات ذو الرؤوس السبعة إلى ساحة الأمازون ليمسحها عن خارطة الأرض مسحا ، هم ينزلونها بالجرارات الضخمة ، وبالاطماع الأكثر ضخامة وينقلون إليها « المدينة » و « الفقراء » !! . . .

وتجري بهذا الشكل أضخم وأسرع عملية تدمير عرفها العالم ، لأكبر حديقة طبيعية عرفها العالم أيضا . حوض غابي نهري يقارب نصف أوروبا يزول من الوجود بثروته الخشبية التي تبلغ سدس أخشاب الأرض ، وبما يضم من نبات نادر وحيوان . . . وهنود الآلات الجبارة التي تقتلع الجذور المنداحة آلاف السنين بعضها فوق بعض ليست شيئا أمام جبروت النيران التي تلتهم ملايين الأشجار ، بعد الملايين ، بحيوانها ونباتها ، والجذور المتحجرة ، ما كان يعرف من قبل باسم « جهنم الخضراء » تحول معظمه إلى « جهنم الحمراء » . كل ذلك باسم افساح المكان « للفقراء » الزائدين عن الحاجة ، كي يكون لهم « مزارع » صغيرة . . . وتتبرع بذلك « لوجه الله » الشركات الامريكية ! .

إن حلف الفازنديروس^(١) مع هذه الشركات حلف مقدس قديم . والضغط السكاني على المناطق الزراعية القريبة من الساحل يهدد الملكيات الكبيرة بالتقسيم بين « الكابوكلو » . وما دامت البرازيل قارة ضخمة ، فلماذا لاينقل هذا

(١) الفازنديروس Fasendeiros هو الاسم الذي يطلق على أصحاب المزارع الكبيرة الضخمة . أما الكابوكلو فهم الفلاحون وأغلبهم من الخلاسين .

الفائض من « الفقراء الجائعين » إلى أرض الهنود في الأمازون ؟ . . . وانهم ليمهدونها لهم كي تغدو قاعا بلقعا !! . . . ولكن في « كارثة ايكولوجية » لم يسبق لها مثيل . وحين وجد هؤلاء المعدمون أن المناخ استوائي ثقيل ، وأن الأراضي التي أعطيت لهم لاتصلح للزراعة الكثيفة ، هربوا . . . وكان ذلك مبررا كافيا ليأتي الملاكون الكبار مرة أخرى فيحتلوا الاقطاعات بمئات ألوف الهكتارات بثمن زجاجي بيرة للفدان !! وهم يريدونها لتربية الأبقار ، واستثمار لب الورق ، وزراعة الرز ، لالمصلحة البرازيل الجائعة ولكن لتكديس الدولارات . فإن مرفأ بيليم (= بيت لحم) عند مصب الامازون أقرب إلى ميامي منه إلى سان باولو !! هذا في حين تلقى « معجزات » التنمية الصناعية في البرازيل إلى الشارع والبطالة والجوع أكثر من نصف عدد العمال الذين كانوا يعملون في هذه الصناعات نفسها ، في الوحدات الصغيرة والحرفية . . .

ويبقى الجوع وحده هو السيد ! . . . لاعلى الواجهة المبرقشة من البرازيل ، ولكن في الـ ٩٠٪ من الشعب الغائر الأعين ، الذي يعيش تحت مستوى الطريق والأحوال ! لكن من ذا الذي يجرؤ على الاعتراف بهذا « العار الوطني » ؟

٢) الهندي صاحب الأرض والزنجي المسلم

من الخطأ أن نتصور أن البرازيل عمرت بعد ذلك ، المهاجرون الذين وصلوها ظلوا أربعة قرون متشبثين بالساحل الشرقي ، ومايزالون كذلك الى اليوم . الفضاء الأوسع الداخلي ظل الفضاء الأوسع ، ولوانه سهول وغابات. ولا جبال صخرية هامة تسد الطريق على الناس صحيح إن معظم الأنهار الصالحة للملاحة ، كالبارانا مثلاً وسان فرانسيسكو ، تتجه من الشمال إلى الجنوب ، وليس لها من شأن كبير كطرق تؤدي إلى الداخل ، ولكن الناس اكتفوا بالساحل لا يحاولون النفوذ البعيد إلى الادغال الداخلية . وانت حتى اليوم

تستطيع أن تلاحظ أن خط المدن والتحضر يمتد على طول الساحل البرازيلي . وكلما توغلت ميلا نحو الداخل هبط المستوى الحضاري أسيالا . . . حتى تصل إلى البدائية الأولى في غابات الأمازون والبارانا . وكان هذا أحد الدوافع الأساسية لنقل العاصمة من ريودي جاينرو إلى برازيليا ، واتجاه الاستثمارات البرازيلية - الأمريكية اليوم إلى أعماق الغابة الأمازونية البكر . . .

في الداخل كان الهندي هو السيد . ولما كان جوالاً باحثاً عن الطعام ، أو الملجأ الذي يقيه تعدي الآخرين ، فقد كان من السهل ازاحته إلى الوراء في مناطق المستعمرات المتباعدة كل التباعد في البلاد . ولما كان المستعمرون في معظمهم من الرجال فقد وجدوا في النساء الهنديات العوض . وظهر بهذا الشكل الكابوكلو والمملوكو الهجين ، ابن الهندية ورجل الحدود البرتغالي الذي اضحى (متهندا) Tapuado ، جوالاً بدوره . . . قلق البرازيلي الذي يعيش في الأقاليم انما هاهنا جذوره . انه تعود الا يستقر في مكان . الأفق بالنسبة إليه تحد مستمر . والأرض مجرد مستغل عابر مانكاد تعطي محصولها حتى تحرق ، ويتحول الكابوكلو إلى أرض جديدة تستثمر وتحرق ، من جديد . . . وبحال الأرض الفضاء واسع ممدود . . . والرحلات البرية طويلة شاقة . ومواصلات البحر صعبة غير آمنة ، وحملة البريد الرسمي يلتزمون الشواطئ التي تتجه على موازاتها المرأشي من الجنوب لتغذية المستعمرات . وغير بعيد عنها كانت قوافل البغال بجلاجلها تدب تحت لذع الشمس ، بينما كان سكان باهيا الذين يتكاثر فيهم العبيد الزوج دون انقطاع يعبرون أقاليم غوياس وميناس (المناجم) بحثاً عن الماس والذهب في قيعان الأنهار ، وسكان سيارا ، المولّدون الأشداء ، يهربون من براريهم القاحلة إلى المنافذ البعيدة على وادي الأمازون ، أو إلى الجنوب الذي بدأت فيه الصناعات ! . . .

ظل هذا التجوال يتم أكثر من ثلاثة قرون على الأقدام . فالعربات لمن يستطيع

دفع تكاليفها من الأسياد البرتغاليين . والطرق تشرق بالغبار ، عند الجفاف . وتحول إلى أنهار من الوحل في الفصل المطير ! . . وقد ظن المستعمرون الأوائل - وهم جماعة قليلة العدد - أن بإمكانهم استغلال الهندي في الأرض ، ولكنه رفضهم ورفضها ، لأنه كان يتمرد على أسرها ، ويكره الاستقرار ، ويفضل أن يعمل صيادا ، أو ملاح زورق ، أو ينام . وكانت الأرض أوسع وأخصب بكثير من أن تترك للنبت الشيطاني . ووجد البرتغاليون الحل في الزنجي العبد . الآخرون من الأسبان والانكليز والفرنسيين في باقي امريكا استخدموا أيضا الرقيق الزنجي . إنه على الأقل يحتمل الاجواء الصعبة ، ومواطن شرائه قريبة في افريقيا ، وهو يد عاملة رخيصة مطواع ، ويغطي ثمرده الكتيب ويأسه بالرقص والغناء ! . . . وسرعان ما بدأت قوافل العبيد تهبط الساحل البرازيلي وخاصة في ياهيا ، وتتوزع من هناك ، ومن نقاط أخرى ، بين المستعمرات المتباعدة . . . من هم هؤلاء العبيد ؟ إنهم أشتات من مختلف العروق الزنجية ، وتختلف الألوان ، ومعظمهم من المسلمين . سبقوا بالألوف بعد الألوف ، سنين طويلة امتدت قرنا بعد قرن حتى أواسط القرن الماضي ، وأعطت البرازيل طميتها الأسود الخصب . الزنجي هو الذي صنع البرازيل ، هذه هي الحقيقة الكبيرة . لم يكن ممكنا أن تتحول هذه القارة إلى أرض مأهولة زراعية ومدن ومناجم وطرق دون الزنجي الذي أعطاها جسمه وروحه معا وحضارته الاسلامية .

قد يشكل هذا مفاجأة حتى للبرازيليين أنفسهم . فالكثيرون يكرهون أو يتناسون الاعتراف بالدور الحضاري الذي قام به الرقيق الزنجي المسلم في تكوين البرازيلي الحضاري ، ولكنه الواقع التاريخي الذي يتحدى بدأ هذا التأثير بشكل جنسي . الزنوج والهنود معا لم يكونوا بالنسبة لمجتمع الذكور البرتغالي ، القليل العدد ، المحروم من الجنس الآخر ، سوى مزرعة سهلة . والقوانين البرازيلية والبرتغالية التي كانت تسهل الاعتراف بالأولاد غير الشرعيين لم يكن

من شأنها سوى تشجيع هذا الزواج العارض بين العروق المتباينة . صحيح أن « الاخلاقيين » وصلوا درجة رفض تعيين الأشخاص الذين يعيشون مع البغايا ، في الوظائف العامة ، لكن هؤلاء كانوا أكثر وأقوى من حواجز المنع .

وقد جاء الزنج من أجواء ثقافية متعددة . مسلمة الدين^(١) في معظمها ، واسعة التقدم الحضاري . يقول فريري : كانوا يشكلون عنصرا نشيطا ، مبدا ، ويمكن أن نقول إنه نبيل في استعمار البرازيل لا يخف من مكانته ، إلا أنهم يعتبرون « رقيقا » ! ما كانوا حيوانات جر أو عمال زراعة ولكنهم مارسوا دورا حضاريا بارزا . كانوا اليد اليمنى في التكوين الزراعي البرازيلي بينما كان الهنود ، وبعض البرتغاليين اليد اليسرى البرازيل تدين لهم على الأقل بقصب السكر والقهوة التي جلبوها والتبغ والقطن والحبوب . حتى الأدوات الزراعية الحديدية كلها أفريقية . وقد طورها الزنوج أنفسهم ، والخلاسيون المولدون منهم ، حسب حاجات البلاد . ليس هذا فحسب ولكن التعدين في البرازيل ، واستخراج الحديد قد أخذوا عن هؤلاء الأفريقيين ، « كانت وسائلهم التقنية في ذلك أكثر تقدما من وسائل الهنود ، ومن وسائل الأوروبيين أيضا . ويمكن أن نضيف تأثيرا ثالثا أيضا لهم هو الطهي . لقد اغتنى وارتقى بالاسهام الأفريقي » . . ونضيف اثرا رابعا هورعي الماشية . انها في ماتوغروسو من أصل أفريقي . قامت على اكتاف الزنوج .

(١) كتب جيلبرتو فريري سنة ١٩٣٢ كتابا بعنوان « Casa grande , sanzala » (البيت الكبير والكوخ » سرعان ما أصبح كتابا كلاسيكيا وقبل أن يطبع ست مرات خلال عشر سنوات كان قد ترجم وطبع أكثر من مرة بالاسبانية والانكليزية . كما ترجم بعد ذلك الى غيرها . كالفرنسية بعنوان « أسياذ وعبيد سنة ١٩٥٢ » والاطالية . وهو يحكي بالتفصيل أشياء كثيرة جدا عن حياة الزنوج خاصة ، والهنود وأثرهم في تكوين البرازيل الحديثة ، ويكشف بخاسة أثرهم الثقافي الإسلامي . وعليه اعتمدنا بصورة أساسية في هذه الفقرات . (الكتاب ما بين ص ٢٥٥ - ٢٦٥) .

ولعب العبيد الآبقون من الزنوج إلى المرتفعات والغابات ، والبراري دورهم الحضاري أيضا . كانوا على الدوام يرفعون من مستوى السكان الهنود الأصليين . ونذر أن تركوا هؤلاء أن يخفضوا ، أو يسيثوا إلى مستواهم . كان الزنوج أهم عنصر في « عملية الأوربة » والتحضر للكابوكلو ، الفلاح ، كما كانوا صلة الوصل مع البرتغاليين ، وصلة الوصل مع الكنيسة . ولم يمارسوا تأثيرهم بوصفهم وسطاء بين الأوروبيين والسكان الأصليين فحسب ولكن بين الأوروبيين أنفسهم . الاسياد الأميون كانوا يتخاطبون من خلال عبيدهم الزنوج : يكتب العبد المسلم رسالة السيد الأمي إلى زميله السيد الآخر الذي يقرأ له الرسالة عبده المسلم المتعلم . وكان تأثير هؤلاء الزنوج أصيلا ، خلافا ، طور المجتمع الذي كان على طريق التكون في البرازيل بعناصر ذات قيمة من الحضارة الأفريقية وتقنياتها المتقدمة ، يومذاك ، لا على حضارة البرازيل ولكن على حضارة الولايات المتحدة أيضا .

٣ (ثورات فاشلة ونجاح عرقي

لم تبحث البرازيل في إفريقيا عن الطمي الأسود الذي أخصب حقولها من قصب السكر والقهوة ، وبلبل أرضها الجافة ، ولكن إفريقيا قدمت إليها أيضا : سيدات منازل للبيوت المحرومة من النساء ، وفنيين للمناجم فيها ، وصناعا لمحترفاتهما ، وزنوجاً لرعي المواشي وللصناعات الرعوية ، وتجاراً للقمشة والصابون ، ومعلمين للمدارس كما قدمت وهو الأهم شيوخاً مسلمين كانوا يلحقون بالعبيد متطوعين لارشادهم إلى الدين ، وينزلون معهم في الاكواخ ، ويلقنونهم القرآن والكتابة ومبادئ الشريعة . . . كانوا يجلبون أنفسهم معهم ، وفي اطار عبوديتهم ، ليستنقذوا البقية الباقية من تمسكهم بالدين في الظروف الوحشية التي يعيشون . من هنا كانت علاقة مقاطعتي باهيا وبرنامبوكو بالساحل الافريقي علاقة غير عادية . علاقة صداقة ليس كمثلها علاقة الشواطئ التي

نزلها الانكليز أو الفرنسيون ، وقد ظلت تتطور تجارياً حتى أواخر القرن الماضي ،
على أيدي شعوب الفولا والماندنغو الافريقية : وما يقابلها من العبيد المحررين في
البرازيل !

على أن التجارة الأولى في القرون ١٦ ، ١٧ ، ١٨ إنما كانت تجارة الرقيق ،
تجارة الأنفس التي برع بها الأوروبيون ، واغتنوا كل الغنى ، يعينهم على ذلك
تطور وسائلهم البحرية في البحر ، وأدواتهم الحربية في القتال ، وجشعهم إلى
نهب كل ثروات الأمريكيتين !

لم يتخلف شعب أوروبي واحد عن هذه التجارة الحرام . قبل كشف أمريكا
بنصف قرن كان البرتغاليون يمارسونها . كما كان يمارسها الاسبان والايطاليون
واليونان ، ثم لحق بهم الفرنسيون والانكليز والهولنديون وشعوب الشمال .
كلهم وجدوا في افريقيا خاصة منجماً من اللحم الأسود للريح السريع . أول
العبيد الذين جلبوا إلى البرازيل وصلوا سنة ١٥٣٨ فلم تمض حوالي أربعين سنة
حتى كان فيها ١٤ ألف عبد . والسكان لايزيدون على ٥٧ ألفا ! في الأربعين سنة
التالية جلب من أنغولا وحدها ٦٤٢ ألف زنجي . ولكن سكان البرازيل الملونين
كانوا قد اصبحوا بالملايين ، وكانوا يكونون أكبر تجمع للسود في نصف الكرة
الغربي .

كان النخاسون الأوروبيون يصطادون الرقيق من الهوتنتوت الذين يعملون في
رعي البقر وتحميلها ، ودبغ جلودها ثياباً واستخدام لحومها في الطعام ، ومن
البوشمان البدو الفقراء الذين لا يعرفون عدا الكلاب حيواناً يستخدمونه ،
ولا يعرفون الزراعة . فهم اشبه بالهنود المحليين ، ولكن الكتلة الكبرى والأهم
من الرقيق كانت من المجموعات المسلمة في غرب افريقيا : وهي أسمى في
التعبير الفني ، وفي التعليم ، وفي قصائد الشعر وفي نوع الحياة وتنظيمها ، وفي
أساليب الزراعة والتجارة والقتال . من هذه المجموعات البانتو البارعون في

الزراعة ، والصناعات الرعوية والذين تعتمد السمعة الاجتماعية لديهم على امتلاك القطعان لا الأرض ، وأدواتهم من الحديد والخشب ، ولديهم تعدد الأزواج . كما أن لديهم لغتهم الخاصة (البانتو) ولديهم رغم الإسلام ، الإيمان بالأرواح ، وثمت زنوج الكونغو (وهم من البانتو) أيضاً ، ويتكلمون لغة الإيبو ولغة الفانتي . ولهم أنواع الملابس والمساكن ، ولديهم الوشم . وآلات الموسيقى ، ولديهم ، بجانب الصيد البري والبحري ، اقتصاد زراعي متطور ، وتربية للماعز والدجاج والكلاب . ولديهم الأسواق ، والسلال ، والملكية المشاعة للأرض ، ونحت الخشب تماثيل فنية . . . ولمن يصنعها احترام واسع ا

واختطف العبيد ايضا من منطقة السهوب الشرقية المسلمة في معظمها ، وذات النشاطات الرعوية والخيام والقطعان من الماعز والجمال والضأن . على أن أبرز مجموعاتهم هي التي سرقت من المناطق السودانية : مناطق داهومي ، بنين ، اشانتي ، الهاوسة ، الفولا ، البورنو ، اليوروبا . . . وكلها مناطق إسلامية متقدمة الحضارة ، بسبب اتصالها الدائم بالشمال الإفريقي وبحصر . وفيها ممالك منظمة ، ومدن ، وقصور ، وتقاليدهم من العمران والحضارة عريقة ، وزراعات وتجارات تتطور منذ قرون طويلة ، وحرف شتى ، ومبتكرات ، وفنون رفيعة ، وثقافات تكثفت حول الإسلام واللغة العربية . وهؤلاء هم الذين حملوا معهم ، في قعر السفن التي قيدوا فيها بالسلاسل ، (ومات منهم من مات على الطريق) ، جميع تراثهم الحضاري ، وبذلوه في البرازيل . جردوهم في الطريق من ملابسهم وتاريخهم وأهلهم ، حتى من دينهم ، ليصبحوا في البرازيل حمالين ومزارعين وخدماً . . . اقتلعوهم بالقوة والغدر من محيطهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ليكونوا آلات في القارة الواسعة . فماذا يمكن أن يكون موقف هؤلاء المقيمين سوى مقابلة « العدوانية » الشرسة بالعدوانية والحدق ؟

وليس من السهل تقدير أعداد هؤلاء المنكودين الملايين الذين ظلوا ينقلون من

البر الإفريقي إلى البرازيل (والى كل امريكا) مدة تزيد على ثلاثة قرون (بين أواسط القرن ١٦ وأواسط ١٩) . ولكنهم بلغوا من القوة أنهم قاموا بـعدة ثورات اسلامية تحررية ، كان من أهمها تجمع المتمردين منهم ، في القرن السابع عشر ، في بالماريس بشمال البرازيل حيث كون الأبقون ما يسمى بجمهورية (بالماريس) وأقاموا لها جميع أجهزة الدولة ذات السيادة السياسية والدينية . وكانت هذه الجمهورية تغري بدينها الاسلامي ويقربها وزنجيتها العبيد الناقمين بأن يأبقوا اليها . واستعانت السلطات البرتغالية بجميع القوى الحربية في الشمال ، ومع ذلك فلم تستطع تدمير هذه الجمهورية المتمردة إلا بعد مقاومة طويلة ، وبعد أن جرى برجال الحدود من مقاطعة باوليستا (سان باولو) في الجنوب واندفعوا أمام المتاريس

وفي العقود الأولى من القرن التاسع عشر حدثت سلسلة من الثورات ، قام بها الأرقاء في الأقاليم الساحلية خاصة من سهول باهيا . وكانت قيادتها في أيدي شيوخ الهاوسا الذين يصفهم الكتاب الأوروبيون بالخطرة ، وإنما كانت عزة الدين والنفس هي التي تملؤهم . ولكن ثوراتهم سقطت بمنتهى الوحشية والقسوة ، وإن ساعدت أنصار إلغاء الرق على التنديد به ، وبالظلم الذي يمثله كنظام لا إنساني . . . ولكن معاناة الأرقاء لم تتوقف . وظلت الثورات تتكرر .

لكن آخرها كانت تلك الثورة الشاملة التي قامت سنة ١٨٣٥ في باهيا . . . كان الإسلام قد عشن وتفرع وقوي في عثمة الاكواخ (السنزالا) وكان العبيد قد بلغوا من الشكيمة في أنفسهم ، ومن القوة بدينهم ، ومن الاعتداد بكثرتهم ، الدرجة التي قرروا فيها الثورة . قاذمهم فيها الشيوخ الذين يقعون معهم في العثمة المنبوذة ، وتعاون فيها أبناء الهاوسة مع الفولا واليوروبا والناغوا والايوه والكيجة . . . كان المسلمون وشيوخهم من هؤلاء يمثلون نوعاً من الارستقراطية بين زنوج الاكواخ (السنزالا) . وهم الذين وجهوا الثورة وقادوها . جاؤوا

مؤدبين ووعاظاً وائمة صلاة ومعلمي دين ، وكانوا في معظمهم من ممالك البورنو وسوكوتو وغاندو ذوات التنظيم السياسي المتقدم ، والأدب الديني الإسلامي الكامل ، ولهم مؤلفاتهم المحلية باللغة العربية ، وفهم القوي الأصل الذي لا يقارن بتفاهات البرتغاليين . ولهذا لم يكن في استطاعتهم أن يستسيغوا العبودية للبرتغاليين ، ولا الماء المقدس الذي ينضحونهم به في « العماد » الاجباري ، ولا استطاعت عظات الكتاب المقدس المقروءة بالبرتغالية الغربية أن تطفئ الشعلة الإسلامية في صدورهم . لذلك كانت « الأكواخ » هي البيوت العامة سرراً بالثقافة العربية ، وبالايمان الاسلامي ، بينما اعتصمت المسيحية « بالبيوت الكبيرة » والكنائس ، ومثلت الاستسلام في الحياة الظاهرية . . . وكان الإسلام هو روح الثورة ومنطلقها ، وكانت العربية هي لغة التمرد والتفاهم بين الثوار . . . !

الأجواء التي سبقت ثورة سنة ١٨٣٥ كانت بالنسبة للزواج في باهيا ، اجواء حماسة دينية بالغة ، في أزقة ماتابوركوس ، على شرفة الساحة ، قرب صليب القديس فرانسوا ، وفي ظل الكنائس والاديرة الكاثوليكية . وفي الاركان التي تنتصب فيها العذراء وتمثال سان انطونيو للشبوني ، كان الزنوج يضعون القرآن ويقيمون الصلوات ، متحدين بذلك الأسياد البيض الذين كانوا يرقبونهم من النوافذ في أعالي البيوت . وكانوا يهاجمون القديس الكاثوليكي معلنين أنه ليس اكثر من عبادة لقطعة من الخشب . وكانوا يرفعون مسابحهم ذات الـ ٩٩ حبة من الخشب ، والمنتية بطرة وكرة صغيرة ، في وجه المسابح التي تحمل الصليب . . .

وذبحت الثورة سنة ١٨٣٥ كما ذبحت سابقاتها ولكن بشكل اشد عنفا ودموية . . كل قوى الدولة ، والكنيسة الكاثوليكية ، والمستعمرين ، سخرت لسحقها الشديد . كالديدان المؤذية ، « القصة السوداء » المشهورة التي تحكي عن الوحشية الإسبانية في تدمير الهنود . هي نفسها التي مارسها البرتغاليون في

خفق الثورات الزنجية الإسلامية . وهذه الثورة الأخيرة بالذات . ضحاياها ظلت جثثهم تتعفن روائح ودماً وعظماً مدة طويلة على الطرقات وفي عتمة « السنزالات »^(١) الخربة . وخذت الثورة بعد ذلك إلى الأبد . تنصر من الزنج من بقي حياً . ولكن عاداتهم الإسلامية ماتزال الى اليوم حية فيهم . لا يدخلون كنيسة إلا بعد أن يخلعوا نعالهم . ولا يسبحون بمسبحة الا بعد ان يخلعوا صليها . ويستعملون الحجب المكتوبة بالاحرف العربية لدفع الأذى ، في الاعناق او على الأبواب . ويقومون بحفلات « الزار » للاله « اوريشا » باللباس البيضاء السابعة ولو أنهم ينصبون في صدر المجلس صورة السيد المسيح . ولهم أعيادهم الدورية التي يسبقها صيام ويضحون فيها الاضاحي . ويمتنع بعضهم عن المشروبات الكحولية . هذا إلى أعداد من المظاهر الأخرى هي بقايا الروابط القديمة مع الاسلام الذي اجتث اجتثاثاً باقسي ما عرفت الوحشية من أساليب ، ولكن الكثير من المظاهر الحضارية « المحايدة » بقي : الحلوى ، الملابس ، التماثيل ضد العين السيئة ، الحل ، الأردية البيضاء . ولكن الاسلام اختفى حتى بالاسم في البرازيل بعد أن أعطاها كل ما يمكن أن يعطي من الأسس الحضارية . وقد أضاف هؤلاء الأرقاء إلى مآثرهم العمل الحربي . فقد شاركوا في عدد من الحروب التي خاضتها البرازيل ، وقاموا بدور هام في حرب التحرير ضد الهولنديين في القرن السابع عشر . واستخدمت جموع كبيرة منهم في الحرب ضد الباراغوي . ولقد كان رماح زنجي هو الذي قتل لويس دكتاتور باراغواي ، وأنهى بقتله تلك الحرب الدموية الطويلة .

وحين تم تحرير العبيد أواخر القرن الماضي فضل المتقدمون بالسن منهم البقاء أجراء ، على حالهم عند السادة . بينما نزح الكثيرون إلى المدن ، وضخموا أحياءها الفقيرة بالساكنات الحقيرة السكنية (فافيل) ، وخلقوا مشكلات اجتماعية جديدة ، بينما أوجد بعضهم مشكلة السكان الرحل بين المراكز

(١) السنزالة كلمة برتغالية مستعملة في البرازيل وكلمة زنزانة مأخوذة عنها .

المدنية . . . لكن هذه الأوضاع لم تخلق مشكلة عرقية في البلاد . . . البرازيليون يتحامونها تماماً . لا يذكرون كلمة زنجي أو حتى كلمة مولد . ويلجؤون إلى اصطلاحات أحب إذا تحدثوا عن اناس من أصل افريقي وان كان ارتباط اللون الأسود بالفقر يخلق نوعاً من التمييز ، يقوم على اساس اقتصادي أكثر منه عرقي . وعلى أي حال فللزنجي في البرازيل وخصوصاً للمولد حظ واسع في التقدم الاجتماعي . وقد لقي كثير من المولدين حظاً من الشهرة ، ومراكز مرموقة لافي الناحية الثقافية فحسب مثل ماشادو دوايسيس ، روائي البرازيل الكلاسيكي العظيم الذي ولد من أم زنجية في أحد احياء ريو الفقية ، ومثل الشعراء جونزالفيز دياس ، وكاسترو الفيس ، وأولافو بيلاك الصحفي الشاعر ، ولكن في السياسة ايضاً وغيرها مثل داعية التحرير خوسيه دي باتروسينو ، والمهندس اندره ريبوساس ، ورئيس الجمهورية نيلوبيسانيا والسناطور ، فيكونت الامبراطورية ، فرانسكوجي أكابايا دي مونتسوما . والمهندس المعماري والمثال اللامع انطونيو فرنسيسكولسوا (ويشتهر باسم أليخادينو) الذي صمم وزخرف كثيراً من كنائس جيراييس ، رغم الجذام الذي أقعده ، وأنشأ مدرسة للفن الكولونيالي تشاهد أحسن نماذجها في العاصمة القديمة المشهورة (أوروبريتو) ، وهكذا كان الزواج والمولدون منهم ، قبل التحرير وبعده ، السواد الذي اخصب التربة البرازيلية وأعطاهامع أسس الحضارة أكثر السكان عدداً وخصباً وابداعاً . إن البرازيل ، في الواقع ، هي « جنة الملونين » (١) .

٤ () الجذور الثقافية والبرتغاليون

كان البرتغاليون ، برغم قلة أعدادهم شعباً عملياً . لم يعبروا المحيط للتسلية ، ولكن لاستثمار الأرض التي فتحوها . وإذا كان عليهم معرفتها أولاً

(١) حضارة امريكا اللاتينية - وليام ليتل شورز (القاهرة ١٩٧٠) ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

فقد اندفعت مجموعات منهم عرفت « بحملة الألوية » من موقع سان باولو باتجاه الشمال والغرب . كان هؤلاء هم رواد الكشف في البرازيل . وإذا كان لهم احترام كبير في البلاد وصل حد الأساطير ، ولهم نصب تذكاري ضخم في سان باولو ، فلأنهم لم يكونوا أكثر من مغامرين متطوعين اندفعوا في الفيا في المجهولة والغابات السوداء في ماتوغروسو ، ومجاهل الوديان على نهر البارانا ، وأمنوا بمغامراتهم مستقبل البرازيل كدولة واحدة ، كما صار لاسمهم معنى الشجاعة والجرأة والبطولة الرائعة . .

كانت هذه أهم مغامرات البرتغاليين كما كانت البطولة الكبرى ، لكنها لم تكن الوحيدة . فثمت المغامرة الأخرى الحقيقية التي كانت مع الأرض واستغلالها . وكان لابد في هذا السبيل من استخدام الهندي القديم والزنجي الجديد . ولما كان الهندي سريع الملل يهرب من الاستقرار ، أضحي العبيد الزنوج العامل الأساسي في الاقتصاد البرازيلي في مساحات كبيرة من الأرض المدارية ، التي زرعت بقصب السكر والقهوة والحبوب والقطن والتبغ وفي أعمال الطواحين والمناجم ، وفي حرف الحدادة والتجارة ، والبيطرة ، وفي الخياطة والحلاقة ، وفي التكسب بالخدمات في المدن وحتى في البيوت بالطهي والكلي والغسيل . . . وفي رقص الليل والغناء . كانوا في الواقع سادة البلاد عددياً . ففي أواخر القرن ١٨ (سنة ١٧٩٨) كان عددهم ٣, ٢٥ مليون منهم ٤٠٦ آلاف من المحررين و ٢١١ ألفاً من المولدين (*) والباقيون من العبيد . وبعد عشرين سنة كان مجموع السكان

(*) ثمت تصنيفات للاختلاط العرقي في أمريكا اللاتينية : فهناك الـ (Zambo) وهو مولد من أب زنجي وأم هندي أو العكس ، والمولد من أب أبيض وأم زنجية والخلاسي من أب أبيض وأم مولدة (ويسمى كوادرون) ، وهناك الاوكتوروني الناجم من أب أبيض وأم مولدة أو خلاسية . أما الكريول فكانت للمولود من أبوين أوروبيين خارج أوروبا . وتستعمل هذه الكلمة نفسها للخلاسيين وخاصة في القرنين الأخيرين حين حملت أيضاً معنى الفلاح .

٣,٨١٧,٠٠٠ نسمة. عدد العبيد منهم ١,٩٣٠,٠٠٠ عبد أو المحررين ٥٨٥,٠٠٠ نسمة . هذا الطغيان هو نتيجة عملية التهجين التي لم يكن لها من رادع خلقي ، أو اجتماعي أو قانوني في البرازيل . وقد أدت إلى انبثاق جنس جديد ، برازيلي إن شئت ، لكنه في جملته ملون . وفي الأماكن التي يميل فيها هذا الجنس إلى السواد مثل باهيا ، تغيب الموسيقى الشعبية البرتغالية الحزينة لتحل محلها الموسيقى ذات الطابع الأفريقي ، وتحل الاحتفالات الجماعية الصاخبة المرحية كمهرجان (كرنفال) الريو أعظم مهرجانات العالم صخباً ولواناً وخلعة .

ولم يكن للهندي البرازيلي من وزن ثقافي كبير ، على خلاف هنود ومناطق الأند من الإنكا والمايا والأزتيك ، كان هنود التوبي متخلفين جداً عن هؤلاء . ولعل لمعيشتهم التي كانت تمتد في السهول الغابية الواسعة أثرها في ذلك . الغابة والمطر الشديد والحرارة الخائفة كانت تجعلهم أقرب إلى الكسل . وتوفر المياه في البارانا غواسو (الامازون) (أي النهر الكبير) ، وفي البارانا ، ونهر سان فرانسيسكو مع كثرة الحشرات وتكاثر الشجر والوحش والطير، كانت تمنع الحركة الحضارية، وتوقف الضرورات الدافعة للاختراع والمهارة وتدبر أمور الحياة . ولم يشعروا بالحاجة إلى استخراج الحديد ، أو الأبنية الضخمة من الحجر ، أو الابداع الصناعي أو الفني . وإذا كانت الحرب عندهم عادة حياتية كالقدر ، فلم تكن لديهم كباقي الهنود طرائق للكتابة الرمزية أو لحسابات الفلك ، أو الفكر المتطور . كانت الجماعة الهندية بصفة عامة نظاماً بشرياً دائب العمل بهدوء إلى درجة فائقة . وهكذا فلم يتركوا في حضارة البرازيل أي اثر سوى الأثر العرقي . في الاجسام . وبعض التأثيرات في قواعد الحياة البرازيلية ، وأثر في جني المطاط من الغابة . وثمت ميل كبير لدى معظم المؤرخين الغربيين للغرض من أثر الزنجي الأفريقي في الأمريكيتين . فإن ذكروا هذا الأثر صاغوا كلامهم في صيغة من الاستهانة غير خافية . ونسوا كل آثاره في حضارة البرازيل ، وفي اقامة اقتصادها

وفكرها ليكتفوا بما في خلفيتهم الفكرية عن الزنوج والإسلام . يقول أحدهم :
 « ومع أن (الزنجي) جاء إلى العالم الجديد وليس عليه سوى سروال من قماش
 فقد أحضر معه في رأسه الأسود جميع المدخر من الأساطير الشعبية ، ومجموعته من
 الخرافات ، وأحاديث الجن ، وطقوس الغابة الدينية . وكما فعلت الثقافات
 المتماثلة في الشمال : الفودون في هايتي ، والناينغو في كوبا ، أعطت الماكومبا أو
 الكاندومبليه في البرازيل شكلاً ومعنى مألوفين لارتباطاته بالقوى الخارقة للطبيعة
 التي ملأت زوايا عقله البدائي ، واختلط بخرافات الخاصة ما اقتبسه من عبادة
 الهندي للطبيعة وأساطيره الزاخرة . وأحضر الهاوسا وقبائل أخرى من السودان
 الجنوبي معهم عقيدتهم الإسلامية ومعرفتهم بالقرآن الكريم »^(١) .

وإذا كان الزنجي قد صنع البرازيل فإن البرتغالي قد أسهم في بنائها الاسهام
 الموازي لا من خلال عمله الخاص وثقافته بوصفه برتغالياً ولكن من خلال استناده
 إلى ثقافته الأوسع : الثقافة الأوروبية . كانت البرازيل مفتوحة بوجودهم لجميع
 التأثيرات من فرنسية وإسبانية وإنكليزية وغيرها . ولما كانت هذه التأثيرات هي
 الأقوى فقد اضيفت إلى ثقل البرتغالي الثقافي ، وإلى لغته التي لا بد أن تنتشر ،
 لأنها لغة الأسياد والحكام والسياسة ، وإلى أنماطه الاجتماعية والفكرية والفنية ،
 وإلى التقنيات الأوروبية التي تندفق على البلاد . . . وقد وجدت بجانب ذلك في
 أقصى الجنوب البرازيلي الرعاة (الغاوشو) أو الماراجاتوس سكان سهول الباميا
 الذين يعيشون على الخيل ، ولهم شعر بلهجتهم الخاصة كالمواويل .

وإذا كانت لغات الهنود الأوائل كالتوبي والغواراني ماتزال تحكي في بعض
 أنحاء البرازيل فإنها غير مكتوبة (كما تكتب الغوراني في الباراغوي) . أما من
 الماضي الأفريقي فما ترسب من اللغة دخل في البرتغالية نفسها ، وشكل لغة
 البرازيل (البرتغالية البرازيلية) . وتظهر هذه التأثيرات اللغوية الأفريقية في

(١) المصدر السابق ص ٢٢٨

أسماء الأماكن وأدوات العمل والموسيقى .

أما البرتغالي فقد اختلطت دماء الهنود والزنج الاختلاط المفرط به ، أو اختلط هو بها ، ورضي بذلك ليحل مشكلة السكان القلائل في البلاد . وباركت ذلك الكنيسة سواء أكان الأولاد شرعيين أم غير شرعيين . وأشهر رواد الاستعمار البرتغالي الأوائل اثنان : كاناديوغو ألفاريس ، الذي يعرف باسم كارا مورو ، أو « مبدع النار » الذي استقر في الأراضي الغنية حول خليج سلفادور حيث نشأت فيما بعد مدينة باهيا . أما الآخر فهو جويان رامالو وكان مجال عمله بعيداً ، في سانتا كاترينا في الجنوب . وكلاهما أضحى زعيماً مهيباً ذا نسل كثير . ثم جاء رواد الشمال الشرقي الكبار امثال دي البوكيري ، وغارسيا دافيل فتابعوا الاوائل في كثرة النسل والتهجين واضعين بذلك اساس تقليد اجتماعي بكثرة الانجاب ظل محترماً الى اليوم .

وحين قامت المزارع ، حول « البيت الكبير » . كان المزارعون الكبار هم أسياد البرازيل الحقيقيين وكانت المزارع شاسعة كبيرة فعلاً تمتد على السهول والمرتفعات وتبعد في الأفق . وأصحابها يملكونها أرضاً وبشراً ، وانتاجاً وتصرفاً . أما نواب الملك في الريو ، وقواد الجيوش في باهيا ، وماتوغروسو ، وميناس جيراس ، فليسوا أكثر من رموز للسلطة المركزية في لشبونة البعيدة . في هذه المستعمرات - المزارع بدأت نواة المجتمع البرازيلي ، وفي حفلاتها ذات المواكب المزخرفة ، والأقدام الغارقة في الوحل نشأت أسس تهذيبه الاجتماعي ، وطقوسه الفنية ، وقام اقتصاده الزراعي والصناعي ، في حين كانت الكنيسة هي الخليف الطبيعي للسادة ، وأداة التبرير لجميع مصالحهم .

أما الكتب والفكر فلم يكن لهما من مكان . لم تنشر أي كتب في البرازيل إلا أواخر العصر الاستعماري في مطالع القرن الماضي . حوالي سنة ١٨٢٠ لم يكن في ريسيفه مكتبة واحدة . وكانت في باهيا مكتبتان فقط . ولكن أئمان الكتب

مرتفعة لدرجة غير عادية . حتى أساء العلوم والآداب لم تكن معروفة في المدن يومذاك . وحالة التعليم كانت منحلة لدرجة أن الحصول على قدر منه كان يحتاج إلى الكثير الكثير من المال ، ومن الذكاء ، ومن الرغبة في التعلم . ولم تكن في البلاد جامعة كتلك التي انشئت في ليما والمكسيك تنقل فكر العالم القديم إلى هذا العالم الفج الجديد ، الذي يستخدم القوة للثراء لا التعليم . السادة الذين كانوا يرسلون أولادهم إلى كينبرا في لشبونة للتحصيل كانوا يعدون ذلك امتيازاً اجتماعياً خارقاً للعادة . أما أدوات الثقافة العادية فهي في العادة بأيدي الرهبان والقسس اليسوعيين القادمين من البر اليبيري ، والذين كانوا مشغولين بالانقاذ الروحي للزواج والهندو أكثر بكثير من اهتماماتهم بالحياة الدنيا هؤلاء ، أو بالعلم والتعليم . وكانوا بصورة عامة زمرة متكاسلة ، باردة الموعظة ، بدائية الفهم للدين . واعين بوضوح لمكانهم الثانوي في السلم الاجتماعي ، مكتفين بنوع من التعليم لا يسمن ولا يغني من جوع . وإن كانوا في الاحتفالات الدينية لا يغفلون كل الملابس المزركشة الملونة ، ولا شيثا من الطقوس ، ويتغاضون عن اختلاط الأفكار الدينية بالأساطير والبدع ، وباجواء الأنس البهيج ! جوهر خرافات البرازيل الوافرة وجذورها العريقة ها هنا بدأت . وقامت الشياطين الحيوانات ، ماكان واقعياً ، أو مشوهاً ، أو خيالياً منها ، بدور غير عادي في صياغتها ونشرها .

وقد استطاع البرتغالي بلغته أن يكون الجنس السائد ، بينما كان العرق السائد الفعلي هو الهندي - الزنجي والمولدين من الطرفين . ولم يكن البرتغاليون متعالين كالاسبان ، وإن اتصفوا مثلهم بالفردية والقسوة . فقد كانوا عمليين يقبلون مصالحة الواقع أكثر من الحرب معه . ولعل ذلك لقلتهم . وفي أخلاقهم الريفية الكثير من الكتابة التي تنفس في غنائهم الشعبي الحزين ، فيها الكثير من اللهو الجسدي ، فالفكر آخر ما يهتمون به ، والكثير من الحرص المادي وحب الثروة ،

ولو تعرضوا في هذا السبيل للسخرية ، والنكات اللاذعة ، والانتقام بالغباء .
 وبعض الكتاب يسمى البرازيليين بصورة عامة باسم صيني العالم الجديد لانهم
 شعب نفعي ، وهم في الواقع يشبهون أهل الصين في أمور عديدة ، فمع أنهم
 شعب حديث التكوين إلا أن عناصره العرقية والتاريخية والروحية قديمة كل
 القدم ، وثمت مجالات للفكر والسلوك ينزع الشعبان فيها إلى التصرف بشكل
 واحد . فليس يوحد الشعبين إلا رابطة الدم المختلط ، وليس لها الأثر السياسي
 المناسب مع أعدادهما الكبيرة ، وكلاهما يمقت الحرب بشدة لأنها اضاعة للوقت
 والمال ، ويحب المرح الشديد ، والضحك من المآسي والنوازل ، وكلا الشعبين
 محب للثروة والكلام الكثير دون حاجة ، ولكن بوصف ذلك نوعاً من التسلية ،
 ومن ملء الوقت الفراغ . أما الحساسية المفرطة فهي مفتاح الأخلاق البرتغالية -
 البرازيلية . ولا تعني سرعة التأثر أو قوة الإدراك ولكن حدة العاطفة ،
 والانفعال ، وسيطرة الشعور على الذكاء . وهي السبب في معظم الجرائم . إنهم
 يفكرون بقلوبهم أكثر من رؤوسهم . ويفكرون بالتفكير الشخصي أكثر مما
 يفكرون موضوعياً . وتجتذبهم المادة الجذب الشديد ، ولذلك تتضاءل أمامها في
 أعينهم قيم الشرف والعفة ، والواجب ، وعرفان الجميل ، والنبيل ، ويصبح
 الناس إما اصدقاء وإما اعداء دون حدود وسطى ، وإما ظرفاء وإما ثقلاء دون
 منطقة محايدة ، كما يصبح الثقلب قيمة خلقية مقبولة ^(١) .

ووفرة الثروة في البرازيل مع كثرة الفرص تدفعان إلى التكاثر وإلى الاعتماد
 على الحظ أكثر من ابتغاء العمل الجاد أو الشاق . وهكذا تصبح الحياة صفقة
 مغامرة ، ضربة يانصيب ، لعبة بيشو^(٢) . تأتي بالثروة أو تقود إلى الافلاس .
 والاثنان سواء . ولعل السبب في ذلك طيبة القلب الكبيرة التي يتصف بها الناس

(١) المصدر السابق ص ٥٣٢ - ٥٣٣ .

(٢) هي البرغوث وهم في البرازيل يقامرون عليها في لعبة شعبية شائعة جدا .

هناك . فثمت انسانية عميقة في الناس ، دينية في جوهرها ، ولكنها تتبدى . في نوع من التناقض مع المادية ، وفي ذلك التعاون مع من يحتاج العون من الأقربين ، وهي ظاهرة تقل في المدن ، وتكثر كلما توغلنا في الريف . . . إلا في ميناس جيرائس (بلد المناجم العامة) الذي كان مطمح الناس قبل قرنين لجمع الذهب ، فالشح والتجهم وعدم الترحيب هناك أول ما يجبه الغرباء . . .

وتأخذ الآداب الاجتماعية من البرازيل مكاناً أساسياً بوصفها من مكارم الأخلاق . فالنزاع مهما عنف لا يصل درجة التشابك بالأيدي . والحديث لا يقارب الالفاظ الجافة أو المسيئة . والاهتمام بالسياسة بدأ في العقود الأخيرة يزداد بوضوح لكن لم يكن حتى مطالع هذا القرن بين الاهتمامات الأساسية للناس » ولم يحدث في تاريخ البلاد ان اغتيل نائب ملك في البرازيل ، ولا ملك ولا امبراطور ولا رئيس ولا اسقف»^(١) .

والأسرة هي الوحدة الأسمى في المجتمع ، رغم النزعة الفردية ، والكلام ضمن الأسرة يستخدم الفاظ التحبب والتصغير . والاشارة إلى الاشخاص باسمائهم الأولى عادة شائعة . وليس من بلد تنجح فيه الابتسامة نجاحها في البرازيل . وروح المرح « رغم التجهم الظاهري » غالباً ما تسيطر في النهاية على كل علاقة . ولما كان كل انسان منصرفاً لتكوين ثروته الخاصة (على طريقته) فإن عدم المبالاة بالآخرين هي أم السلوك المهذب . والكلمات الدارجة على اللسان تعبر عن ذلك : ليس في ذلك من سوء (No Faz mal) لا يهم (No importa) دعه كما يشاء ولزما سوف يصير اليه (Deixa-o como esta fara ver como fica)

والفكر في البرازيل « على انسانيته » ذو بعدين ، ويفتقر إلى العمق والمثابرة ، لأنه سريع الملل . ولهذا لم يظهر فيها فيلسوف ضخم ، أو عالم مشهور ، وإن ظهر الكثير من الروائيين والشعراء . بل والمهندسين وعلماء الاجتماع . البرازيليون

(١) جيلبرتو فريري : Brasil : An interpretation p 4159

يفضلون الصناعات التي تدر مائلاً ، أو المغامرات المعتمدة على الحظ ، على المشاريع المحسوبة بدقة ، وعلى الجهد في الدراسات العليا التي لا يطررها نسبياً إلا القليل . والأمية مازال إلى اليوم شائعة . وقد تزيد على نصف السكان وتفتك خاصة بالفقراء . وحصيلة ذلك وجود أرستقراطية ثقافية برازيلية قوامها أولئك الذين أسعدهم الحظ بأن يصبحوا « دكاترة » ، ومتعلمين ، وأصحاب شهادات ، وأوسمة ، والقاب شرف . وهم الذين يكتبون ، ويسدعون ، ويتداولون تيارات الفكر فيما بينهم ، والكتب الأوروبية والأمريكية . أما الآخرون ففي شغل عن كل ذلك العالم بالكدح اليومي ، ومطاردة الثروة التي قد تجيء أو لا تجيء !

ويبلغ الذين يكتبون في البرازيل درجات رفيعة من الابداع وإن كانت ثقافة الكثيرين منهم ثقافة الأخذ من كل شيء بطرف لكنهم ، مع الكثرة العددية ، دفعوا بأعداد واسعة من الأدب ذي القيمة ، ومن الكتب الهامة ، ولعله ما من شعب في أمريكا اللاتينية قام بدراسة تحليلية لنفسه بكفاية وإمانة كالشعب البرازيلي ، في كتب جيلبرتو فرييري ، وفرناندو دي أزيغيدو ، وإلسو آموروسو ليما ، وادواردو برادو ، وهرنانتي تافاريس دي سا ، ولا من شعب فيها كتب روايات عميقة الإنسانية مثل جورج آمادو ، وغيماريس روزا ، أو كتب في النقد ، أو التاريخ ، أو علم الاجتماع مثلهم . . . وإذا كانت نسبة الكتب العلمية والفلسفية لديهم قليلة فلأنهم يكتبون بالبرتغالية أي يكتبون لأنفسهم ، وليس لديهم السوق الانكليزية ولا الفرنسية حتى ولا الاسبانية .

٥) التنظيم السياسي والمدن

منذ القرن السابع عشر صار الحاكم العام للبرازيل يختار من الأسرة المالكة في البرتغال . ويحمل لقب نائب الملك . وحين احتل ناهليون شبه جزيرة ايبيريا ، بما فيها البرتغال سنة ١٨٠٧ هربت الأسرة المالكة على الأشرعة إلى البرازيل ،

وأقامت بلاطها الملكي هناك . بقي الملك يوحنا (جون) السادس في الربو حتى سنة ١٨٢١ . وحين عاد في تلك السنة أثر ابنه (بدرو) البقاء في ذلك البلد الجميل الرخي الغني . لكنه تحت ضغط الشعب ، وأمام تحركات عدد من أقطار أمريكا اللاتينية ضد اسبانيا ، وثوراتها (بقيادة بوليفار في الشمال وسان سيمون في الجنوب) اضطر لاعلان استقلال البلاد عن البرتغال الأم سنة ١٨٢٢ واعلن نفسه امبراطورا باسم الامبراطور بدرو الأول بعد أن كان « الأمير الحامي المستديم » .

وجاء بعده ابنه بدرو الثاني (١٨٣١ - ١٨٨٩) فكان عهده الطويل ، وخاصة بعد سنة ١٨٤٠ ، وبعد هدوء ثورات الانفصال ، عهد نمو وتطور واسع في البلاد . لكنه ما أن أعلن الغاء الرق حتى ثار عليه رجال المستعمرات المتنفذون أصحاب الأملاك و « البيوت الكبيرة » ، وغادر الكثيرون منهم البلاد بينما استغل الآخرون الفرصة فقاموا بانقلاب أجبروه فيه على التنازل عن العرش . . . واعلنت البرازيل جمهورية سنة ١٨٨٩ على انها كانت بالضرورة وبسبب تنوع الأقاليم فيها جمهورية اتحادية .

وحكم البلاد خلال سنوات معدودة عدة دكتاتوريين حتى سنة ١٨٩٨ حين صار الرئيس ينتخب انتخاباً . وقد استمر ذلك حتى سنة ١٩٣٠ حين استعان جوتوليو فارغاس بالأزمة الاقتصادية - وكانت أزمة عالمية - ففرض نفسه رئيساً . ثم حول رئاسته إلى دكتاتورية سنة ١٩٣٧ ، واستمر يحكم البرازيل حتى سنة ١٩٤٥ ، حين اضطره الجيش إلى التنازل . واختير رئيس منتخب بدلاً منه . لكن فارغاس مالبث أن عاد سنة ١٩٥٠ مرة أخرى غير أنه لم يبق طويلاً إذ انتحر سنة ١٩٥٤ ، تاركاً مكانه لرئيس ضعيف (ج . كافيه الابن) الذي انتخب بدلاً منه ، جوسيلينو كوتشيك سنة ١٩٥٥ . وكان في الأصل عامل مصعد ، لكنه منح البلاد سياسة شعارها التقدم والتطور ، وأعلن ضرورة بناء عاصمة داخلية

تنقل حضارة البرازيل إلى الداخل القاري الاوسع . وبدأ بناء « برازيليا » العاصمة الجديدة . وفي البرازيل يعللون طرح المشاريع الضخمة بعظم ما يعود منها على طارحيها من الربح . فكوبيتشيك صار من اعظم أغنياء العالم بسبب برازيليا !.....

ولم يطل عهد الرئيس الذي تلاه جانيو كوادروس الذي اتخذ المقشة شعاراً له تعبيراً عن تنظيف الفساد . واتخذ النظام البرلماني مع رئاسة للوزراء ، وحكومة تقوم بالاعمال . فاضطر للهرب سنة ١٩٦١ ولم يستطع الرئيس التالي له : جوان كولار الذي اختير في سبتمبر سنة ١٩٦١ البقاء حتى نهاية عهده ، لأن ثورة عسكرية قامت سنة ١٩٦٤ اعادت البلاد الى النظام الرئاسي . ثم وضعت سنة ١٩٦٧ دستوراً جديداً أعطى الرئيس صلاحيات اضافية . واستمر هذا الدستور قائماً حتى سنة ١٩٨٤ حين قام انقلاب آخر أعاد الى البلاد النظام الانتخابي العام ، والحكم البرلماني . وكان الرئيس قبل ذلك ينتخب من قبل مجلس الشيوخ والنواب فصار الحكم شعبياً عاماً . .

وإذا كانت البرازيل تقسم سياسياً الى إتحاد من ٢٢ ولاية فإن أربعاً من هذه الولايات وهي في الأمازون مازال مقاطعات أرضية . اما الولايات فهي وحدات سياسية مستقلة ذاتياً ، يحكم كلا منها حاكم ، ولها مجالسها ، وقوانينها . وهذا ما يجعل الاسم الرسمي للبرازيل هو الولايات البرازيلية المتحدة .

أما من ناحية المظاهر الجغرافية الاقتصادية والطبيعية والبشرية فالبرازيل يمكن ان تقسم ستة اجزاء :

(١) الشمال الشرقي ، ويمتد من أقصى الشمال حتى حدود مدينة ريو دي جانيرو . ويمتد غرباً عبر البراري المملوءة بالرمال ، وبالشجر القزم ، والأعشاب وبعض النخيل حتى غابة الامازون . ونموذجها البشري هو النوردستينو . واهل هذه المنطقة اعتادوا الحرب منها لاسيا في فترات القحط . وهم يهربون غرباً إلى

الامازون وميناس جيراييس في أسوأ شروط الرحيل والجوع ، أو يهاجرون جنوباً إلى سان باولو بحثاً عن فرصة صناعية ، أو عن عمل في مزارع البن والرز أو في تربية المواشي .

على أن هذه المنطقة ذاتها هي منطقة الزنج ، والخلائط العرقية ، ومنطقة السكر والمعادن التي حملت البرازيل في القرون السابقة ، ومنطقة الحضارة الثقافية الأولى ومنها كان وما يزال يظهر الكتاب والخطباء ، وشعراء الاناشيد مثل روي باربوسا ، كونسالفيس دياز ، جورج آمادو ، وغيمارائش روزا ، وجيلبرتوفيري ، وغراسيليانور أموس داكونيا ، ومن أطراف الامازون جاء ثياغودي ميللو . . .

(٢) منطقة ميناس جيراييس الجبلية وسكانها (المينيروس = المعدنون) كثيرون ، هم أحفاد الباحثين عن الذهب والمعادن الأخرى في القرون الماضية . وهم جبليون يتوزعون في مزارع صغيرة على الوديان المرتفعة . يتسمون بالكلام القليل والمحافظة والتنظيم . فهم العجلة المنظمة للبرازيل . لكنهم مفعمون أيضاً بالشعر ومنهم الشاعر دروموند اندراد ، ودارسي ريبيرو .

(٣) منطقة الأقليم الاتحادي الريو . واهلها (الكاريوكا)^(١) قوم يعيشون ليومهم . يحبون التزين ، والحياة العريضة ، والأعمال الاستعراضية (كمهرجان الريو الذي يدوم ثلاثة أيام بلياليها) . كما يتصفون بسلطة اللسان والنزوات . . . وبغير قليل من التقلب . ولأنها كانت العاصمة لمئات من السنين فإن تقاليدها الفكرية استقرت ، ونجم عنها أعداد من البارزين ، من أهمهم : ماشاد دو اسيس وكلاريس ليسبكتور .

(٤) منطقة سان باولو (وهم الباوليستا) قاطرة البرازيل التي تجر كل شيء .

(١) هي الكلمة التي يسميهم بها البرازيليون .

هي عماد الاقتصاد البرازيلي . وأهلها ديناميكيون ينحصر تفكيرهم في المال والتنمية والصناعة والتملك ، وهم يعرفون أنهم سادة البلاد الحقيقيون ، لذلك فهم يفرضون رأيهم فإن لم يسمع ثاروا وفرضوه . ولقد سجلوا أكثر من ثورة على الحكومة الفدرالية ونجحوا فيها . على أن الطابع الصناعي للمدينة لم يخلق فيها الفكر ولا الشعر . وثمت فيها أعداد من الكتاب والشعراء والصحفيين من أبرزهم أوزوالدي اندراده وعثمان لينس .

(٥) منطقة ريوغرانده دل سول (نهر الجنوب الكبير) . ونموذجه السكاني هو الغاووشو (او الماراغاتوس) الذي يعيش في أقصى جنوب البرازيل بين البحر والمناطق الأسبانية من الأوروغواي والأرجنتين . فهو أقرب في مزاجه إلى الإسبان منه إلى أهالي باهيا . وثمت بينه وبين سان باولو مقاطعة ألمانية السكان واللغة تعيش كالغربية ، لأن سمعة الغاووشو - وهم أشبه الناس بعرب مراكش في السمرة والاخلاق وركوب الخيل والكرم والعمل في الرعي - تطغى عليهم .

في هذه المناطق الخمس تبرز ثلاث مدن بطابعها الخاص المميز :

باهيا. (السلفادور) :

مدينة الزنج والحب . تطل على أمها إفريقيا عبر خليج جميع القديسين ، تسيل كلها في الصباح نحو البحر ومياهه ، فالسوق الصغير على رصيف الميناء ممتليء بالناس والباعة ، وألوان الثمار من المانغو الى الدراق الى البابايا الاستوائية والكرز . والميناء غاص بقوارب الصيد ، وبالسماك كنصال من الفضة ، وبالمشعوذين الذين اتقنوا علم الأعشاب الشافية من كل العلل ! وبالمأكول من حساء الذرة والتابيوكا و « بالحلوى » (Alua) التي يمتزج فيها السكر بالفلفل ، والزنجبيل بزيت النخل والكمون . . . دون أن نذكر الفاتابا والايفو والزنجيم . . . وفي سان يواكيم ، وهو السوق الكبير ، تقدم المدينة أجمل خزفياتها

التقليدية المحملة برسوم الزهر والثيران . بينما تمتاز ساحة « المشهرة » ببيتوها الاستعمارية الكبيرة التي كانت تسكنها الارستقراطية ، وبكنيستها الزرقاء ، وتجارتها الخفية بالتعاويد والتماائم . . . و « بالمشهرة » تلك الآلة التي كانت النبيلات يسترقن النظر من نوافذهن العالية اليها حين يعاقب فيها العبيد بحبس أيديهم وأعناقهم بالخشب ، بينما تهوى السياط الممزقة للجلود على أبدانهم . ولقد اختفى هذا كله الآن ولكن المآسي لم تختف بدورها . الشوارع ما تزال مملوءة بالأطفال السود الجياع . والمتسولون كالذباب . . .

وإذا كانت أسماء الشوارع في باهيا تصلح عناوين قصائد : « شارع الخفايا الخمس عشرة » « ساحة الأبواب السبعة » « جادة المعذنين » فإن رائحة السمك التي يقذفها الشاطيء ممزوجة برائحة العرق الزنجي تذهب بالشعر كله . . . إلا في الليل حين تنبعث من الشاطيء صوت خلاسية تغني :

إن كنت تخشى زوجتك

أو كانت لك عشيقة

فلا تقترب مني

ويهب من البحر نسيم مثير كأنما (يمانجا) آله المياه - في الزعم الزنجي - يدعو فيه الناس إلى البحر . بينما خشخشة الماراكاف وقرع الطبول يأتي من بعيد لا تدري من أين يأتي ؟

هذه المدينة ، ناسها ، شوارعها ، حياتها ، جذورها السوداء هي منابع الوحي لعدد من الكتاب والشعراء . وهي التي تعطي حروفهم اللون الإنساني ؛ تماما كما أن البراري الشحيحة القاحلة في السرتون هي منبع اخر لوحى إنسانى اخر

ريودي جانيرو :

المدينة الرائعة جمالاً ومتعة وتنوعاً . أخذت اسمها من خطيئة اخطأها مكتشف

خليجها استاسيودي سا . كان يقلع بأشرعته بين القنوات الساحلية العملاقة في صبيحة أحد أيام يناير فظن الخليج المستطيل (وهو خليج غوانابارا) نهراً فسماه نهر يناير (رپودي جانيرو) . وصححت الخطيئة بعد ذلك . ولكن الاسم بقي على تلك التعريجة الساحلية الضخمة المقفلة بجبل أكابولكو ، والتي تحتضن البحر ، والبحيرات . وقلة جبلية كقالب السكر ، وقلة أخرى يقوم عليها تمثال للمسيح ممدود الذراعين ارتفاعه ٣٨ متراً بينما تغلغل فيها الغابات حتى تلتصق بالابنية الضخمة . ويمتد ساحل كوبا كابانا قوساً من النور والابنية ، والرمل البحري للمستحمين ، والبحر المستكين عدة كيلو مترات انها ميناء الفردوس بخضرتها وجمالها الطبيعي الاخاذ . وان كانت في الوقت نفسه جهنم الفقراء والشحاذين المتكومين في « فافلات »^(١) متشعبة بجوانب التلال الصخرية على السفوح . (لاسيردا) أحد حكامها سنة ١٩٦١ اراد تخليص المدينة من منظرهم المؤذي فأغرق بعضاً منهم في البحر !

. ولم تهتز المدينة للنبا . ظلت كما كانت مدينة تعبء اللذة ، وتستجيب للرعونة والهوى واللامبالاة وتوزيع البهجة . جوها الاوركيدى المجنوني لا ينسجم مع تمثال المسيح المشرف عليها من عل باعثاً في النفوس الشجن . ولكن الفتور الذي يقابل به أهلوها (الكاريوكا) تعاليم العقيدة . يسمح بكل شيء . إنها في قرارها وثنية الروح ، وثنية السلوك ، وثنية الاسراف والمرح والاحتفالات . ولم تفقد شيئا من وثنيته المرحه بآنتقال العاصمة منها إلى برازيليا . كل ما فقدته هو القيود الرسمية التي كانت تحد من مرحها المجنون . وبالرغم من شح المياه تارة فيها ، ومن فيضان المجاري تارة اخرى ، ومن انقطاع الكهرباء ثالثة ، أو توقف وصول المؤن

(١) الفافلاس Favelas اكواخ وأخصاص مسكنة جداً من التنك والخشب والحرق ، يسكنها الزنوج على السفوح الشديدة الانحدار في الربو أو حولها . وتؤلف أحياء من البؤس والقذارة والجريمة .

من التلال المرتفعة حولها ، فإنها آخر من يأبه لكل ذلك . . . ففي اللجنة ليس ثمت من يسأل عن هذه الأمور . . . إنها تنام وتستفيق وهي تتأمل ، كالمرأة الحسنة ، جماها الرائع في مرآة البحر السحرية . . . وتضحك !

لكنها تقبر في الأعماق مأساتها ، وفقرها الزنجي وتلهو عن مآسيها بأجماد كرة القدم ! ويتنظر المعدمون من سنة إلى أخرى موسم الكرنفال . ويدفعون في إعداد ثوبه المزركش ما يقتصدون في السنة كلها ليغرقوا في الرقص آلامهم وينسوا في ثلاثة أيام ٣٦٠ يوماً من البؤس القاتل المثير . . .

سان باولو :

هي المدينة النقيض للريو . فريدة في سعتها . في مصانعها في جدها الشديد وفي عبادتها للكروزيرو^(١) والكونتو . انها مدينة « كوزمبوليت » ، لا طابع لها . فيها الناس من كل لون وجنس ، ومن أربعة أركان الارض ، ولا مبدأ سوى العمل . ولا تعرف سوى لغة الاحصاءات والمصلحة ، من لا يعمل لا مكان له فيها . وهي لهذا بلد إيجابي ، قوي العزيمة ، متعجرف . أهلها ينظرون من على إلى المدن الراكدة الأخرى وبخاصة الكاريوكا ، سكان الريو ، بوصفهم اناساً لإرضاء الجسد وللانغماس في نور القمر . . . اسست منذ ٤٣٠ سنة مركز تبشير يسوعي على اسم القديس بولس بيراتينغا . لكن في حين كان القساوسة يهتمون بروح التروى الهندي ينقلونها ، كان زملاؤهم العلمانيون اكثر مخاطر وكسباً في اصطياده وبيعه رقيقاً . وحبوتهم البالغة تظهر في أنهم وحدهم الذين عملوا على اكتشاف مجاهل البرازيل . فإن « حملة الالوية » المغامرين منهم . ومع ان البن يزرع احياناً بعيداً جداً عنهم فإنهم احتكروا تسويقه ، فهو يأتي اليهم للبيع . وسان باولو مركز البن في العالم . ومع أنها ظلت حتى القرن الماضي مجرد مستعمرة

(١) هما وحدتا العملة في البرازيل .

إلا أنها اخذت تنمو مع الولاية التي تقع خلفها . فنشاطها يمتد صعباً الى ميناس
جيرائس وغرباً الى ماتوغروسو وجنوباً الى بارانا وريوغرانده . . . هي جنة رجال
الاعمال والمال والمصارف والصناعيين الكبار تبتلعهم حتى الارهاق والسكتة
القلبية . ولاندعي اي تفوق ثقافي مع ان فيها جامعة وصحفاً قديرة وحركة فكرية
هامة . ولديها من الاهتمامات المتنوعة ما يجعلها لاتأبه كثيراً بان تكون مدينة
مباهج . لقد تركت ذلك لغيرها . واذا قامت فيها المباني الشديدة الارتفاع فانما
قامت على اضلاع وجماجم المسحوقين فيها ، الذين يموتون في العتمة وراء كأس
رخيصة ، وحلم بشرة في القمار لإيتمكن أن تكون . ان سان باولو بقدر ماهي
قاطرة الاقتصاد البرازيلي هي كالمفرمة الضخمة تفرم دون أن ترحم حتى أحبابها
الأقربين .



الفصل الثاني

البرازيل الأخرى

١ - العناصر المتفرقة

ما أعتقد أنني بحاجة إلى حمل مصباح ديوجين والركض ، طويلاً أمام القارئ في الباحات والدهاليز للوصول إلى قصة الأدب البرازيلي . . . الأمر أيسر من ذلك بكثير .

إن هذا الأدب الذي ستقرأ فتجنفوا أو تسيع عما قليل ، ليس بالتيه الذي ضاع ثيسوس في عطره وفي ليله الزنجي ، لأغزل لك الخيط الهادي ، بين مساربه ، وإلى تهاويله والكنوز . إنه شيء من جميل ما قد تقرأ ، ومن حلو ما قد يتاح لك أن تعرف وتكتشف وتشغف . ولهذا فهو ليس في حاجة إلى من يمشي أمامه بالمباخر والتراتيل والأبواق ، وإيجاء القيمة . . .

كل ما قد يجب أن تعرف بين يديه انه أدب قادم من البرازيل

ولأنه قادم من أرض الخشب الجمري ، ومن مزارع البن الخضراء ، وكوخ الزنجية راقصة السامبا ، ورحاب الأمازون - الأب ، والغاب الذي لا ينتهي عند أفق ، لأنه قادم من هناك فإنه لابد من أن تربط بينه وبين جذوره هناك . . . في البرازيل . خلال هذا الموشور الفكري فقط تنتثر - إذا انتشرت - ألوانه الحارة . . . إذن فطعم إنساني خاص يشع من حروفه وفواصله ، وإذن فنكهة الحرج الوحشي والخلاسية الفكرية والصخر المعدني الذي يمزقه الغيم ثم يلمه ، والأفاعي كدوائر الرعب في الماء الضحل ، وأجنحة الطير المرقش بين الاغصان المشبكة وأحلاط

العروق والعادات التي تصطرع في صمت ، أعنف الصراع وأقساه . . . إذن
فكل ذلك بعض ما فيه !

إنك لم تقرأ بعد شيئاً من هذا الأدب القادم من البرازيل . ولقد تسأل بين
الشك واليقين : هل للبرازيل أدب ، وهل لهذا الأدب خواصه الجيوفيزائية -
الفكرية من لون وعطر وطعم ونشوة وحرارة أرض وجسد ؟ هل هناك (برازيل)
أخرى في دنيا الفكر تعدل قارة الامازون خصباً وسعة وامكاناً ؟ ولقد تركض إلى
الصفحات التالية تفتضحها عن تلك البرازيل الأخرى فيخيب ، أسوأ الخيبة ،
سؤالك . ولعلك لن تعثر على ذلك الادب الجديد ذي الأحراج والأفاعي وترقيش
الطير ! بل إنك لو اجد قصصاً عادياً من هذا القصص الذي تقرأ لإخوانك وفي
صحفك ، فعاقد حاجيك عنده ، ومعجب ببعض أو معرض عن بعض ،
فخارج من آخر حروف الكتاب ولا شيء على شفتيك من البرازيل سوى طعم
الحلم الذي هدر

ومع ذلك فإن هذا الكتاب لا يزعم أنه أكثر من دعوة إلى اكتشاف
البرازيل . . . في الادب ! البرازيليون يرفضون « كولومبوس » . لا يعترفون به .
مكتشف البرازيل . هو في تاريخهم (القبطان كابرال) أما كولومبوس فله
الله . . . وان يقطع أصابعه من الغيظ ! . . . ونحن في الشرق العربي نحتاج إلى
« كابرال » أدبي يرسي مجاديفه فيه عند حروف (دي أسيس) وشطآن
(راموس) و(لوباتو) وفي أمازون (جورج آمادو) الجبار ! ويكتشف لنا
« البرازيل » الأخرى . صاحب الكتاب ، في هذا الذي يقدمه للقارئ
العربي ، ليس (كولومبوس) . لا يدعي لنفسه أنه اكتشف اميركا ، ولكنه قد
يكون كابرال ! . . . يجب أن تضيف أنت وأضيف أنا الى (أطلستا) الفكري
وجغرافيتنا الثقافية أسماء (أسيس) والرغيل البرازيلي الذي تلاه . . . حتى
(آمادو) الأخير ! يجب أن نضعها ، في مكانها من دنيا الحرف الحلو ، هذه

الأسماء بما ترتعش به من حيوات لاتنتهي ! فإن ها هنا في البرازيل أيضا ثقافة جديدة تتكون ، وحضارة تبرعم ، وفكراً يحصرم ويعد بالكروم ، وإن كانت حواجز اللغة والأرض قد أبطت كل ذلك حتى الآن في مجاهل المجاهل عندي وعندك . .

كل شيء في البرازيل يبرعم وينمو ويعد . . البرازيل بلد الغد . كذلك رآها (ستيفان تزفايغ) ، وكذلك يراها كل من يعبر إليها المحيط . إن أبرز ما فيها أنها إمكان وأنها وعد . وهؤلاء الكتاب الذين سوف تقرأ لهم هم من هذا الرعيل الذي صنع ويصنع ، في أناة وبطء ، البرازيل الفكرية . هم مهندسو الثقافة البرازيلية . لم يصلوا بعد في الحرف إلى ما وصل إليه زملاؤهم مهندسو المادة من خط جديد . « برازيليا » الفكر لم ترسم بعد على الورق « كبرازيليا » الحديد والأسمت . في الفكر ، في اللون ، في اللحن ، في الكلمة ، لم تحدد بعد خطوط واضحة ، لم تبرز قمم مرمدة . لم يتعق بعد ذلك التفاعل الحي الخلاق بين الأرض البرازيلية ومن عليها وما عليها لتتكون في دنيا الفكر برازيل الفكر . .

ولاذنب للبرازيل في أن تكون حتى الآن طفلة الروح ، لا شخصية واحدة فيها . فهي أمشاج من العروق والعادات والأقاليم والشجر والنهر والبركان . شلالها الوحشي لم يروض بعد ، وعروقها المعدنية ماتزال تراباً من التراب ، وأهلها ، حتى الأقدمون . ماتنفاك تنبض فيهم روح الفاتح المستثمر ، أو حقد الهندي البديء ، أو ذلة الزنجي الأسير ! فهناك برازيلات أعداد ، لا برازيل واحدة : هناك برازيل (الكاووشو) في الجنوب وبرازيل (الألماني) في (سانتا كاتارينا) وبرازيل الغابة في (ماتوغروسو) وبرازيل (الزنجي) و (الكاندومبله) في (باهيا) وبرازيل الجوع والفيافي الممزقة في الشمال وبرازيل (الريو دي جانيرو) أجل عواصم الدنيا وبرازيل (سان باولو) الآلة القاسية الضخمة ، وبرازيل (الأمازون) والغابة الاستوائية والزورق المسكين والدابة

المرخية الأذان والشجرة الشيطانية !

وعلى هذه الأرض وتلك كتبت قصص كثيرة من الرعب الإنساني والحيواني على السواء ، قبل أن ترقص (كارمنزينا) فيها رقصة (البايانا) ، وتمزج السامبا المقدسة في الكرنفال ، ويتآخى كأس القربان الكاثوليكي مع (الأوريشا) الأفريقي !

حتى في دنيا المادة ما يزال لدى البرازيل الكثير الكثير مما تكشف وتعطي للتكوين السوي . وإذا تسامت أنوف المعامل كالغاب حالاً على حال ، في سان باولو ، وتزاحمت ناطحات السحاب في (ريو) وانداحت الساحات في (بيلو هوريزونتي) بل وفي (ماناوس) ، ف بجانب هذه المدن الكبرى ، على أمتار منها ، ما يزال الزحف على الوحشي قائماً ، وإذا سيطر القانون والادارة المدنية عند الشواطئ ، فما تزال ضمن اطاراتها ومن وراء تلك الاطارات مناطق اللاشريعة ، وإذا قامت الجامعات الكبرى تركض الشعراء والعلماء والكتاب والفنانون من حولها يركضون بكل فج ، فغير بعيد منهم ينتهي عالم الذرة ، ودنيا الاكليروس وألف ألف فيلسوف وعالم وعبقري أنجبهم الإنسانية لبدأ البدء ، وليبدأ الهندي الوحشي ، والسهم والقنينة النيئة ، وطب العشب والسحر وآلة الخشب ، وإذا انبسطت المطارات ، وامتدت الطرق المعبدة كنبض الشرايين السود ، ومشت الآلة في المزارع هنا أو هناك ، فعلى أكتاف هذه المطارات والطرق والآلات تنطلق غابات (البامبو) و(الاكاجو) و(الجاكارندا) ، وأشجار بلا اسم ، وأشجار مفترسة ، وأشجار تبكي ، وغابات تتناول ضحاياها كدن من الخمر للزهو والنشوة ، وتلتف أفاعيها والجذور والأغصان متكلسة كالصخور في عنق أبدي

ولقد تزهو الواجهات الانيقة في البرازيل ، وكعوب الأحذية المدببة التي تملأ الأرصفة موسيقى ، بأخر ما ابتكر من لباس وجوهر ورفاهة في أطراف المعمور ،

ولكنك واجد بجانبها الهندي النحاسي يدافع الجوع الأسود ، وأحفاد العبيد
الزنج الأوائل يجرعون (البنكا) المحرقة كالجحيم ، ثم ينامون بعيون حمراء من
التعب ، ومن السكر ، ومن شيء آخر لست تدري كيف تصفه لعله
الحيوانية ! ولقد تنهمر الخيرات من كل لون بهيج في مزارع البن والكاكاو
والموز والقصب في الجنوب والوسط فتتحدّر عليها أرجال الجائعين من قفار
الشمال ، حدوداً جافة كالجراد ، لتنام على أرصفة المحطات في الجنوب وليختلط
الخبر بالشر فلا يحجز بين الطرفين سوى أكياس الطحين الفارغة . . . من المعونة
الاميركية !

ويتكلم الألماني ، ويتكلم العربي ، ويتكلم الايطالي والفرنسي والانكليزي
والبرتغالي والياباني ، والزنجي الذي جاء مع الفاتحين ، والهندي الذي هرب
للدغل . . . يتكلمون جميعاً ، برج بابل من اللغات والعقائد والعادات ولكنهم
يتفاهمون . . . إنهم كوكيتيل البرازيل العجيب !

هذه البرازيلات المتناقضة تنتظر أن يروح بها مكوك الحياة ويرجع على النول
الأبدي ، ليكون النسيج . تنتظر العابرة والزمن ، لتحول برازيل متجانسة
الابعاد والامشاج . ولتظهر - أو لا تظهر - فيها ثقافة تحمل اسمها وموقفها من
الحياة .

على الدرب ، في هذا النسيج الفكري الحي الذي ينمو في البرازيل ليكون
روح البرازيل وقوامها اللامادي ، تنتثر أسماء وأعمال ومحاولات وسواق من الخبر
وجباه ملتعبة بعد جباه . . . ومن هذه اللهجة المشتبكة تبرز أمامك أسماء : ماشادو
دي أسيس ، اقليدس دي كونييا ، مونتيرو لوباتو ، خوسيه لينز دو ريغو ،
غراسيليانورا موس ، جورج آمادو ، كارلوس دراموند دي اندراة . . . لتكشف
لي ولك بعض طريق (القصص) والشعر في الفكر البرازيلي . . .

ولقد يشوقك أو يثير فضولك أن تعرف قبل هذه الأسماء مكانها ومكان غيرها

من تاريخ الفكر والأدب في البرازيل ، يشوفك أو يثير فضولك أن تعرف الاطار العام لذلك التاريخ ونجوم القدر الأول فيه على الأقل . .

إن كان ذاك فهناك أطرافاً من الصورة والاطار ، نقصها أكثر من كمالتها ، والباهت الضبابي فيها أكثر من الواضح المحدد . أيزعم زاعم أنه بالغ كتابة تاريخ فكر وأدب وشعر لخمسمائة سنة في خمسة آلاف سطر ؟

٢ - الجذور الاولى

في البدء كان « الكشف » و « الكشف » كان سنة ١٥٠٠ . (كابرال)
 الفارس البرتغالي مر صدفه بأنف القارة الممدودة ، منذ الأزل الأقدم ، على الطرف الآخر من بحر الظلمات ، ثم تلا مروره عصر الفتح ، مائتين أو ثلاثمائة من السنين . . . ولعله ما يزال إلى اليوم قائماً عصر الفتح . نبلاء ، مغامرون ، رهبان ، شركات ، قرصان ، فلاحون ، مجرمون ، بسطاء ، مرتزقة ، صناع ، عبيد ، بدأوا يفدون على مراكب الخشب إلى أرض الخشب الجمري . الراية لملك البرتغال ، والكسب بينهم وبينه . كان الزحف عجيب الخطوط والمرامي والنهايات ، كتبت فيه آلاف بعد آلاف من قصص البطولة والخسة والجشع والمأساة والرعب . . .

قصة (كارامورو) خلدت لأنها قد تكون رمزاً لكل أولئك . فقد زعموا أن سفن (ألفاريس ديبغو) غرقت بجماعته فمن نجا من الموج تلقفته أنياب البدائيين على الشواطئ ، أو مهالك الغابة الطاحنة . وأما هو . . . ألفاريس ، فقد نجا مع برميل من البارود . . . وقد أطلق بندقيته ^(١) والهنود يطيفون للفتك به . . . فرمى بعض الطير فبهتوا وخرأوا سجدوا لكارامورو . . . كارامورو الإله

(١) لم تكن البندقية قد عرفت بعد سنة ١٥١٠ سنة الحادثة فقد عرفها العالم مع جيوش شارل كان سنة ١٥٢١ وكان يحملها ثلاثة جنود .

التنين ، إله النار الخارج من البحر . . . وكان نصيب هذا الإله الزائف أن يحكم القبيلة ويبنى بابنة شيخها ، ويدشن « بذلك » أول حجارة في تكوين البرازيل السياسي والعرفي !

القصص الأخرى كانت كلها على الطراز نفسه : سطوة الابيض القادم من البحر بعدة الحضارة الحديثة على الهندي القديم وسلب كنوزه وعرقه وأرضه .

كان القرن الأول للفتح قرن تحسس للأرض : من فيها وما فيها . القصيدة التي كتبها (فاسكودا غاما) ^(١) في « البحار التي لم يبحر بعد عليها أحد » حول آسيا وأفريقيا ، كتب مثلها (أنطونيو رابوزو) وهو يتوغل في كثافة الغابات البرازيلية . والشيد الأخير للمغامرة البرتغالية التي بدأت على شواطئ المحيط الهندي ، إنما كتبت على الشواطئ الغربية من الأطلسي ، بحر الظلمات . هنا حل بحر الغابات المتمرد محل المياه الهائجة ، وحلت القمة المنتصبة كالمردة ، والنهر المجنون ، والشجرة العمياء ، والوحش والحشرة والحميات المضنية ، ووديان هاربة كجدران الجحيم ، والصواعق والمطر ، وعين الهندي الحمراء كالكرزة الناضجة ، محل الموج والأعماق والعاصفة ورعب المياه الممدودة إلى حيث لا أرض ولا تراب !

نحن إنما نعرف الطبيعة الشعرية الناعمة التي تهمس القصيد، وتشير الغرام والشجون . نعرف الطبيعة الأليفة . إنها غزلنا وسماء الوحي الجميل . . أما أولئك الذين قصدوا البرازيل فاتحين فقد واجهوا طبيعة أخرى ، بدائية كيوم الخلق أو أدهى ، مفترسة كأفتك الوحش أو تزيد . طبيعة كان ناضلها عنا أجدادنا الأوائل منذ بعيد ، فلم يبق لنا منها إلا ما بقي من النمر في الهر ، وبقيت في البرازيل هذه الطبيعة - وفي أميركا كلها - تنتظر وحش الأرض الصغير :

(١) المكتشف البرتغالي المعروف .

الإنسان ، حتى القرن السادس عشر !

وتقضت مائة بعد أخرى بعد ثلاثة من السنين في غزو تلك الطبيعة . كان الإنسان وحده هناك . الفعالية الإنسانية هي التي انطلقت في لعبة نضال لامتيل لها مع قوى مجهولة كعاصف الجن ، قوة حتى لتكاد تحسبها إلهية ، عديدة ومفاجئة حتى لتدفع إلى الجنون !

وأولئك الذين عملوا على الغزو يعرفهم التاريخ البرازيلي بأنهم أصحاب اللواء^(١) إنه يحيي لهم الهام ويخلدهم كل الخلود ، ولكنه لا يعرف من أسمائهم الا القليل القليل . لم يكونوا قواداً ولا سياسيين ولا فرسان نبالة ولا رهباناً ذوي رسالة ولا عملاً حكومة كأجورين ! . . . كانوا أناساً عاديين أرمضهم العطش إلى الذهب . . . وإلى الزواج من غادة هندية؛ معظمهم رجال لا ارتباط لهم بأحد . لم يقسموا اليمين لمولى ، ولا على أكتافهم شارة أو رتبة . يمشون جماعات ورايات ويفتحون بأرجلهم والغؤوس دروباً بعد دروب . أسماؤهم نكرات كانت تطوى لدى موتهم الذي كان ممكن الوقوع كل لحظة . ومنطقهم كان عارياً بارداً حازماً كالسيوف التي يحملون في أيديهم . قدرهم المرعب أنهم سلكوا طائعين طريقاً يعرفون أن الفشل فيه يعني الموت بكل بساطة وقسوة . وقد مشوا الطريق حتى النهاية . جميع الأخطار والهوى والمصاعب اتحدت وارتقت على دروبهم فتخطوها جميعاً في صمت ملحي طويل . وإذا خلدوا في ذاكرة البرازيل فلأنهم قاموا ، واعين وغير واعين ، بعملين جبارين ما

(١) Bandeirantes حملة الأعلام ، الكشافة ، الرواد . كلها يمكن أن تترجم هذه الكلمة ولكن معناها ضمن الاطار التاريخي البرازيلي يحمل الكثير من معاني الشجاعة والجرأة والبطولة الرائدة . وهؤلاء الرواد انطلقوا من سان باولو في مناطق الساحل يستكشفون أعماق البرازيل فيهم الجنود والكشافة والمستكشفون وفيهم المغامرون والأدلاء والطلبة والباحثون عن الذهب وفيهم العبيد وكانت تصحبهم في الغالب عائلاتهم إن وجدت .

يزالان ديناً على كل برازيلي : معرفة الداخل البرازيلي بغناه وروعته ، ووضع حدود البرازيل صوة بعد صوة .

ولولا اللواتيون لكنت البرازيل اليوم بلداً صغيراً كبعض صغير البلدان في القارة الأميركية ولم تكن ، في رقعة المدى ، تعدل أوروبا كلها إلا قليلاً .

على أن ثمت ديناً معنوياً آخر قلما يتحدث عنه الناس ، ويتحدث عنه القلة في همس ، هو « أن البرازيليين هم في أكثر من معنى ، ومن ناحية من نواحي الحياة والتاريخ ، الابناء الشرعيون لأولئك اللواتيين » . « نحن مثلهم - كما يقول الكاتب رونالدودي كرفاليو - لم نملك بعد فكرة الاستقرار التي تظهر في الأمم القديمة المكونة . نحن قلقون سواء في السياسة أو في الأدب ، في الفن كما في العلوم . إن تهديد الهوى السحيقة يلاحقنا بالبحار واستمرار . ولكن هذه الهوى تنتقل مبتعدة عنا ، حتى قبل أن ندركها ، كما لو كان ذلك بمعجزة . هذه « البداوة » والترحال الفكري للذنان هما ميزة البرازيليين الواضحة ، هما انعكاس تلك « الهوى » التي عاشها أجدادنا السابقون ! » .

فيما كان اللواتيون يعيشون « الأوديسة » التي لم تكتب ، تنقلاً في داخل البرازيل وعلى حدودها القارية قرونًا ثلاثة أو تزيد (السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر) جرت ملحمة أخرى على السواحل الواسعة . القرن السابع عشر خاصة قذف إلى تلك السواحل حملات الطامعين . الهولنديون قدموا أولاً في حملة أولى ، ثم ثانية ثم حرب ثالثة ، ثم حمل الفرنسيون . وكان على البلاد أن تدافع عن نفسها سواء أعانها البلاط البرتغالي أو لم يعنها . .

وبلاط لشبونة وحاشية البلاط كانوا يتجشأون الذهب القادم من المستعمرة الجديدة ، في قوافل من السفن لاتنقطع . قضوا القرن السادس عشر يغيرون ويبدلون في طريقة حكمها وتقسيمها ومديريها وحكامها العامين . ثم قذف

الأثر بالبلاد إلى العرش الإسباني زمناً (١٥٨١ - ١٦٤٠) نقل إلى سواحلها أحقاد وحروب أوروبا ، ثم وجدت فيها أحقاد محلية مزقتها بين اليسوعيين ، وتجار العبيد ، والزنوج ، والباعة المتجولين ، وذوي الأرجل الكاسية . . . فراء كل اسم حرب وثورة حتى مطلع القرن الثامن عشر . وإذا كانت الحرب مع الإسبان ثم الفرنسيين ثم تحرير الهنود هي أبرز أحداث هذا القرن فإن اللوائيين كانوا أبطاله الحقيقيين . وإذا كان القرن السابع عشر قرن حماية السواحل البرازيلية فالقرن الثامن عشر هو قرن تأمين الحدود في قلب القارة وغزو الداخل الغايي !

هذه الفترة من تاريخ البرازيل التي امتدت قرنين ونصف القرن (١٥٠٠ - ١٧٥٠) يقابلها في التاريخ الأدبي مرحلة من مثلها . ما كان لأوائل المغامرين والحكام والعبيد والنبلاء وقباطنة البحر والتجار الذين قدموا البرازيل أن يكون فيهم شاعر أو كاتب . وما البرازيل يومذاك بمحل لربة الفنون ، ولا لسدنتها وجنها . بعض اليسوعيين « مثل الأب آنشييتا (Anchieta) وبعض السراة (مثل بنتو تيشيرا بنتو Bento Telxeira pinto) كتبوا في القرن الأول للفتح (السادس عشر) شيئاً من شعر أو نثر يمكن أن يلحق بالأدب والتاريخ . ولكنه يجب أن يلحق أيضاً بأدب الوطن الأول : البرتغال . كانوا يكتبون ويعينهم ترنو إلى لشبونة لا إلى أرض البرازيل .

وعلينا أن نتنظر حتى القرن السابع عشر لنرى المشاعر الوطنية المترددة تقوى بالنضال ضد الأجانب في السواحل ، ويرسم الحدود ، وازدياد الثروة ، ونمو الزراعة ، وبظهور العائلة البرازيلية والحق على الأجنبي ! وتحول البرتغاليون والزنوج والهنود معا ، بالتدريج ، إلى برازيليين . وفي منطقة باهيا ظهرت مجموعة من الشعراء والكتاب كانت تقرأ أدب البرتغال كما تقرأ شعراء النهضة الإيطالية والإسبانية (تاسو ، كونغورا ، لوبز دي فيغا ، غابرييل دو

كاسترو . . .) وعن طريق التقليد والتأثر بالمحيط الجديد ظهرت المدرسة الباهيانية . . . (A Escola Baiana) وكان فيسنتي دي سلفادور (Vicente de Salvador) أشهر الكتاب ، وغريغوريو دي ماتوس (١٦٣٣ - ١٦٩٦) (Gregorio de Matos) أهم الشعراء الأول مؤرخ ، في معنى من المعاني ، أما الثاني فكان الشعر عنده وسيلة للسخر من المجتمع والحياة . . . والفصائح ! كانوا يلقبونه فم الجحيم بسبب الهامه السام وقافيته اللاذعة . أكان أخلاقياً أيضاً ؟ أكان غنائياً ؟ . . . ما هذه الأسطر بالمكان الملائم للحديث الطويل عنه ! . . . كل ما يهمننا منه أنه كان مرحلة في الطريق ، كان أبرز وجوه الأدب البرازيلي في العهد الاستعماري (Colonial) حتى ظهور (بازيليو دا غاما Basilio da Gama) ميزته التي تجعله أقرب إلى الشعراء المعاصرين من أي شاعر آخر أنه كان يهجن لغته ويصل بالتهجين إلى بنية لغته ذاتها . ويمزج في شعره ، بغية التضاد والغربة ، بين مفردات الهندي (التوبي) والكلمات الأفريقية ، في عملية مرحلة من التوفيق اللغوي الساخر . فلغته الشعرية « حساء كريولي (فلاحى) متبل بههارات استوائية » لاذعة !

ثم كان القرن الثامن عشر في عقوده الأولى . وإذا بمرض « الأكاديميات » يتسرب من أوروبا إلى البرازيل . المجتمع الأوروبي التقط عن العهود الكلاسيكية الأولى فكرة اجتماع عدد من الشعراء والفنانين والعلماء والفلاسفة والميتافيزيكيين والمهرجين في « أكاديميات » ذات اجتماعات دورية لمقارضة الحديث ، وأضحت الاجتماعات « صالونات » لكل شيء ! فظهرت في البرازيل أكاديميات من مثلها . في سنة ١٧٢٤ أسست « الأكاديمية البرازيلية للمنسيين » ! (الاسم وحده يدل على وضوح الشخصية القومية الجديدة) . ثم تبعها أكاديميات أخرى : (السعداء) و (المختارون) في ريودي جانيرو (والمبعوثون) في باهيا . ولكنها كانت كلها ذات عمر قصير . لقد أخذت الحياة اتجاهاً أبغورياً تناسب فيه التناسب العكسي حب الظهور الثقافي مع الثقافة

الحقيقية . وبينما برزت الفردية البورجوازية تجاه نبالة الدم ترك الذكاء مكانه للحساسية والمشاعر وثمرت الحساسية على حساب الذكاء

من مثل ذلك أن بريتوليا (Brito Lima) الذي طبقت شهرته الآفاق في عصره لم يترك أثراً من التطور في الفكر البرازيلي . وقد كتب روشا بنتو (Rocha Pinto) الشاعر المؤرخ (تاريخ أميركا البرتغالية) الذي حاول أن يحصي فيه ، في إطار بلاغته ، كل شيء من تاريخ البرازيل حتى عهده . وأنشد الشاعر مانويل دي سانتا ماريا (Manuel de Santa Maria) الشعر التقليدي وظهر معه أنطونيو جوزيه دا سيلفا (Antonio Jose da Silva) الذي ألحق بتاريخ الأدب البرتغالي .

٣ - منذ أواسط القرن الثامن عشر

بالرغم من بعض المظاهر الباهتة فإن البرازيل كانت ، حتى الآن ، في الفلك البرتغالي ، كلها له حتى . . . القافية وهمسة الحب . كانت هذه القارة كلها امتداداً غير طبيعي ، للشبونة . ولهذا فإنها بلغت في النهاية من الثقل والقوة حد الانفصال عن الأم ! كان المجتمع والحكم والاقتصاد والفكر في البرازيل ذليلاً بعيداً يهتز بالتبعية العفوية بما يهز البرتغال وأوروبا من التيارات . أعين الناس كانت معلقة على الشاطئ الأوروبي وكذلك اللسان . ولكن هل يعني ذلك أن قلوبهم لم تكن تحفق على لحن جديد ؟ أن مشاعر الناس كانت مغلقة في أقفاصها الأولى ؟ أن الطابع الاستقلالي لم يكن قد بدأ بعد يطل ، في مختلف نواحي الحياة والفكر ، في البرازيل ؟

لقد كان انفتاح الناس على أوروبا كلها ومدارسها الأدبية وثوراتها في السياسة والفكر هو الخطوة الأولى نحو الاستقلال عن البرتغال ، ذلك السيد الذي يفترس الذهب ولكنه يفترق إلى الاحترام والموهبة !

إن المرحلة التالية التي تحتل حوالي ثمانين سنة من تاريخ البرازيل كانت المرحلة الانتقالية الحاسمة (١٧٥٠ - ١٨٣٠) . صحيح أن صوت جامعة (كيمبرا)^(١) كان الصوت المهيمن ولكن الفكر البرازيلي كان يتكشف عن تطوراتها الخاصة الكثيرة . أولئك الحكام في البرتغال الذين لم يكونوا يفهمون من البلاد الجديدة سوى أنها « تلك الجبال والمناجم من الزمرد »^(٢) التي تزيد في كنوز البرتغال ، أولئك كانوا السبب الأول في بث الغضب الأخرس لدى المتوطنين الفاتحين . وبينما كانت سبائك الذهب تتكدس ، وصناديق الجواهر تطفح في لشبونة ، كانت مشاعر أخرى تتكدس وتطفح على الطرف الآخر من البحر . كان عرق الناس اليومي في الأرض الحديدية يتفصد ويتفصد معه الصبر .

وقد مشى التاريخ الأدبي ، كتفًا لكتف ، مع التاريخ السياسي لهذه الفترة . كان نواب الملوك يمثلون الاستمرار البرتغالي ، وصلة الوصل بين لشبونة وريودي جانيرو ، ويقابلون تيارات الفكر المحافظة على الولاء . . . وكان أبرز الناس في الثقافة والفكر هم الذين قاموا بالمحاولات الاستقلالية الأولى . . . وفشلوا . لماذا؟ لقد يكونون رجال مثل أعلى ولكنهم لم يكونوا عمليين . كانوا طليعة الانفصال ، ولكنهم كانوا يجهلون أن روح الشعب لم تتبلور بعد . لقد سبقوه فتلقوا الضربات الأولى . أما الجماهير فلم تكن مهيأة للنضال من أجل استقلالها السياسي والاجتماعي والاقتصادي . ولا الفكري طبعاً ! الشعراء والنظريون لا يستطيعون تجسيد الحرية للناس . إنهم للقوى الدافعة الهائلة ، ولكنهم لا يصلحون زعماء للجرأة والطلائع . فولتير وروسو لم يصنعا الثورة الفرنسية ولكنه الجوع الذي صنعها . . . والشعب في البرازيل لم يكن شعباً برازيلياً بعد ، ولا كانت الثورة بعد قد أصبحت من مخططاته ومفاهيمه . ولهذا لم تنجح حركة الشهامة التي

(١) أشهر جامعة في البرتغال ، قرب لشبونة وأقدم جامعة هناك .

(٢) من شعر (داكوستا)

قادها (جوزيه ماسييل Jose Maciel) أوقادها (تيرادنتيس Tiradentes) ،
ولكن دم (ماسييل) ترك ربيعاً أحمر للحصاد المقبل ، وأجزاء جسم
(تيرادنتيس) التي ملحت وبعثرت في أزقة فيلاريكا أطعمت الناس « جسد »
الحرية ، وعلمت الجيل التالي الاستقلال بدل الخوف . .

في هذه المرحلة ظهر الشعراء فقط ! اكتسح الشعر النثر . لم يظهر من كاتب
لامع في القرن الثامن عشر البرازيلي . وأما من الشعراء فظهرت مدرسة !
وظهرت هذه المدرسة في بؤرة معينة أعطتها اسمها ، منطقة « المناجم » (مينا
Minas) ومهدت هذه المدرسة للاستقلال ، لتكون شيء سيكون فيما بعد :
برازيل الفكر . إِنْ أسماء غوانزاغا (Gonzaga) ، (بيشوتو Peixoto) ،
(داكوستا) ، (دي سانتا ماريا) هي أول الأسماء التي يمكن أن تحدد تلك
البرازيل ! و (بازيليو دا غاما) خاصة ، بقصيدته (الاوروغواي) ، أحسن
وأكمل قصيدة أنشدتها الأرض الحديدية خلال العهد الاستعماري كله ، قد
وضع أسس الرومانتيكية البرازيلية التي كانت مقدمة الاستقلال الفكري !

وإذا كانت المدارس الأدبية في كثير من الأحيان من مبتكرات وعلائم عصور
الانتقال ، لأنها محاولة لمسح القلق الفكري في الناس ، بتأكيد بعض القيم ، فقد
كانت ميزة (المدرسة المنجمية) العودة - مع أذواق أوروبا طبعاً - إلى استنطاق
العهد الإغريقي والعهد الروماني القديم . عادت الآلهة القديمة المنسية إلى
الرقص ! وعاد تيوقريط وفرجيل إلى الحلبة ولكن . . . دون دم حار ، دم
إنساني ! هكذا أنشد داكوستا (١٧٢٩ - ١٧٨٣) وأنشد بيشوتو (١٧٤٩ -
١٨١٢) والمتعما في العصر ، ولكنها ناما بعد ذلك في السجلات الأدبية ، ظلالاً
باهتة . . . للتاريخ !

وقد تبع هؤلاء جمع آخر ، لم تكن تأثيرات الرومانتيكية الأوروبية ، وآثار
الثورة الفرنسية وما تلاها ، قد اكتسحتهم بعد ، وإن كان روسو والموسوعيون

يتراءون من خلالها . كان مثقفو البرازيل ما يزالون يغنون الحب الكلاسيكي ،
وفينوس والتيتان ونبتون وباخوس والآلهة الشقر ، في الوقت الذي كانت أوروبا
تقع فيه في بحران السوداوية الرومانتيكية والحساسية الفردية . سوزا كالداس
(١٧٦٢ - ١٨١٤) كان أبرز الباقين من شعراء هذه المدرسة المنجمية . وأما من
كان يمثل الفكر الموسوعي الأدبي في البرازيل فهو دون شك : جوزيه بونيفاسيو
دي اندرادا أي سيلفا Jose Bonifacio de Andrada e Silva (١٧٦٥ -
١٨٣٣) ، أكمل فكر في ذلك العصر . عالم أخلاقي . خطيب سياسي ، شاعر
وأفقه في المعرفة يمتد من علم المعادن إلى القانون إلى علم الاجتماع وفنون
البلاغة ! . . . كان موسوعياً متأخراً عن عصره ، وفي غير وطنه ، لأن أوروبا في
ذلك الوقت ، من عهد الثورة الفرنسية ثم نابليون ثم الملكية العائدة ، كانت قد
انطلقت مع « اللاعقائدين » (Incroyables) ومع « آلام موسيه » وبدعة
« اللاسراويل » (Sans-Culotte) ومذابح روببسيير ونابليون ! . . . ولهذا ،
وبالرغم من أثره الفكري ، فقد انطفأ (بونيفاشيو) في التاريخ ، وانطفأ معه
معاصروه الكتاب الكثيرون . . . (مونتالفرنه) ، (فونسيكا) . لم يكن بينهم
من موهبة حقيقية تبقى !

في القرن التاسع عشر فقط ، ولأسباب عديدة سياسية وفكرية ومعنوية ،
دخل الفكر البرازيلي مرحلة القومية الحقيقية . أضحى برازيليا . وظهر أدب
البرازيل . إن ارتقاء البلد الجديد إلى رتبة مملكة بعد أن كانت نيابة مملكة ،
وانتقال الحاشية البرتغالية إلى ريودي جانيرو عوداً إلى البحر الذي أتت
منه ، وفتح المرافئ لكل شراع وتجارة ، وقد كانت قبلاً لأسطول لشبونة ، وظهور
الجرائد الأولى (مثل الوطني) التي تعاون فيها كثير من الكتاب ، وإقامة المطبعة
(التي أصبحت فيما بعد المطبعة الرسمية) ، وأخيراً إعلان الاستقلال مع كل ما
رافقه من نضال ، وما طبع به البلاد من طابع ، كل ذلك أسهم في تكوين ولايات

متحدة أخرى بعد تكوين الأولى بحوالي خمسين سنة^(١) . لقد تشكلت نهائيا ملامح الخليط العرقي الجديد ، وشاركت في تكوين الروح القومي ، وأعطت قوة وسحراً للأصوات الخجولة التي كانت تنادي من قبل بالحكم الذاتي ، والتي كان يخنفها الحكام ونواب الملك !

خلال ثلاثين سنة ، غابت ، وبسرعة ، ظلال ملوك الذهب في لشبونة عن البرازيل ، وتحطم الصنم الكبير بضربة مسرحية من ابنه ونائبه في البلاد . لقد يكون (نابليون) حين ركل العرش البرتغالي ، وألجأ الملك والحاشية إلى البرازيل قد ساهم في التمهيد للاستقلال . ولكن الروح البرازيلية كانت من القوة بحيث ان (دون بيدرو) ، ابن الملك نفسه ونائبه وراء البحار ، صرخ في نوبة من نوبات الزحار ، ومن الضيق بمطالب أبيه ، (صرخة إيبيرنغا) : الاستقلال أو الموت ، سنة ١٨٢٢ ، فكانت صرخة الاستقلال النهائي ، وخاتمة البرتغال الأخيرة في البرازيل !

منذ تلك الصرخة التي مضى عليها أكثر من قرن ونصف القرن لم ينقطع الأدب البرازيلي عن التجاوب مع تيارات الأدب العالمية ، ولكنه كان إلى ذلك يحمل نكهة البرازيل . كان « يتبرزل » أكثر فأكثر ويأخذ ويعطي ، يحمل هويته ... وإنك لتستطيع أن ترى المدارس الأدبية الأوروبية ، بتسلسلها التاريخي المعهود ، تنبت على أرض البرازيل ، وتفرع ، وتتجسد في هذا وذاك من الكتاب ، منذ الرومانتيكية إلى الطبيعية إلى الرمزية إلى ... إلى ... اليوم . ولكنها تبقى برازيلية !

٤ - الرومانتيكية الابداعية (١٨٣٠ - ١٨٦٨)

الفترة الرومانتيكية في البرازيل يقابلها القسم الأكبر من عهد الأباطرة . (دون بيدرو الأول) الذي صرخ في إيبيرنغا صرخة الاستقلال سنة ١٨٢٢ كان

(١) البرازيل تدعي رسميا الولايات المتحدة البرازيلية ، أو جمهورية ولايات البرازيل المتحدة

أقل من أن يفهم إلى أي مدى تؤدي صرخته . وما عثم أن اصطدم الاصطدام المر بأصدائها . . . وبأصداء أخرى عن الحكم الدستوري وردت من وراء البحر إلى القارة الأمريكية . فلم يجد أمامه سوى أن يركب البحر من البرازيل . وانتظر الناس ، مع مجلس الوصاية ، تسع سنوات (١٨٣١ - ١٨٤٠) أن يبلغ ابنه الرشد . والناس يمتدحون عهد هذا الابن (دون بيدرو الثاني) الذي لم تعرف البرازيل ثالثاً بعده والذي استمر حكمه حتى سنة ١٨٨٩ . ولكن عدداً من العواصف كانت تعصف بالبرازيل في عهده . ومن خلال الثورات والحروب والاصلاحات والمشاكل كان تيار واحد يقوى ويشدد هو الميل للجمهورية

فرنسا خاصة ، كانت هي المثال المرموق . ومادامت راضية في الناحية السياسية بتاج شارل العاشر ولويس فيليب ونابليون الثالث ، فالبرازيل راضية ببيدرو الأول ثم بيدرو الثاني وحين ثارت فرنسا على الملوك ، ثارت بدورها البرازيل على الأثر .

أما في الأدب فكان لابد لذلك الرضاع الفكري بين البرازيل وفرنسا من أن يفتح لداء العصر (Weltschmerz) الطريق من باريس إلى ريو دي جانيرو وباهيا و . . . دون تأخر كثير . كان لأوروبا عذرها ، في أعقاب الثورة الفرنسية ومذابح نابليون ، وتطورات الاقتصاد ونمو البرجوازية ، أن تصل إلى رعب الشك . زلزلت القيم زلزالها . فالعقل الكلاسيكي السكوني ؛ بجلال قوالبه الأغريقية - الرومانية ، لم يعد يستطيع أن يبقى الإله المعبود الذي تستكين الإنسانية إلى ظله . طريق اليوزس تشعبت طرقاً . ففي كل جبين وكل قلب نما فكر حر يتمرّد على كل نظام . الفردية ، الحساسية المرضية ، الشعور الديني ، القلق ، والحياة غدت حزينه حتى الأعماق . الألمان هم الذين بدأوا هذه الحركة . (غوته) كان كاهنها الأول . ولكن تطورات الحياة الأوروبية جعلت منه النبي وصاحب الرسالة . (فوتر) كان شخصاً في رواية ، فلما كان ما كان

أصبح طريقة في الحياة . حساسيته المرضية أضحت « داء العصر » كله . وعلى طريق فرتر مشى (منفرد) بيرون و (رونه) شاتوبريان . ومشى فيني وموسيه وشيلر ولامارتين والآخرين . . . ولم يعد حتى الجنون الطموح من « فاوست » بقادر على أن يوقف أهواء « الشيطان » !

ومع أن البرازيل لم تكن في أوروبا جغرافياً إلا أنها كانت في الفكر منها . كان المثقف البرازيلي يتكون في باريس ، أو على سؤرها الثقافي ، والبلاط البرازيلي ، كان يتكلم الفرنسية . وطرق الحياة على السين كانت تجد حياة ثانية في ريو دي جانيرو . وإذا كانت الابداعية (ثم الطبيعية والرمزية والواقعية) قد وجدت لها عوامل وجود على الرين والسين فقد وجدت عوامل من مثلها خلقتها في صدور أبناء « البارانا » و « سان فرانسيسكو » ^(١) وما أكثر من كان يعيش منهم في أوروبا نفسها . . . فاستقلال البرازيل السريع عن الوطن الأب دفع بالنفوس إلى الفردية ، وإلى العاطفة العرمة ، وإلى القلق بين روابط الأمس وغامض الغد ، وفرش البساط للرومانتيكية .

الممهد الأول ، في البرازيل ، إن لم يكن الابداعي الأول ، هو : غونسالفيس دي ماغاليانيس (١٨١١ - ١٨٨٢) . كتابه الذي طبعه في باريس سنة ١٨٣٦ (أنفاس شعرية وأشواق) كان بدء شعر جديد في البرازيل . اتفق الكثيرون على أنه عهد جديد في القافية لأنه جعلها أكثر حرية ، وأشد حركة ، وأوسع خيالاً . ولكنه لم يكن للحب والسوداوية والألم ولكن لله . كانت القصيدة الدينية - الوطنية شغله وكل انتاجه . كان يستند على هذه الفكرة :

« الإنسانية تمشي والله يقودها ! »

أما الابداعي الكبير فهو غونسالفيس دياس (١٨٢٣ - ١٨٦٤) . انه ليس

(١) البارانا وسان فرانسيسكو هما اكبر واشهر انهار البرازيل بعد نهر الامازون ويسيلان في نصفها الشرقي من الشمال الى الجنوب .

بفخامة (هوغو) ولكنه في مثل أسي كيتس ولامارتين . إن مؤلف (مارابا) .
 « لا يمد حتى النجوم حركة الزراع الرائعة وهويبذر البذار » كمؤلف « تأملات » ،
 ولكنه يجترع الحزن في كل شيء : يبكي ألم الأرض التي ستجرحها جذور النبات
 المقبل ، وبؤس الانسان الفج الذي يزرعها وأسى الحبة التي ستكون في
 الغد طحيناً ، ثم خبزاً ذهبياً على مائدة رجل سعيد ! كان يتحسس الطبيعة في دمه
 الذي يتصالب فيه الهندي ، والزنجي العبد ، والبرتغالي المسيحي . وهو الذي
 جعل البرازيلي ينظر وجهاً لوجه : في وجدانه القومي ، وتكوينه الخلفي
 والخلقي . « كان ك بعض الأشجار الاستوائية التي يختلط فيها جمال الزهرة بنكهة
 الشمرة ، وألوان الورق بهديل الطير والموسيقى الصماء للريح في كونشرتو غير
 منتظر » .

وظهر شعراء آخرون غنوا « الشك » . . . منهم ألفاريس دي آزيفيدو الذي
 أدخل إلى الثقافة البرازيلية سخر بيرون ، وسوداوية موسيه ، وقلق شيلي ،
 والتشاؤم الخيالي من ليوباردي . الرغبة في الألم كانت المميز الأول له ، والبرازيليون
 ظلوا حتى زمن قريب يقرؤونه بشغف مع رفاقه . « أوليست ميزاته التي يتميز بها
 بالغذاء المناسب لشعب حزين ؟ »

أما الشاعر الابداعي ، من الجيل الثاني ، (الذي عاد يحتل الآن مكانة في
 الاتجاهات الطليعية في الشعر العالمي ، بعد طول الانغمار والنسيان) فهو
 جواكين دي سوزا اندراده (Joaquin de Sousa Andrade) (١٨٣٢ -
 ١٩٠٥) او لنلقبه كما كان يحب أن ينادي بتوحيد لقبى عائلي أبيه وأمه
 (Sousandrade) رغبة منه في أن يكون لهذا اللقب وقع اغريقي ، وليكون
 عدد حروفه بعدد حروف اسم شكسبير . صدرت مجموعته الشعرية الأولى سنة
 صدور ديوان معاصره بودلير ، سنة ١٨٥٧ ، وازهار الشر البودليزية قبالها
 سوزاندراده بعنوان : قيثارات برية (Harpas Salvajes) ، لكن شعره فيه

كان أقرب الى صوفية نوفاليس ، وهولدرلن منها إلى تشاؤمية بودلير الوحشية . وفيه شطحات من التأمل الوجودي تبعده عن الرومانتيكية لتدخله جو الفلسفة الرمزية .

وقد وصل « الرمز » ، أوجه لدى سوزاندراده في قصيدة الغيسا (Guesa) التي نشر سنة ١٨٦٧ أناشيدها الأولى ، ثم جعلها ثلاثة عشر نشيداً ونشرت في لندن سنة ١٨٨٨ . وغيسا اسم لطقس هندي قديم ، لدى هنود الانكا ، يلقب به الطفل الذي يسرق من والديه ليكون اضحية لإله الشمس بوتشيتشا . فيرى في معبد الإله حتى العاشرة ثم يشرع في الحجيج كرة بعد أخرى الى المواقع المقدسة ليقوم بالطقوس الدينية اللازمة حتى إذا بلغ الخامسة عشرة ربط إلى عمود في ميدان دائري بالمعبد ، ورماء كهنة الشمس (التشيكس Xeques) بالسهام . ثم جمعوا دمه في إناء مقدس وانتزعوا القلب ليتوجهوا به تقدمه للشمس ! ...

كتب سوزاندراده معظم هذه القصيدة وهويتجول في امريكا اللاتينية ، واتمها في نيويورك . وهي في حركتها اشبه بالفن القصصي منها بالشعر . انها « قصيدة - رواية » كما سماها جواكين سيرا (Serra) أحد معاصريه . ورغم موضوعها الدرامي ، وقالها الغنائي فلما ليست درامية ولاغنائية . وإذا كانت ملحمة على نحو ما ، فلأنها أناشيد تلامس التاريخ والأسطورة معا . وقد لجأ الشاعر فيها إلى تقنية خاصة هي الأسلوب البرقي المصنوع ، في عملية إخراج تركيبية بارعة . من الثذرات التاريخية ، ومن الاسطورة ، والتعليقات اللاذعة ، والأقوال المشهورة ، وأحداث العصر ، وأخبار الصحف في عهده . كل ذلك في أسلوب متقطع الجمل ، محمل أحيانا بكلمات وجمل من لغات متعددة . . .

بلغ سوزاندراده في (الغيسا) الذروة في عمله الشعري ، إنه لم يوحد فيه فحسب بين قدر الغيسا وبين قدره كشاعر ملعون ، أصيب « بداء العصر » ككل

الشعراء الآخرين في عهده ، ولكنه وحده أيضاً ما بين الغيسا ومصير امريكا اللاتينية على يد الغزاة الامريكيين . كان يجسد في مصير الغيسا ، في دمه المجموع ، وقلبه المنتزع وبقاؤه ، مصير بلاده ايضاً ، ومصير الهندي الأمريكي - اللاتيني المستغل . ويدين ألوان الجشع والقمع لدى السلطات الرأسمالية الاستعمارية ، والطبقات الحاكمة من النبلاء والكهنة . . . لكن الغيسا لا يستطيع الفرار من قدره ولو :

« اعتقد بعد أن عبر جزيرة الانتيل أنه افلت ^(١) »

« من التشيكس ، وولج بورصة نيويورك للأوراق المالية » ، (في وول ستريت)

فإن « صوت الصحراوات » ينادي « أورفيوس ودانتي واينياس
« ليهبطوا إلى الجحيم . . . وعلى الإنكا (الغيسا) أن يصعد إليها .
« أيها الداخل الى هذا المكان . اطرح عنك كل أمل » !

وتدنت الابداعية بعد ذلك في البرازيل ، شأنها في فرنسا . فرغت من المحتوى المثير . « بدأت بالدمع ، وعاشت في « استمطار اللعنات » وانتهت في (التبجح الثرثار) » . واحد أو اثنان من الشعراء وجدا في حركة تحرير العبيد هدفاً جديداً بشاعريتهما المشبوبة ، فاندفعا فيها لتظهر العقيدة الاجتماعية . أبرز الاثنين هو الشاب انطونيو دي كاسترو ألفيس (Castro Alves) (١٨٤٣ - ١٨٧١) الشاعر الذي مات مبكراً جداً ولكنه استطاع في سنيه الأربع والعشرين أن يجمع القوتين المحركتين في الشعر الجيد الرفيع : البلاغة التي ترتبط بالخيال ، والنعموة التي هي ثمرة الحساسية . وهذا ما جعله أحد الوجوه البارزة لافي الأدب البرازيلي ولكن في الأدب البرتغالي كله .

(١) هو اول مقطع من المقاطع المائة والستة والسبعين التي تكون « جحيم وول ستريت »
والجملة الاخيرة فيه هي الكلمات التي رآها دانتي مكتوبة على باب الجحيم .

وهو شاعر اليسار الكبير في البرازيل يسمونه « نجمة الشعب » ، لأنه يعيش في قلب الجماعات الشعبية وفي ضميرها الحميم . وتقرؤه - إن قرأت - فإذا في حروفه رنين أوتار مجهولة من العواطف والحنان ، وإذا في شعره عن الحب موجة من العطر المثير حتى الاغوار . كان شيطانه على حد اصطلاح ميشليه ، هباً يمشي ! وفي بعض قصائده يجتمع أحسن مالدى (هوغو) بأعمق ماقال (لامارتين) . لهذا كان أبرز ممثل للأسرة الابداعية البرازيلية ! . . . وتبتهت من حوله ، وتتساقط كورق الخريف الجفاف الأصفر اسماء كثيرة كثيرة كانت قوام هذه الأسرة !

عبر كاسترو ألفيس سماء الأدب كالشهاب المحترق الشديد اللمعان . وكانت جذوره الرومانتيكية تمتد إلى اسرته وطفولته وتربيته . فجده جوزيه انطونيو داسيلفا كاسترو كان اشبه بالشخصيات الأسطورية في منطقة باهيا ، وقد حارب على رأس إحدى الكتائب في حرب الاستقلال ، وعمه شارك في حامية مشهودة في حملات حرب التحرير الكبرى ، ومربيته الخلاسية ليوبولدينا كانت تحدّثه عن صنوف العذاب التي كان يعانيتها العبيد الزنوج . وهي التي أوحى اليه بأهم دواوينه : (العبيد) ، أما استاذة ابيليوسيزار بورغيس فقد تنبأ بموهبته، وعلمه الانكليزية والفرنسية مما اتاح له الاطلاع المباشر على الابداعيين الأوروبيين أمثال بايرون وهوغو .

وإذا كان الفيس قد تأثر بالكثيرين في شعره الغنائي فلاشك أن تأثيرهم فيه لم يبلغ ما بلغه تأثير فيكتور هوغو الذي كان (أيام عطاء الفيس ، أواخر الستينات من القرن الماضي) في أوج مجده وسمعته . لقد رأى الشاب الفيس المتطلع إلى أوروبا ، في هوغو صورته ومثاله الأعظم فترجم له بعض قصائده ، وأهداه بعض مؤلفاته . واقتبس عنه مبادئه في الفن المسرحي الرومانتيكي ، وكتب على أساسها مسرحية غونزاغا (Gonzaga) أو ثورة ميناس . وهي مسرحية نثرية استوحاها

الفيس من كفاح شعراء القرن الثامن عشر للاستقلال ، يوم لم يكن في البرازيل بعد أي تراث مسرحي ذي قيمة . وكان هوغو يومذاك هو صاحب التأثير المهيمن في أدباء البرازيل بأسلوبه الفخم ، وجرأة خياله ، واستعاراته ، وصوره الكونية ، وقد أضحى هذا التأثير تياراً أدبياً باسم الكندورية (على اسم نوع من النور الضخمة التي تسمى الكندور والتي تعيش في اعالي جبال الأند) في وقت كانت فيه البرازيل تعاني من أزمات سياسية متتالية (نضال للاستقلال ، حرب ضد الباراغواي ، كفاح من أجل المساواة وسيادة الشعب ، صراع لتحرير العبيد) . وكان هوغو في ذلك كله هو الفكر الثوري العالمي ولون الحرية والعدالة ، والمعبر للضمائر . كما كان الفيس في شبابه الأخضر يمثل بدوره تلك الثورة والأحلام الكبرى التي يحملها جيل الشباب . وقد تبلورت « كندورية » الفيس في ديوانه الشعري الضخم (العبيد) . لقد صب فيه كل نقمته على استعباد الزوج واستقبله شباب باهيا بالحماسة الشديدة يوم صدر . ومنه قصيدته (سفينة الزنوج) التي أبقاها في المدرسة الادبية (١٧ سبتمبر ١٨٦٨) والمفعمة بالخيال اللامحدود والمثالية وعظمة الصور الشعرية . وفيها يقول :

إنه حلم دانتي (الجحيم) . . . فعلى سطح السفينة ،

تحمّر الاجساد على ضوء الفوانيس

كأنما تلون الضوء بالدماء .

في حين يختلط صليل السلاسل بالأسواط

وكتل بشرية سوداء كالليل

ترقص رقصة الاموات !!

ويمسك الفم الضامر بالحلمة المنتصبه

وترضع كل أم ابنها الأسود

من دم عروقها البائسة .

وفتيات عاريات تملكهن الرعب
يجرهن حشد من الوحوش
وهن يتأوهن بؤساً وألماً دون جدوى

وفي القرن الابداعي هذا ، وعلى يد الابداعيين ، وجدت القصة في البرازيل
وتحددت ملامح وخلقاً . . . ولقد سبق خلقها غزو قوي من القصص الغربي
المرجم . كان امكان الانتاج المحلي اقل من ان يشبع رغبة الجمهور إلى هذا
اللون الأدبي . . . ثم ظهر اثنان خلقا القصة البرازيلية بعد سنة ١٨٤٠ هما
مانويل دي ماسيدو (Manued de Macedo) وجوزيه دي اليكار (Jose
de Alencar) . قبل قصتي (السميراء) و (غواراني) لم تكن ثمت اكثر من
محاولات متعثرة في القصة . وقد فهم (ماسيدو) (١٨٢٠ - ١٨٨٢) اتجاهات
الروح الشعبية وكتب ، على طريقة (برناردين دي سان بيير) ، قصة ساذجة
مبسطة ، ضحك فيها وبكى وسخر ! . أما غرامياته فلم تكن لتجاوز الأبواب
فان جاوزتها انتهت إلى الزواج ! ككل عشرة طهور يراقبها أخوات عوانس
وعمات عجائز ! لم يكن يجب الفضائح ولا الجرائم المثيرة ولكن ما لا تحجل أن
ترويه فتاة . كان « قصاص صالة الطعام » . ولقد ينقصه التلوين ولكنه
كاريكاتوري بارع ، وريشة مصورة . . .

أما الكاتب الملون فهو آلنكار (١٨٢٩ - ١٨٧٧) الذي تحفظ قصصه بعضاً
من أجل صفحات الأدب البرازيلي . انه « شاتوبريان » البرازيلي في « غواراني »
و « ايراسيا » . (كيمبريا) ولكنهم يعيشون ويحبون ويموتون كالنباتات
والحيوانات الدنيا على الأرض . هم حرائق سريعة في العشب : تشب السنة من
اللمعة واللهب ثم تمهد وتتلاشى ! كان شاعراً . قصصه قد تفقد رواءها في جو
الصالون الهاديء ، ولكنها تكتسي في ظلال الغاب ، طابعا من الخرافة ينطلق
بغثة كالفوقى البديئة . كتب : « الأرملة الصغيرة » ، « خمس دقائق » ، ولكن

مثله كمثل (والتر سكوت) و(جورج صائد) ، كان يحتاج إلى لوحات واسعة لأن ريشته كانت ريشة مزّين (Decorador) وليست بريشة مصور دقيق أو مصور شخصيات . ولهذا كانت تستهويه الأمور التاريخية والمواضيع الوحشية ، وكل ما يهرب من الحاضر والواقع . ولكنه علم الأدباء من بعده النظر إلى القصة كعمل فني وليس صفحة تسلية ! .

بجانب هذين القصاصين يأتي ثالثهما : اسكر اغنولي طاواني (Escrag - nokke Taunay) (١٨٤٣ - ١٨٩٩) الذي انعكست في قصصه العاطفة الوطنية . كان مخلصا في ذلك لأنه أعطى البرازيل دمه وقواه وفكره وجسده ! دخل الجندية وخدم على الحدود الغربية ، وحارب في الباراغواي ، وجعل من (الانسحاب عن البحيرة) فضلا خالدا في أذهان البرازيليين ،^(١) وقصيدة من أروع ما كتب في البرازيل ! كان متأثرا بالأدب الفرنسي . ومن ذا الذي في أدباء أميركا اللاتينية جميعا لم يتأثر بالأدب الفرنسي خاصة أو الاسباني أو الايطالي ؟ ولكنه بقي نامي الشعور بوطنه ، متصلا بانطباعات أرضه وحقائق حياته . فكان القصة البرازيلية التي بدأت مع (نوربرتو) محلية وصفية ، لا هم لها سوى اهواء الكاتب ، انتقلت ، مع (ماسيدو) و(آلينكار) ، ليكون لها موضوع ويكون لها أسلوب ، ثم عبرت مرحلة ثالثة ، مع (طاواني) ، في نوع من رد الفعل ضد المثالية ، ليضحي انشاء وتكوين مسارح الأحداث فيها أكثر واقعية . . . وليظهر إطار الحدث ، ووصف الطباع والجو النفسي . كان الطريق قد مهد لظهور :

(١) في حرب الاتفاق الثلاثي (البرازيل ، الارووغواي ، الأرجنتين) ضد الباراغواي (١٨٦٤ - ١٨٧٠) اضطرت عسكرية برازيلية إلى الانسحاب إلى (لاغونا) فلم تجد فيها إلا الحرائق فانسحبت إلى بلد آخر بعد سير مرمض شاق في الصحارى مع الجوع والعطش والهيضة الربوئية فآلفوها قاعا صفصفا فاضطروا إلى الانسحاب ثالثا إلى (كويابا) حيث تم استشهاد الحملة . . . وكان (طاواني) بين اعضائها وهو الذي وصف تلك الملحمة اليأس .

ماشادودي أسيس .

وقبل أن تؤذن الابداعية البرازيلية بالانحطاط وحلول ذوق أدبي جديد كانت قد أضحت ابداعيتين لا واحدة : للشمال البرازيلي منها مذهب فيه الهندي بخاصة وهو يعبر النهر على زورق من جذع شجرة ، وفيه الصحو المحرق ، والفيافي الجافة ، وغابات (جوز الهند) ومعاصر قصب السكر . . . مذهب ريفي وصفي يرضع الأدب الفرنسي . وللجنوب البرازيلي ابداعية على هواه : فيها الحياة السوداء ، والبؤس ، وجو المدينة ، والضباب المطير ، وفيها (بيرون) و (شيلي) والادب الانكليزي

وبين الابداعيتين ، بين (الإنكار) ممثل الرفية (Setaonismo) الهندية و (ماسيدو) صاحب الملح الواقعية والوصف ، كانت تتراوح القصة البرازيلية متنقلة بين الغابة والمدينة ، بين الهندي والفلاح ورجل الاحراج (Matuto) والبورجوازي والتاجر والمستخدم والبائع ، والجندي

عابر ياترى هذا الاختلاف ؟ لقد لانخشى الاتهام بالزيغ إن نحن قلنا إنه ما يزال قائما إلى اليوم . وإن الأدب البرازيلي . كان له منذ وجد واستحصد لوان وجوان اثنان ، ما للشمال وما للجنوب ! ولقد لانخشى التعصب للمذهب الجيوفيزيائي إن نحن فسرنا هذين الجوين باختلاف العوامل الجغرافية والتاريخية والعرقية في البرازيل ما بين شمال وجنوب . .



الفصل الثالث

الأدباء الكبار والمدارس الأدبية

١ - الواقعية - الطبيعية (Realismo - Naturalismo)

(١٨٦٨ - ١٨٩٣)

تقف سنة ١٨٧٠ في الطريق الفكرية للبرازيل ، وفرنسا كقطاع الطريق . . . ومن المفارقة الجارحة أن توضع الأحداث الفوابع ، والحروب حدوداً لمراحل الفن والفكر ، ولكنه الإصطلاح الذي جرى . . . ففي سنة ١٨٧٠ خرجت فرنسا من حرب السبعين ، وخرجت البرازيل من حرب الباراغواي . وانكسار الأولى فتح الباب لاستقرار الجمهورية على أنقاض التاج سنة ١٨٧٥ ، ونصر الثانية مد في عمر الملكية البرازيلية حوالي عشرين سنة حتى استطاعت العواصف الجمهورية سنة ١٨٨٩ أن ترمي بالتاج البرتغالي إلى البحر . . .

ولم تكن مصاعب الحكم هي التي وضعت (دون بيدرو) وعائلته على الباخرة العائدة إلى لشبونة ، ولكن أمريكا اللاتينية كانت كلها ، بعد مثال الولايات المتحدة المبكر خاصة ومثال فرنسا المتأخر ، قد تحررت من أرجوان البلاط والصولجان قبل أن يصل الليبراليون - الجمهوريون إلى الحكم في البرازيل . كان كل مواطن في هذه القارة الواسعة قد ارتدى فرديته في أوسع أديتها ، حتى الرقيق تحرر رغم المقاومة ، وجفت ينابيعه . وفي العالم الغربي كله كانت الفردية البورجوازية قد انتصرت في الميدان الاجتماعي ، ورأسمالية الاقتصاد الحر قد

فرضت نفسها في العلاقة الاقتصادية ، والمادية العلمية قد أضحت المعبود الجديد .
فالموضوعية ، والتجريب ، والتطور ، والقانون ، والمادة . . . من الطلاسم
والتماثل الجديدة ! . . . إنه القرن التاسع عشر في أوج عنفوانه .

ومبذول لدى مؤرخي الأدب أن يقولوا إن الحركة الواقعية أحلت الموضوعي
العلمي محل الشخصي التجريبي . الأدباء طردوا الخيال والعاطفة الشخصية
ليلحقوا بالعلم . اعتقدوا - لفترة ما - أن أي بناء فني ، ليست تسنده الوثائق قائم
على جرف هار . وسرعان ما أخذت الملاحظة الوافية على الخيال ميدانه كله ،
وحددت له الأفق والهدف . وتقدمت للتتويج (مدام بوفاري) ! في حين رجعت
إلى العتمة (آتالا) ! لأنه التطور العلمي - الاقتصادي للعالم الغربي . وإذا
أصبح الإنسان ميكانيكية كيميائية فيزيولوجية لاغير ، فأين موضع (بحيرة)
لامارتين منه ؟

هكذا ظهرت « البارناسية » وتذوق الناس طعماً جديداً من الحرف في قصائد
(لوكونت دي ليل) و(سولي برودوم) ، وظهرت الواقعية في أدب القصة مع
(زولا) و(بورجيه) كعودة إلى الطبيعة في عريها المادي الفج

وأثر كهنة البارناس الجدد - بدورهم - في أدباء البرازيل . . . كالعادة
المعهودة . وظهر على أرض الخشب الجحيري ملحق لتلك المدرسة الفرنسية
البعيدة .

أول من ضرب الوضع الابداعي بحجر كان جيل الجامعيين سنة ١٨٦٨ في
مدينتي (ريسيفه) وسان باولو . (طوبياس باريتو) في (ريسيفه) هاجم ، في
عنف الطالب ، الفلسفة الروحية والكاثوليكية ، فوفقت من ورائه ، فوراً .
مدرسة كاملة . من هذه المدرسة (سيلفيوروميرو) الذي حاول ادخال العلم في
القصيدة . . . حصان طروادة العلمي هدموا له السور كي يدخل حظيرة الفن
الغريبة . وفي سان باولو ، في السنة نفسها ، اتخذ الشاب (جوزيه بونيفاسيو)

من كرسية الجامعي منبراً للأفكار الحرة . وتجمع من حوله من أضحو فيها بعد عماد العصر كله . ألا يكفي أن منهم (روي بربوزا) ؟ ومشى التيار في الفكر والقصة والصحافة والجامعة ! . . . لم يكن له من اسم معين فسموه يومئذ بالتيار الحديث (Modernismo) . . . وبعد سنوات وسنوات طويلة دعي بالمشهد الواقعي (Realismo) و (البارناسية في الشعر) ! . . .

وبالرغم من أن الفكر كان بضاعة أرستقراطية ، والثقافة ترف القلة ، فقد عاصرت الواقعية تكوين ومولد الجمهورية البرازيلية . كان قدر التيار الواقعي أن ينزل من الشرفات الأرستقراطية إلى الواقع الأرضي الخام ، وإلى مشاغل البورجوازية الديموقراطية . أخذ البن مكان القصر في الاهتمام ، وحل المرقص العادي محل موسيقى الغرفة . وأضحى للقصيدة دورها في خدمة الإصلاح الاجتماعي ، كما أضحت العواطف الجمهورية جزءاً أساسياً من بيت الشعر . . . على أن الأفكار في الأدب ، على الأقل ، كانت أسبق من الانتاج . البارناسية وجدت في الاسم وفي الحدود من واقعية وعالمية وشكل بديعي قبل أن يوجد شعر بارناسي بسنوات . والأطار الواقعي والطبيعي رسم في المجالات قبل أن تكتب القصة القائمة على الملاحظة وعلى تصوير واقع العين واليد ، وعلى تحليل الحقيقة في عناصرها الأولى ، وقبل أن تكتب . . . القصة الطبيعية على طريقة (زولا) ! كان شعار الناس الثورة . وكثيرون قادوا هذه الثورة من كراسي التدريس ، وبالانتاج الأدبي وعلى أعمدة الصحف . أتهمك أسماؤهم ، هؤلاء « المحذونون » العتق ؟ إنها كثيرة ، قد تتعثر في أحرفها الغريبة ولكن اسما واحداً يهكم منها دون شك : (ماشادوي أسيس) (Machado de Assis) (١٨٣٩ - ١٩٠٨) ^(١) أذاكرياترى هذا الاسم ؟ إنه صاحب (كينكاس بوربا) ^(٢) وصاحب بعض القصص البرازيلي البارز . وهو مع صاحبه (لويس

(١) نشرت وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق من ترجمة المحرم الدكتور سامي الدروبي

غيمارايش (Luiz Guimaraes) طليعة الشعراء العظام التابعين : (تيوفيلو دياس) (Teofilo Dias) و (رايوندو كوريا) (Raimundo Correia) و (أولافويلاك) (Olavo Bilac) و (ألبرتو دي أوليفيرا) (Alberto de Oliveira) و طلائع القصصيين الأوائل : (آلويزيو آزيفيدو) (Aluizio Azevedo) و (جوليوريبيرو) (Julio Ribeiro) و (راوول بومبيا) (Raul Pompeia) .

ولقد لاتستطيع أن تلم الجميع في سبط . بعد الآن ليس من مذهب شامل يطوي جنون الأدب . وهؤلاء على طبيعتهم يتدرجون لوناً بعد لون ، من الابداعية الباهتة ، إلى الطبيعية - البارناسية الصارمة ، إلى طلائع الرمزية ، والمذاهب الروحية والتحليلية . . . ولكل مذاقه ومكانه وألوانه . في الشعر ، إن شئت للشعر ، فاقراً (رايوندو كوريا) . فثمت الغرق في المشاكل الوجدانية العميقة ، وثمرت الوصف الذي لا يضاهي للتراب البرازيلي الصميم . تلك المشاعر التي تقبع في الضباب الإنساني ، بين النور والظل ، ونصف الظل من الجوانح ، الغضب والصدقة والكراهة والرعب والغيرة والنفاق . المشاعر البشرية التي تملأ أعماقنا نباتاً عاطفياً معتقاً ، كما تملأ الغابة الوحشية وجه البرازيل ، كلها درسها وحللها بهدوء عالم نفسي صبور نافذ . بكى ذلك الكائن الداخلي فينا . وقف على الطرف الآخر من صديقه (بيلاك) ، في تشاؤم واحساس مأسوي بأن كل شيء باطل . . . تماما كبعض صبيغ القدرية عندنا نحن ! وفي الوقت نفسه ماكان ثمت أفدر من (كوريا) على لممة الأفق البرازيلي ، ضمن الحروف . إنه للمصور الصناع ، وانك في شطحة من شطحات الوهم قد تستطيع أن ترى في قوافيه انطباعية (مونية) و (رنوار) .

وفي الشعر أيضا ، إن شئت الشعر ، فاقراً أمير شعراء البرازيل (أولافويلاك) (١٨٦٥ - ١٩١٨) . « عن طريق قلبه تتحدث كل قلوب

شعبنا « كذلك يقولون عنه . ولكنه لا يغني القلق والشك كصاحبه . إن وجه العالم عنده سلسلة من الصور المتبدلة . وهو إنما ينظر ، دون أي مرارة أو فرح ، إلى ما فيها من « جمال » سكوني !

إن الفنان فيه يعيشي الفيلسوف ! والنظرة الريبة للأشياء والخطوط لديه تعطي قلقه طعماً عقلياً بهيجاً . ما أهمته أبدا خلفيات الأشياء (إلا في المرحلة الأخيرة من فنه يوم ظهرت في شعره نظرة إنسانية أشمل) . طلسم « اليد التي تهب السم والبلسم »^(١) لم يغره ، ولا الكائن الإنساني الجريح . وقد وهب قافيته للحب ولكن أي حب ؟

إنه الحب البرازيلي ، الحب الاستوائي الحار . وهو يفتح كأثر الأمازون القلقة ، في كل حروف بيبلاك . أقرأت (القبلية الخالدة) ؟ إنها ككل حروفه تحمل في تيارها العنيف كل شيء . سر اغرائه هو تلك « الجنسية » الشاملة التي تختلط فيها كل أصوات الكون وتوتر وتهتز . لقد يكون فيه شيء من بودلير ، ولكن فيه أيضاً شيئاً من طلاوة عصر النهضة الإيطالية ، وبعض ألوان (هيرديا) !!

إن (صياد الزمرد)^(٢) ، بالرغم من ثقافته وتربيته الأوروبية ، قد استطاع أن يعكر وجدان البرازيل في قوافيه . نظرتة الابيقورية للحياة كانت تتفق مع هذا البحران الشتيت من الاتجاهات والميول التي تعيشها الشعوب الحديثة التكوين كالبرازيل . القيم التجريدية الممردة ، القلق الكوني العنيف ، والعقل في استشرافه البعيد ، لايهمها أنها تفضل عليها ظواهر الأشياء والشكل الرائع وبهرج الألوان !

(١) بيت شعر لببلاك

(٢) اسم احدى قصائده الرائعة التي نشرت سنة ١٩٠٤ CaGador de Esmeraldas

وفي الشعر أيضا وأيضا ، إن شئت الشعر ، وفي القصة أقرأ القلم البرازيلي
الاول ماشادو دي أسيس .

٢ - ماشادو دو أسيس

(١٨٣٩ - ١٩٠٨)

إذا وصلنا ماشادو دو أسيس وصلنا رأس الكلاسيكيين الخالدين في أدب
البرازيل .

وكما يرتبط اسم « غوته » في أذهاننا بالقمم التي تسنمها الأدب الألماني على
جبل الأولب ، وكما يثير في خاطرنا اسم « شكسبير » روائع الأدب الإنكليزي ،
يرتبط الأدب البرازيلي ، في تاريخ انبثاقه وقوته ، باسم دي أسيس

ولا يضير هذه المقارنة أن يكون الأدب البرازيلي ، كما يعتقد بعضهم ، طفلاً
يحبو ، أو أنه ولد يتيماً فاكتسى برداء أول كريم وهبه الرداء .

فالأدب البرازيلي أدب يتمتع بطموح الفتوة وسعة الأفق . وبحيوية ندر أن
نجدها في أدب آخر . ولا يتنقص من قدره أنه لم ينعم بامبراطورية أرضية تمهد له
سبل الانتشار .

فلقد كان لتفاعل الغاب البرازيلي ، وامواج الاطلسي ، وهي مافتت منذ ما
يقرب من خمسة قرون تتسرب من مسام قشرته الساحلية بطمي مدنية العالم
القديم ، أن خلقت فكراً وأدباً برازيلياً ، وشعراً من الشعر كثيراً مثيراً .

وليس يضعف من شأن هذا الأدب أننا نجهله ، ولا يستقيم لنا عذر إن ظللنا
على هذا الجهل . فآداب الأمم متقاربة في منابعها وآفاقها . كلها ينبع من ثقافة
العقل والقلب ، وإن كان يؤثر فيها الفن الوجداني السابق ، والتراث القديم في
الأسرة البشرية التي ينتمي إليها الأديب .

ولم تكن بالهينة السيرة مهمة هذا الأديب ليقف في حفلة تدشين الاكاديمية البرازيلية للأدب (سنة ١٨٩٧) فيلقي خطاب التأسيس ، وأن يتبوأ في هذه الاكاديمية كرسي الرئاسة في ذلك العصر الارستقراطي المشحون بعقد العنصرية ، وقصص معركة الحرية بين أبيض وأسود ، وهو الخلاسي الذي تجري فيه بعض الدماء الافريقية السوداء ، وقد نشأ يتيماً فقيراً ، واليتم والفقر في عهده منقصة ومذلة .

وحياة مشادودي اسيس هي قصة صعود دائب في سلم المراتب . سجل فصولها بجهد ومواهب الفذة في سهولة ويسر ، وكأنه يقوم برياضة بدنية في الهواء الطلق . إلا أنها ، ككل حياة ، لم تخل في الصميم من مأس تتقطع فيها الأنفاس والآمال ، وتمتليء بالدمع الحار ! .

ولد مشادودي اسيس في الريودي جانيرو ، المدينة الساحرة . ولكنه ولد لأسرة عامل متواضع ، يكسب رزقه كرسام للبيوت . وتعمل زوجته في خدمة بعض الأسر الغنية . . . ولهذا لم يعرف من حياة الكاريوكا الرخية إلا الجانب الأسود ، وإلا شقاء الطبقات المسحوقة الضائعة تحت الأرجل .

وماتت أمه وهو طفل فتزوج والده . وكانت « الخالة » امرأة صالحة شملت الصغير برعاية الأم . ثم توفي عنه الوالد ، فراحت الخالة الطبية تعمل طباحة في بعض المدارس الداخلية لتيسر له فرصة التزود بقسط آخر من المعرفة .

وتلقى مشادو ماتييس من دراسة ثانوية عن راهب كان يعاونه أحياناً في تأدية مراسيم الصلاة ، ثم عمل في فرن صاحبه فرنسية ، ولأزم أحد عماله حتى تعلم عليه الفرنسية وأجادها .

وأخذ يتردد على بعض المكتبات والندوات الثقافية فيقرأ كل ما تقع عليه يده من كتب الأدب . وقد نظم شعراً جيداً نشر أوائله وهو في الخامسة عشرة من عمره .

ويستهل حياته العملية كعامل مطبعة في الجريدة الرسمية ، ومصلح « بروفات » في مكتبة خاصة ، ثم محرراً في جريدة مرموقة ، وأضحى وهو في الحادية والعشرين ، مندوباً في مجلس الشيوخ . فاذا بلغ الخامسة والعشرين تسنم أعلى مراتب الصحافة حتى قال فيه الأديب جوزي ينكار : « مشادودي اسيس أكبر ناقد صحفي في البرازيل » .

ويصدر في هذه الفترة أول دواوينه الشعرية ، وفيه صفحات من أجمل ما عرفه الشعر البرازيلي . وتنتشر له ما بين سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٦٧ عدة مسرحيات وروايات بعضها مترجم عن الفرنسية . ومنها : ملاك نصف الليل ، حلاق اشبيلية ، وعمال البحر لفيكتور هيغو .

ولم يكن مردود الصحافة والأدب قد بدل من وضعه المالي كثيراً ، حتى دشّن عهد الكفاية والرخاء في وظيفة حكومية : بوصفه معاون مدير للجريدة الرسمية . ثم تقلب في وظائف هامة انتهت به سنة ١٩٠٢ الى أعلى مراتب الدولة ، مديراً عاماً للمحاسبة في وزارة المواصلات . إنه منصب يتناقض تماماً مع موهبته الادبية ، ولكنه يضمن المورد الحسن والحياة الطيبة .

وظفر مشادو سنة ١٨٦٩ بامراته الفاضلة « كارولين » التي تضحي خلال ٣٥ سنة نجمه الهادي الأمين ، فهي التي تأخذه بيده . إلى أرقى بيئات المجتمع - بيتها هي - وقد عارضت أسرتها ورضيت به زوجاً ، وكانت له الرفيقة العاملة ، يمل عليها ما يؤلف في فترة ضعف فيها نظره ، والزوجة الساهرة الحنون يوم استفحل فيه داء الصرع ، وقد ظهر في فترة غير معينة من حياته .

ويسير نجمه الأدبي صعوداً ، بموازاة هذا الظفر ، حتى يظهر في رسم على غلاف إحدى المجلات الكبرى ، مع الأديب جوزي ينكار . بوصفهما ألغ كوكبين في الأدب البرازيلي ، فلما قضى صاحبه ، تسلم الزعامة ، لا ينزعه

فيها منازع ..

وقد صدرت سنة ١٨٧٠ أولى مجموعاته القصصية ، وتلتها بعد سنة رواية « البعث » ، ثم « قصص نصف الليل » ، « واليد والقفاز » وديوانه الشعري : « الأمريكيات » .

ويبلغ مشادوقمة مجده الأدبي في « براس كوبا » سنة ١٨٨١ وتتلوها فترة انتاج أخرى تصل ذروتها في « دون كزمورو » سنة ١٩٠١ .

وقضت كارولين سنة ١٩٠٤ فخلفته وحيداً ، إذ لم يرزق ولداً . وما كتبه بعدها لا يعدو المباخر تقديساً لذكرها . وثمت اشعار ومجموعة أخرى من القصص .

وقد زاره ، وهو على فراش الموت ، وحوله رهط من أصدقائه ، فتى مجهول ، هو أحد متعبدية الكثر ، فلثم يده في خشوع ، وانحدرت من مآقيه دمعة ، وهو يكب على صدره مقبلاً ، وكأنه يبث الراحل العظيم اعتراف الأجيال الآتية بفضلته .

وتوفي مشادودي أسيس في فجر التاسع والعشرين من ايلول عام ١٩٠٨ وخرج نعشه من بناية الاكاديمية .

أما الصورة النفسية لزعيم الأدب البرازيلي ، وآداب اللغة البرتغالية اطلاقاً ، فتبدو على شيء من التعقيد والغموض ، يناقضها ما اتسمت به مؤلفاته من وضاعة وبهاء . وقد كانت ولم تزال موضع اختلاف النقاد والدارسين .

صحيح أنه وعى الفكر الغربي كله حتى كاد يكون من أولئك الإنسانيين الموسوعيين الذين عرفهم القرن الثامن عشر الفرنسي . وكان في الشعر عملاقاً ، وفي النثر عملاقاً ولأريب ، واستطاع ان يسمو بعقده وأمراضه إلى مراتب الابداع

العالمي . . . ولكنه سعى طيلة حياته إلى أن يتناسى ما يذكره بهذه العقد . لقد أهمل « الحالة » الوفية ، فاتهم بالأنانية ونكران الجميل . وظل بعيداً عن الحركات التحررية في عصره ، ومنها قضية تحرير العبيد فاتهم ! . . . واصيب مثل دو يستوفسكي ، بالصرع ، فزاده ذلك نفرة من الناس ، وقد صادفه مرة طبيب من معارفه ، في ساحة عامة ، وهويعاني الصرع ، فنقله إلى عيادته . فلما استعاد وعيه ثار على الطبيب المحسن ، ولم يوجه إليه التحية بعدها ! . . . ولكنها هنات مشادو الإنسان .

وحسب الانسانية منه أنه زاد من تراثها وأغنى من إرثها . ومؤلفات مشادو دي أسيس سلبية من ناحية الشعور القومي والمذهب الفلسفي . وليس في كل ماكتب وصف للطبيعة ، فلا شجرة أو ظل شجرة ، ولاجزيرة أو خليج من هذه الخلجان الصغيرة الفاتنة التي تنثرها يد الخالق هنا وهناك في جوانب الريو .

إن كل ما أوتيته من جفاء داخلي عجيب (قد يفسره مرضه « الاهي ») ينصب على بيئته ومجتمعه ، مجتمع الريو المرفقة على التخصيص .

وقد كان الإنسان المطلق الدائم ، موضع دراسته وتحليله ، فلأول مرة في الأدب البرازيلي يترك الوصف مكانه للتحليل النفسي ، وتترك الطبيعة مكانها للإنسان .

كان سيد الأسلوب فشعره ورواياته شكل وصقل وموسيقى رفيعة وغنى قافية وألوان وصور . ولعل هذا هو الذي أبعدته عن « المحدثين » كما باعدت أعماقه السيكلوجية بينه وبين الابداعيين . فلاهو من هؤلاء ولا من أولئك . . . إنه حتى في الزمن متأخر عن ابداعيين سنة ١٨٣٠ وسابق لطبيعي ١٨٧٠ ، وحتى في التملذة لا يدين لأحد ، ولم يتبعه من بعده أحد .

في الشعر ، كان شاعر « أفكار » . فالصور الواقعية الواضحة في القصيدة عنده دورها أن تثير غليان الجباه . وكان ابن الموسيقى الشعرية ولهذا تجاوز حدود التقاليد والاوزان والقوافي . فله « تكنيكة » الخاص الذي غير القصيدة البرتغالية من بعده ، وكان للشعر مطلق كلمة الشعر . فله يدين الأدب البرازيلي بحس « المأساة اليومية » . وفي الرواية ، وحده عرف كيف يجمع في الرواية ما في قافيته من السوداوية اللجوج الى السخر الناعم الواخز . إن ملامح كثيرة تقربه في هذا المدى من شترن ، وسويفت ، وأناتول فرانس ، والجاحظ .

ما من أحد مثله أشاع في الأدب البرازيلي « عذاب الضحك » ، لاضحك الجسد المستثار والتسلية ولكن ضحك العقاب وسخر القدر والشك .

أيعود ذلك الى شيء من الريبة الميتافيزيكية ؟ إنها « لذة الالهة » هذه الريبة . وماشادو الذي أغرته هذه اللذة الحرام ، لم يقف من مأساة الوجود موقف الألم المنسحق ، والروح المهزومة كما فعل خط شوبنهاور - كافكا ، ولانوقف الرفض والتمرد على محور نيتشه - كامو ، ولكنه شاء أن يقف ، في لامبالاة شيطانية ، وسط الأحداث ، وأن يتقبل على السواء جميع الحالات . كان يجد نوعاً من البطولة الصميمة في هذا الموقف . كان يسره أن يعمل المبضع الحديد البارد ، في العواطف والنفوس ، ليكتب دون تدخل منه أو انفعال نفسي ، الرواية السيكلوجية . ومشاعره المدنية المهذبة كانت تضيف الهدوء الكيس الناعم حتى على أعنى الاهواء .

ولقد تشع في قصصه مشاعر من الاهتمام بالجمال ، وبالشقاء الأرضي ، ولكن العنصر الإنساني فيها لا يخضع لقدر مقدور ، ولالقانون ، أي قانون ! إنه يتأمل فقط نفسه ، من خلال الآخرين ، ويصحح ، بالدعة والابتسامة ، الصورة التي تضعها الحياة أمام عينيه !

(ماشادو) ، من هذه الزاوية ، متهم أنه « غير برازيلي » ، إنه « أوروبي »
الفكر مستعار الاهتمام لم يتحسس في الصميم ، في عظامه ، روح البرازيل ،
ولكن التيارات القادمة مما وراء البحر ! لاحرقة الاستوائي الزنجي فيه ولا رعب
الفيافي ، ولا مهالك الغابة الأمازونية ، ولادجنة الامشاج البشرية التي تكون
البرازيل .

ويتهمون ماشادو ، أكثر من هذا ، أنه لم يع التطور الذي كان يأخذ البرازيل
بأركانها الأربعة ، في العقود الأخيرة من القرن الماضي . كان يعكس ريودي
جانيرو فقط . فالبرازيل قلما تتراءى حروفه . وما يترأى فيها فهو بلاد متأخرة ،
ماتزال ملأى بالمفاوز وملاح العهد الاستعماري ، والثقافة المقصورة على كتب
جامعة « كيمبرا » ، والمجتمع الملكي والعواطف الكلاسيكية التي تلهب
ولكن . . . وراء الأبواب والشرفات .

على أن كل ما يحمل على ماشادو بقي عند قاعدة تمثاله الضخم ، في أدب
البرازيل ، وبقي ماشادو في سدته ، ولقد نسأل عن مكان بعض القصص المترجمة
من أدب (ماشادو) إنما قد لا تكون شيئا مذكوراً . وقد لا تعبر عنه إلا كما تعبر
زهرة مقطوفة عن ربيع كامل . ولكن أيستطيع أحد أن يقدم شيئا من أدب
البرازيل دون أن يقدم أولا ألفباءة ، أن يقدم ولو بضعة أسطر من ماشادو دي
أسيس ؟

٣ - إقليدس داكونيا والآخرين

على أن (ماشادو) لا يقف وحده في عصره . لقد توج العصر لكن لم يكن
العصر كله . من حوله تقف جمهرة تلتها جمهرة . هناك أولا (إقليدس داكونيا)
(Euclides da Cunha) (١٨٦٦ - ١٩٠٩) الذي يعتبرونه أول كاتب
برازيلي أصيل . هو (باوليستا) من سان باولو ذلك البلد العالمي الخليط ، ولكنه
مندمج بجو بلاده وتربتها ، يتطلع إليها بعيني دهشة وحب ورغبة في التحليل

والاصلاح . ولهذا كثرت المزارع والاحراج وظلال القحط و (الفيافي)^(١) على قلمه . وكثر الحديث عن القضايا الانسانية في بلده . . . على ضوء الفلسفة الغربية والعلم الرياضي المادي من باكلي وتين وماركس . أكان من رواد الأدب الملتزم يوم لم يكن ثمت التزام ؟ وكان (الفن للفن) هو شعار المعبد والعباد ؟ إنه لم يكن أكثر من كاتب في خدمة البرازيل والأدب القومي البرازيلي . شغل داكونيا خاصة بقضية السرتون ، تلك الأرضين شبه القاحلة التي تتشقق من الجفاف في الشمال الشرقي ، كتابه (Os Sertaos) ملحمة تحكي الصراع بتلك الأرض التي تلتقي فيها القسوة الوحشية ، بالجوع المعذب ، وبالحر ، كما يمتزج السواد الزنجي بحمرة الهندي النحاسية ، وأطياف الملامح البيضاء ، وتختلط طقوس السحر الزنجي ، بخرافات الهندي وبرداء المسيحية الشفاف الذي لا يكاد يغطي شيئا

يوم طبع الكتاب سنة ١٩٠١ كان له ضجيج الضخم الذي أدخله بسرعة بين الكتب الكلاسيكية الكبرى في الأدب ، وبين الكتب السابقة في العلوم الاجتماعية البرازيلية . براعة داكونيا الفنية إنما كانت في تمكنه من تحريك هذه الأخطاط الجغرافية العرقية الاجتماعية لتحكي مآساتها - الملحمة من خلال متمرد اسمه انطونيو كونسلييرو (A. Gonselheiro) وهو نموذج لرجل السرتون الذي يحمل لدى البرازيليين اسما خاصا : الـ (Jagungo) . وهو يختلف عن الغاووشو - البطل الآخر ساكن أقصى الجنوب البرازيلي الرعوي بأنه - كما يقول داكونيا « أكثر عنادا وتمردا وخطرا ، وأشد قوة وصلابة . . . »^(٢) .

(١) (الفيافي Os Sertaos) - اسم كتاب له . ويطلق على البراري الواسعة الجافة في الشمال الشرقي من البرازيل وتنتصف بالجفاف والنبات الشوكي والقحط والفقر القاتل .
(٢) قامت ثورة شبيهة بثورة كونسلييرو الدينية في الجنوب لدى الغاووشو ما بين سنتي ١٩١٤ - ١٩١٨ وعرفت باسم ثورة الرافضين (Contestados) ولكن في منطقة من الغابات والمياه والحياة الرخية . وأسست مدينة مقدسة خاصة بانصارها الذين كانوا يؤمنون أنهم فيها يعيشون في الجنة .

والكتاب يحكي قصة من التاريخ عاشها داكونيا نفسه . إنه ولد في سان باولو سنة ١٨٧٠ وليس في السرتون . وكان مهندسا وليس مؤرخا ، وقد عمل في الصحافة ، ولم يرد ان يكون أديبا . وكان تقدمي الفكر ، حر الرأي ، يكره التعصب والقتال ، ولكنه وجد نفسه في الشمال سنة ١٨٩٦ مشاركا في اخاد ثورة لا يعلم عنها إلا القليل . وهناك ، في السرتون فوجيء بالواقع الذي هزه هزاً . عرف عالما أدهشه بقدر ما فتنه وسحره . عرف المدينة المقدسة (كانودوس) ، ونبيها المزعوم (انطونيو كونسلييرو) ، والشعب البسيط الذي ينتظر نهاية العالم ! وشيئا فشيئا تكون الكتاب حالا على حال في جاذبية من الحكاية هي مزيج من قطع الطريق ، والتعصب الديني ، وتصوير الأرض والناس . . . وأنطونيو فيسنته منديس ماسييل (وهذا هو الاسم الكامل للبطل المتمرد) كان الناس يختصرون اسمه إلى عيسى (المسيح) الطيب المستشار (Bon Jesus Conselheiro) . في هذه الحكاية يكشف داكونيا الأركان الطبوغرافية المترامية للبلاد ، واللوحات الجيولوجية المتراكمة للمجتمع السرتوني الذي تكون من حياة العواصف والجفاف ، وكون المكانة المتنوعة للناس فيه ، لكن داكونيا مزج كل ذلك بشطحات من الخيال الخصب حول العقاب والخطيئة ونهاية العالم ليصنع من ذلك جو الكتاب التراجيدي العجيب ، وليضيفه كله على الحرب التي عرفت بحرب (Las Caatingas) . » .

الزعماء الدينيون في مثل هذه الأرض السرتونية ينبتون كالأزهار البرية العصية . وليس من الصعب عليهم ادعاء النبوة في جماهير فقيرة حتى الاملاق ، معظمها حديث التحرر من العبودية ، أو من الهنود البسطاء وجمهرتهم أمية ، وقطيعهم يتعلق بالغيبات تعلق الغريق بقطعة الخشب . وقد أنبثق كونسلييرو في هذه الأرض على مهل . كان في ماضيه الكثير من اللطخ السوداء . مشاجرات مع الجيران . زوجة قلقة يغتصبها رجل شرطة . دم بعض أقاربه على يديه .

واحتمال أن يكون قتل أمه بدل الزوجة الخائنة . وقد ظل ١٣ سنة يؤسس مدينته الأولى الصغيرة قرب الساحل في باهيا تحت حماية الزعيم السياسي المحلي . ولكن الجمهورية أعلنت في البرازيل سنة ١٨٨٩ ، وفقد رجال السلطة في المنطقة سلطاتهم ، وأعدم الواقعون تحت حمايتهم فتحرك كونسيليرو مرغما إلى الداخل . وهناك عند ملتقى عدد من الطرق أقام مدينته المقدسة كانودوس . التي دخلها بصورة « القديسين » النساك : وجه عابس ، ولحية طويلة شعشاء ، وعيون زائغة ، وشعريته على المنكين ، وعباءة من القطن الخشن ، وعكاز . هي من لوازم الشغل . . . ويحف به الناس كأنه بعض مبعوثي الرسل ! . . .

وكان كونسيليرو يثير هوس أصحابه بما امتلأ به رأسه من قصص المسيحية المختلطة بالمعتقدات الافريقية ، والأساطير الهندية ، وبما يطلقه من عبارات هاذية إنجيلية تارة ، وأسطورية تارة أخرى عن يوم الدين ، وعن القطعان التي يقودها الراعي الواحد ، وعن القديس سيلاستيان الذي يخرج بجيشه من البحر بينما تصدع لظهوره الأمم في اللحظة التي « يضع فيها ذلك المبعوث السماوي سيفه فوق صخرة قائلا : وداعا أيها العالم » .

وقد اجتمع لكونسيليرو قطيعه من البشر في كانودوس ، ولكن من قطاع الطرق والبغايا ، والمجرمين ، واللصوص ، والمغامرين ، وبعض التعساء . واستطاعت هذه القرية المقامة على أساس المساواة أن تزدهر مع ذلك بمرور التجار فيها ، وكثرة الزراعة حولها ، ومباركة رجال الكنيسة الذين كثرت عليهم حفلات العمد ، والزواج ، والأعياد الدينية . وتجراً كونسيليرو على تحدي الجمهورية العلمانية الجديدة بسبب تبنيه لقضية حاميه السابق (وهو ملكي) . فكان يصف الجمهورية بأنها امتداد للشيطان . ويدعو الناس للتوبة ، واتباعه لانشاء مجد الله على الأرض ، وأمر رجاله الجاغونزو بمهاجمة القرى المجاورة .

واضطربت الحكومة الجمهورية ، وكانت لم تتوغل بعد ، لهذه الثورة . كانت

تظنها مؤامرة ملكية . والملكيون كثيرون جدا في باهيا . فأرسلت ضدها حملة عسكرية ثم أخرى ثم ثالثة . . . وكلها فشلت وقتل فيها القواد العسكريون القادمون من الجنوب . كانوا أعجز من أن يتأقلموا مع أرض السرتون وأجوائه ، في حين كان أهل البلاد فيها كالسمك في الماء ، ويبتكرون دون انقطاع طرائق جديدة في حرب العصابات .

وأخيرا في سنة ١٨٩٦ قررت السلطات توجيه ضربة حاسمة للمدينة « المقدسة » وأرسلت عليها جيشا يقوم بالضربة في اطار ما سمي يومها بتهديئة سرتون كانودوس . معركة كاتينغاس (Caatingas) التي وقعت كانت نهاية سنة كاملة من المقاومة العنيدة (اكتوبر ١٨٩٦ - اكتوبر ١٨٩٧) وحين قتل كونسلييرو (٢٢ سبتمبر) استمرت مقاومة رجاله المحاصرين المهزومين ، بالرصاص والديناميت ، عشرة ايام أخرى ، ، وحين استسلموا كانوا ثلاثمائة بين مقاتل وعجوز وامرأة وطفل . وكان بعضهم قد ألقى نفسه مع أولاده ، ليلاً ، في النيران التي كانت تلتهم البلدة وتحيلها جحيماً ، في حين استمر في القتال ثلاثة رجال فقط ومراهق ، مدة أربعة ايام أخرى ! . وعثر على جثة كونسلييرو أخيرا متعفنة ، ملفوفة في قماش قذر ، تحت طبقة من الطين ! وقد صوروه وقطعوا رأسه ليقنع الناس أن الثائر الرهيب قتل حقاً وصدقا ! . . . سجل داكونيا هذه الهزة الاجتماعية بكل تفاصيلها ، وأساطيرها الشعبية . ، وتقاليدها وبطولاتها . كما سجل بالتفصيل هذ النهاية المأسوية التي لم تكن تقل دموية عن النهاية التي ختمت بها ثورة الزنوج المسلمين في باهيا سنة ١٨٣٥ . الجموع القاتلة كانت تلتهب بالهوس الديني الذي أثاره كونسلييرو في هؤلاء « اللصوص والمجرمين وقطاع الطرق » وتنصهر خلقاً آخر . كانوا يدعونه باسم خيسوس (عيسى = يسوع) الطيب ، و« أنطونيو الورع » و« المعزّي الطيب » ! . . .

وكانت المعركة بالنسبة اليهم حرب نهاية العالم ، وإن كانت في النتيجة

نهايتهم . وقد روى داكونيا القصة كلها في جو من الدهشة الحميمة ، وفي لغة عارية رائعة ، واسلوب مباشر مربع نقل الحكاية كلها من قصة تاريخية عادية إلى نموذج أدبي كلاسيكي ، بما أدخله فيها من الحكايات الشعبية والأساطير والصور جعل المهندس أو الصحفي فيه ينتقل عن جدارة إلى كتاب الطبقة الأولى .

مع داكونيا ، في الجوال أدبي لأواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن، كان يقف أيضا وعلى المستوى نفسه ، كتاب آخرون منهم : -

(اليزيو آزيفيدو) (Aluizio Azevedo) الذي قد يكون ، رغم نشأته الابداعية ، أول من أدخل التيار الطبيعي إلى البرازيل بقصته « الخلاسي » (O Mulato) . لقد كان مصورا لا أبرع ولا أدق ، ومصورا انطباعيا أيضا . قد يصور بصعوبة ولكنه يصور بمهارة وخصب . عنده تجد مناظر الطريق والدكاكين ورجال الأعمال ، والباعة المتجولين ، وتلك الاوساط المهملة التي تختلط فيها الدماء اختلاط العادات . وعنده تجد مختلف أنواع الحديث وألوان الواقع الذي عاشه الناس بكل دفئه وقسوته . كان يمر بسطوح النفس الإنسانية بينما كان ما ماشادو يغوص أعماقها .

وهناك ثانيا (جوان جوليو ريبيرو) (Julio Ribeiro J.) رئيس النزعة الطبيعية بين معاصريه في نهاية عهد الملكية وبداية الجمهورية . وبالرغم من أن إنتاجه كان أقل مما ينتظر من مثل ثقافته الواسعة ولمعة ذكائه ، إلا أنه أعطى في روايته (لحم) مفهوما « ديونيسيا » للحياة ، ودعوة لاهتبال اللحظة العابرة . ومع انه اصطنع لذلك أبطالاً قسا ، وعواطف مبالغاً فيها حتى الفضيحة ، ولغة فجأة عاصفة إلا إن في كتابه - على قول الكاتب كارفاليو - « قصيدة غريزية وعطرا غائبا نافذا مثيرا وحشيا » .

رهنك أيضا (راوول بومبيا) (Raul Pompeia) القلق ، الذي لا يرضيه شيء ، والذي كان أكثر أصحابه شاعرية وأشدهم دهشة أمام الحياة .

وهناك أيضا وأيضاً مجموعة واسعة من المؤرخين والنقاد مثل (سيلفيوروميرو)
(Silvio Romero) (١٨٥١ - ١٩١٤) وصاحبه (جوزيه فيريسيمو)
(Jose Vcristimo) (١٨٥٧ - ١٩١٦) ، اللذين أرحا الأدب البرازيلي ،
وبعض المؤلفين المسرحيين الضعاف .

٤ - العهد الرمزي (١٨٩٣ - ١٩٢٢)

يستمر ذلك كله الزمن الكافي لظهور ردة الفعل الرمزية في فرنسا ، ولوصول هذه
الردة إلى البرازيل . كانت السنوات الأخيرة من القرن الماضي ثورة في الفكر
الغربي . هجم الفكر الاشتراكي إلى الساحات العامة ، واتخذت القوميات
زيتها ، وظهرت الفلسفات الروحية الحديثة (برغسون ، كروتشه ، هوسرل ،
هارتمان) ، وعاد الاعتبار للمثالية والميتافيزيك والأخلاق ، وكشف عن عالم
اللاشعور ، وتراجع العالم عن المادية وتآليه الموضوعية . . . وثلث كل أوروبا في
باريس . فهي قائدة الأوركسترا العالمية ، في كل أمر ، وفي كل محلة . يمكن أن
تتمرد البرازيل ؟

وتفرنس الناس لاسيما في (ريودي جانيرو) و (سان باولو) . الفكر
الأدب ، التربية ، طرق العيش ، والملبس ، والأناقة ، والتسلية ، وتنظيم
المدن ، المعمار ، كل ذلك إنما يصدر عن باريس حتى « المونوكل » و « العصا »
والشارب الصغير وهمسة الحب .

مهد لهذا التقليد المطلق ، تلك الريبة التي حطم بها جيل أواخر القرن الماضي
كل مبادئ وأفكار الجيل الواقعي الماضي . كان إعلان الجمهورية البرازيلية سنة
١٨٨٩ ، ثم دستورها سنة ١٨٩١ إيذانا بوصول ذلك الجيل الواقعي إلى غاياته
كلها . من هنا تدفقت موجات القلق والنقد وعدم الرضى . لا الملكيون
المفجوعون بالراضين ، ولا الجمهوريون بالموحدي الرأي ، ولا العسكريون عرفوا

ما يقدمون للغد ، ولا سياسيو الساحة العامة . ولم تزحف الأفكار الفوضوية وحدها ، بل زحفت أيضا المذاهب الروحانية بمعابدها ومجالاتها ، وزحفت الكنيسة الكاثوليكية إلى المعركة ، كما زحفت مراكب الهجرة بالأعداد الضخمة من أوروبا ومن شواطئ البحر المتوسط وبينما كان « التفرنس » يطرد الثقافة البرتغالية الأفريقية لتخليص البلاد من « العامية » و« التأخر » . كانت القومية الفرنسية نفسها ، قومية (موراس) و (بارس) ، تعمل بالعكس على تأكيد الشعور القومي البرازيلي . موكب كامل من الكتاب والشعراء والسياسيين والجامعيين والصحافيين والعلماء كان في الحركة القومية . . . كلهم دعوا لثقافة برازيلية . ودعوا لدرس الواقع البرازيلي . ودعوا لبرزلة البرازيل . تكاثرت المهاجرين من كل فج لم يمنعهم من الحديث عن « الروح الشعبية » ، كما أن النماذج الإقليمية التي اكتشفوها من البايانو إلى الغاوشو إلى الكايبيرا لم تزد على أن تفتح الأعين على الواقع الإنساني البرازيلي المميز

في مطالع هذا الجو القلق المتطلع وصلت من فرنسا أنباء « الرمزية » . مالايمه ، فرلين ، رامبو ، وذلك الجمهور اللعين ، الذين حاولوا في الشعر والأدب ما حاوله غيرهم في مجالات الفكر الأخرى ، حاولوا فهمها جديدا للواقع الشعري . ذهبوا إلى « الأنا » العميق الخلفي المعقد يحفرون وينبشون . تحدثوا عن « الحالات الشعرية » وعن اللفظة « الموحية » وعن « الموسيقى » ، وأعطوا معاني ومقاييس جديدة للعالم وللجمال ، وراء الواقع الملموس . وبهت الجو البارناسي - الواقعي وانكشفت برودته الفظة . كان قد انتهت مهمته .

وكما ظهرت الرمزية الفرنسية بعد سنة ١٨٨٠ لترمي بالرفض الإنساني في وجه الواقع المادي ، ظهرت منذ سنة ١٨٨٧ الحركة التوأم (أو التابعة) لها في البرازيل . « أزهار الشر » نبتت في كل مكان . وبودلير بصرخته الإنسانية أمام القدر فجر الأصداء حتى في الأودية البعيدة الهاربة على ضفاف الأمازون وسان

فرنسيسكو والبارانا .

وخرج (مديروس ألبوكيركي) (Medeiros Albuquerque) يتحدث عن مالمارمه وتجديده الشعري سنة ١٨٨٧ . وصدرت البيانات الأدبية في الصحف تدعو للتجديد سنة ١٨٩١ . ثم خرج إلى الناس أخيرا « الشعر الجديد » سنة ١٨٩٣ عابقا بنوع من التدين الغامض والصوفية الخائثة ، وبقاموس جديد من اللفظ الشعري ، وبشئ من شيطان بودلير وموسيقية مالمارمه وريبية كل ربيبي .

(جوان دو كروز أي سوزا) (١٨٦٣ - ١٨٩٨) (Joao de Cruze Souza) كان صاحب هذا الشعر الذي كان كل بيت منه صرخة لاضد المحيط الذي يعيش فيه ، ولكن صرخة « غريزة الحياة » . كانت تجري في عروقه - وهو الخلاسي - تلك القطرة السوداء من الدم الافريقي ، وكان يعي بوضوح نظرة الناس المتعالية إليه . ولعل فرديته الجاحمة كانت الثمرة المرة لتلك النظرة التي كانت تطوقه من كل جانب . كان الفن نافذته للتنفس الحر . . .

« ما أحسن أحد بنضك العتم ،

أيها الكائن الحقيق بين الكائنات الحقيمة ! » .

وليس ثمت من تمييز عرقي في البرازيل ، لاسيما في الشمال . ولكن (سوزا) ولد في الجنوب الأبيض . ومن هنا كانت موجدته ، وكانت روحانيته ، وكان ذلك التحدي الروحي منه لاثام الافريقيين بالمادية وحضارة قرع الطبول ! وما من شك في أن دي سوزا هو أكبر شاعر خلاسي أنتجته البرازيل . وإذا كانوا يلقبونه بالبعجة السوداء - والبعج أبيض - فلأن لون بشرته الابنوسي يتناقض مع الصفاء الأبيض لغناؤه الذي يتراوح بين قطب الرمزية المالمارمية الشفافة كالمرايا ، وبين قطب الزوجية الممتلئة حرارة عضوية وهزة دم بربري وإيقاع التام - تام المتوحش . لقد اعطى الشعب صوته ، ومشى في مقدمته وليس في يده سوى

الشعر سلاحاً فكان من ذلك الدوى المتوهج العنيف معاً ، والغني في الوقت نفسه بالبطولة والانتشار الشعبي .

غير أن (سوزا) كان غامضاً أحياناً ، لامنطقياً أحياناً أخرى ، مبهم الرموز ، حتى ليستغلق على التفسير . ولهذا فإنه يقف وحده . ومن ورائه ، من بعيد ، يقف عدد متزايد من الشعراء أقل أثراً منه . منهم (ألفونسو غيمارايش) (Afonso Guimaraes ١٨٧٠ - ١٩٢١) وأسماء وأسماء . . . مالنا ، ها هنا ، ولها ؟

ما يهمننا أن الرمزية ، بعد هذا الرمزي الطبيعي ، أخذت طريقها في البرازيل سرباً . لم تجر في جدد واحد . ولكنها كانت مجارى عدة وينابيع أكثر عدداً . ولم تنأب على التأثير الغريب ، فقد صبت فيها أيضاً جرار الطيب من وايلد ودانونزيو . ولم تبق للشعر بل ظهرت في القصص والنقد والمسرح وكل لون أدبي . . .

والقصاصون الرمزيون كتبوا الكثير في البرازيل . كتبوا قصصاً عن حياتها القائمة ، وعن حياة الريف والبراري والغابة . أدب الأرض هذا استغرقهم . وقد استلهموا التاريخ قصصاً والأسطورة قصصاً أخرى . في الطليعة يأتي :

(كويليونيتو) (Coclho Neto) (١٨٦٤ - ١٩٣٤) . هو هجين ، أمه هندية . وقد عاش بكل كيانه الحياة البوهيمية التي عاشها جيله في (ريودي جانيرو) . وكتب تجربته في المثالية والقلق ، والنضال ، والحرمان ، والمآسي ، كتباً بعد كتب ، وقصصاً ومقالات ومحاضرات ، عكست حياة العاصمة البرازيلية خاصة في نهاية القرن الماضي ، ومطالع هذا القرن . عبادة الحرف ، تلك العبادة الخطرة ، هو الذي علمها لجيله كله . وقد استغل الحلم والخيال لعله يلحق فيها وراء الواقع بمنابع الانفعال والفن أمام الجمال ، وأمام المأساة الإنسانية . جو الأشياء كان يهيم أكثر من واقعها . والمعنى الصميمي الذي قد

لا يفسر للوجود الإنساني كان يشغله لذلك الوجود . في سنواته الأخيرة . سموه « رئيس الاكاديمية الأدبية » وأعطوه « إمارة النثر » . واللقبان لم يزيذا في مكانه المكين مثقال ذرة .

من رفاق (كويليو) ، لدينا ثلاثة آخرون ، أولهم :

(ليما باريتو) (Lima Barreto) (١٨٨١ - ١٩٢٢) ، خلاسي آخر . من ريودي جانيرو ، أشقته الحياة منذ الصغر فاستمر يعانيتها قلقه ، مسكينة ، مقترا عليها في الرزق والأمل ، حتى ابتلعت في النهاية الكحول . . . ما عرف المجد ولا الارستقراطية الفكرية . ولكنه غنى مدينة (ريو) بروعتها وادعائها ، وحياتها النابضة ، وكتب ما لم يكتب أحد مثله ، مأساة « الشخصية » الإنسانية ، في اصطدامها مع الوسط الذي تعيش فيه . لم يحلل ولكنه اكتفى فقط بأن يشعر ويشعر معه الآخرون بتلك المأساة الوجودية .

والثاني ، (غراسا آرانها) (Graca Aranha) (١٨٦٨ - ١٩٣١) عاش الحياة من وجهها السهل . دخل مبكرا في النخبة المثقفة ، ثم في الأكاديمية البرازيلية ، ثم في السلك السياسي . قصته (كنعان) هي التي كرسه كاتباً سنة ١٩٠٢ . وتمثيله البرازيل في باريس أغرقه في جوها الثقافي إلى الأذقان . . . على أنه كان عنيف الفكر ، عنيف القلق أيضا . هو الابن الروحي (لمدرسة ريسفيه) والواقعين ، وماشادودي أسّيس ، ولكنه أسهم في الرمزية ثم أسهم ، بعد سنة ١٩٢٢ ، في هدمها مع المحدثين ، وانسحب من الاكاديمية ، في جو عاصف ، متهمها أصحابها بالرجعية . ثم عاد فهاجم المحدثين أيضا . . . وأثار بين هذا وذاك غبارا كثيرا ، وأحقادا أكثر . الذين يحبونه يقولون إنه كانت لديه الجرأة في أن يلحق دوما بأحدث ما في الأدب والفن من التيارات ! . . ولكن أحدا لا ينكر عليه أن (كنعان) كانت محاولة موفقة للكشف عن القيم الروحية التي تنفذ الإنسان البرازيلي من بؤسه الخلقى .

واما الثالث فهو مونتيرو لوباتو ، سليل الاقطاعية الارستقراطية في سان باولو .

٥) مونتيرو لوباتو Monteiro Lobato

(١٨٨٢ - ١٩٤٨)

عند هذا الاسم حذار ! ان قلب البرازيل بدأ ينبض !

ولست تدري إن كانت البرازيل هي التي انبتت مونتيرو لوباتو ! أم ان مونتيرو لوباتو هو الذي نفخ في ترابها ، وهز منها الضمير القومي ، ليرقى به إلى حيث يضحى منارا لوطن يأخذ ابناءه الشعور بذاتهم « كأمة » ذات كرامة ، ومقام حي بين الأمم .

ولكن البرازيل في أدب لوباتو هي البرازيل الأصيلة حقا . برازيل المصانع والمزارع . في عاملها الكادح الصابر ، وفلاحها الأمل المعذب . برازيل المجاهل التي لم تطأها قدم إنسان ، والغابات التي لم تداعب ترابها اشعة شمس .

أما برازيل المدن الكبرى فقد أضحت (ولما تمض خمس عشرة سنة على موت لوباتو) مستعمرات خلطت من الشعوب تربط بينها مصالح . . . وتشدها ، ولعلها غير شاعرة ، مع القوى الخارجية التي تعمل ، شاعرة ، على تفكيك أواصر وطن لوباتو ، وتخدير ضميره القومي . ولكن لوباتو زرع في البرازيل بذورا من الصعب أن تتفكك أمة تحيا في ضميرها هذه الجذور ، ويحيا معها لوباتو . . .

كان يناضل ، رغم جذوره الاقطاعية وأصله الارستقراطي العريق ، لتنشق على أرض البرازيل البكر إنسانية جديدة لاتعرف ميزة اللون وآلهة ، ولا تعبد صخرا أو صنما ، وكان أيضا أحد بناء هذا العالم الجديد الذي ينبثق ، إنه ليس

بأديب فحسب ، إنه بطل قومي . ناضل لتحرير بلاده من براثن الأقوياء المستثمرين . تعذب ، وسجن ، وشرذ ، ومات شهيدا .

إن حياته وموته لينظمانه بين أصحاب المبادئ الكبرى في التاريخ . فقد كان الرائد الأكبر لاستقلال البرازيل الاقتصادي ، ولو انه كان يعمل في الأدب . ولقد عاش لوباتو يهب وطنه ، كما قال ، عقلية الحديد والبترو ، ولو كان الحرف فقط هو صناعته . ومات في ظروف غامضة ! من أجل البترول !! في حين كان يكتب قصصا للأطفال ، ألم يكن عاملاً وداعيةً ملحاً بأن في البرازيل بترولاً ؟ ألم يدع لاستثمار هذا البترول من قبل البرازيليين ؟

وآثار العاصفة . . . على هذا القلم الذي يجب أن يكسر وما تزال ناثرة .

كان مونتيرو لوباتو ، في حياته ونضاله القومي ، وثمرات هذا النضال ، أشبه بأعصار قوي مازال يعصف في صدر البرازيل ، وقد استقر له على الأرض وفي أذهان الناس تراث ضخم : مخطوطات ، مقالات في المجلات والصحف تنسق وتطبع في كتب ، وأربعة وثلاثون مؤلفاً أعيد طبعها مرات . نصفها قصص للأطفال تعد من أغنى ما كتب عالمياً في هذا الحقل ، وقد أتيت لها الانتشار الواسع في أمريكا اللاتينية كلها .

يضاف إلى هذا الأثر الجليل كتب مترجمة لأشهر أدباء الإنكليزية وغيرهم ، بينهم كبلنغ ، مارك توين ، همنجواي ، برتراند راسل ، سان اكزوبري ، وعدد هذه الكتب مئة كتاب تقع في نحو ثلاثين ألف صفحة .

ودراسة لوباتو تتطلب قدراً لايسمح به هذا المجال الضيق ، وقد كتب فيه زهاء الثلاثمائة مؤلف ، ولكن الخطوط العامة في هذه الحياة الزاخرة هي سلسلة متصلة من الفشل إلا في الأدب . لقد خسر كل شيء إلا القلم ، لم ينجح في إدارة مزارعه ، ولا في انشاء دار للنشر أو مجلة ، ولا في العيش في الولايات

المتحدة ، ولا في انشاء شركة للبحث عن البترول في البرازيل ، ولكنه نجح ، بل ، في أن يكون الكاتب الضخم ، وفي أن يكون كاتباً مثلث الهوى والقيمة فيه الروائي البار ، وفيه الكاتب القومي وفيه محدث الأطفال والولدان الرقيق الانيس .

كانت له طفولة سعيدة بمنايع الوحي والمشاهد الطبيعية البكر في مزرعة للأسرة قرب مدينة تاوياتي ، وسياحات في مزرعة لجذته مساحتها نصف مليون متر مربع ازدانت بكل ما تعرفه القارة البرازيلية من شجر وزهر ، وطيروصيد ، وأحراج . مكتبة جده الحافلة بصور الهنود والعبيد كان الطفل مونتيرو يقف في اركانها مأخوذاً ، ثم كانت تلتهم وقته وهو فتى يمضي الساعات فيها حتى لتنتزع أمه من هذا العالم السحري انتزاعاً : « اشياء رهيبة من الهند ، أرامل في المحرقة ، فيلة تدوس بأرجلها رؤوس المحكومين : جماعات من الزنوج يهاجمون العدو برماح طويلة ويصرخون مولولين ، وكنت اسمع صراخهم . . . » كذلك يقول .

وقد التقطت عدسة الطفل المرفهة صورة الامبراطور بيدرو الثاني في زيارة لولاية سان باولو حل بها ضيفاً على جده (الفيكونت تريميجي) سنة ١٨٨٨ : بالذقن المشدبة ، والعينين الوادعتين ، وصوته الناعم الرخيم .

دراسته الابتدائية كانت في مدارس للارساليات في تاوياتي ، ثم الثانوية والعليا في سان باولو ، حيث تخصص بالعلوم الاجتماعية والتشريعية .

وكانت بداية حياته العملية في القضاء ، كمدعٍ عام لمدينة آرانيس حيث تزوج ، وفي سان باولو عمل محرراً في كبرى صحف العاصمة (الاستادودي سان باولو) ، ومديراً « لمجلة البرازيل » التي تستقطب لتوها الحركة الثقافية في البلاد ، وغايتها المثلى خلق الوعي القومي ، والدعوة للعناية بالصحة العامة ، وقد قال أحد أطباء ذلك العهد : « البرازيل مستشفى كبير » .

وظهر كتابه الأول « اوروبس ، سنة ١٩١٨ ، وفيه » لأول مرة في البرازيل ، وصف واقعي لحياة الفلاح البرازيلي ، وقد كانت صورها من قبل مستوردة . . . تنطبق على حالة أي فلاح في أوروبا .

ثم يأتي سفره إلى الولايات المتحدة ، سنة ١٩٢٠ ، مع اسرته كملحق تجاري للسفارة البرازيلية . ويتأثر بطابع المدنية الأمريكية ، وقد لخصها في كلمات : « آلة من حديد غذاؤها بترول : حديد وبترول إذن . . . » .

ويعود لوباتو إلى بلاده فينكب على الترجمة ، ثم يغرق زمنا في دنيا الأعمال ، على حساب الأدب . إنها فترة السعي في سبيل المال مجددا وقد كان عنده في ذلك الحين « المظهر المجسم الوحيد لقوة الإنسان الاجتماعية » .

وتبدأ حملة البترول الرهيبة ، تتخللها فترات من الهدنة ينتج فيها أدبا ، ويتخللها توتر وصراع محموم يؤدي به إلى السجن ، إثر كتاب قدمه إلى الرئيس فارغس ، في عهد ديكتاتوريته ، وفيه اقتراحات تتعلق بالبترول . واعتبر الكتاب ماسا بمقام الرئيس . وتتراخى قبضة الديكتاتورية في آخر سني الحرب فيبدو لوباتو ، صديق الحرية الأمين ، ونجم الديمقراطية الهاديء ، تلتقي عنده تيارات التقدمية ووفودها : عمال ، طلبة ، صحفيون . ولكن الجو ينهك المناضل الشيخ . ويسافر إلى الأرجنتين لينعم فيها بالهدوء ، ويقطف ثمار شعبيته بين الأطفال على التخصيص .

ويعاوده الحنين إلى وطنه . ولكنه نداء الأرض ، هذه المرة ، تبغي أن تسترد ما وهبت . وتراوده فكرة الموت غارارا « فحصائه المتعب يتحرى له عن حفرة وقبر » .

وحضر يوم التاسع من حزيران ١٩٤٨ حفلة للأطفال اقيمت في إحدى حدائق سان باولو ، فأحاطوا به . وحكى لهم قصصا . كان يبدو سعيدا . شبه

نفسه بالشجرة القديمة تأوى إليها في المساء الطيور الصغيرة . قال لهم : إنه
يأسف ألا يكون قد كتب لهم قصصا أخرى . لقد أضاع وقته مع الكبار .

وفي الثالث من تموز تناول طعام الغداء على مائدة صديق فقالت له إحدى
السيدات : إنها ستزوره في الغد ، فقال لها :

« غدا ، في بيتي ؟ غير ممكن . ستجدين جثة هامدة » .

وقضى في الفجر : كما كان يريد ويتوقع ، أودى به تشنج في الدورة الدموية .

ونظّم لوباتو ، بعض الظلم أو كله إن نحن الحقناه بجيل مطلع القرن
العشرين ، فإن فكره لحديث ، حديث ، ولكنه هو الذي اختار رفض المحدثين
والضحك منهم !

حين أصدر سنة ١٩١٨ رواية (أوريس) (Uripes) تلقتها الأوساط
الوطنية بعاصفة من الإهتمام ، ووقف (روي بربوزا) ، أكبر سلطة أدبية
سياسية في العصر ، يوجه النور إلى العمل الأدبي الفذ . فأتبعه لوباتو بأعمال
أخرى من مثله : (السوداء الصغيرة) ، (أفكار جيكاتاتو) . ومع (العمة
انستاسيا) و (الزنجية العجوز) دخل حلقة كبار الأدباء .

قصة « السود » نموذج لفكره الروائي . وهي رواية قصيرة تكتف في جوها
الممدود بين الأسطورة والواقع كل تشاؤم طبقة البورجوازية المنهارة ، وكل
رعبها . قسمها لوباتو إلى مقاطع كالاناشيد بعضها جملة واحدة ، وبعض
صفحات . ويتناوب على روايتها ثلاثة رواة تتداخل حكاياتهم لتتكامل القصة .
كان الرواي مع رفيقه جونز على الطريق الموحش الذي كان ذات يوم مزارع
للبن . . وفجأة تلبدت الغيوم ولحقتها ريح عاصفة تنذر بالحمام المرتقب . ثم
تدفق الغيث الطامي . على امتداد النظر لم يكن ثمت مأوى حتى ولا كوخ من
القش . وقال الرواي لصاحبه : وراء ذلك التل البعيد مزرعة خربة يدعونها

الجحيم نلجأ إليها ؛ إنها مسكونة بالأرواح الشريرة ، وبالأشباح التي تزأر في الليل ، ولكن لا ملجأ آخر . إنها روح الكابيتين الشرير صاحب المزرعة القديم . وهزىء رفيقه من ملاحظته في غرور . . . لكنها همزا حصانيهما مسرعين . وحين وصلا المزرعة كان الطوفان قد عم الهضاب ! وحين انقطع كان الوقت قد تأخر على متابعة السير . وبحثا عن مأوى في البيت الكبير بالمزرعة . ولكنه كان خرابا مغلقا متهالك النوافذ . ولمحا غير بعيد عنه شجرة « مامون »^(١) وشيئا من حياة . فاذا هما يجدان عجوزا أسود . . . وحيياه :

- يحيا أبونا آدم !

وطلبا منه الطعام فأخذ يعده لهما والمأوى ، فأدخلها كوخه . ولكن الكوخ كان أضيق من أن يتسع لثلاثة . فقررا المبيت في البيت . وأنذرهما العجوز بما ينتظرهما فيه : إنه مسكون ، وبابه عصي . إنه للكابيتين البشور الرهيب الذي كان الشر ، الشر الخالص نفسه ، إن الله ينتقم منه . بيته مأوى للأشباح ، والوطواط ، والجردان . وأولاده الأربعة مزقتهم المصائب . . . لكنها أصرا على المبيت فيه .

وانصرف الثلاثة إلى البيت وبينما كان الراوي مع الزنجي يصارعان الباب المغلق كان رفيقه جونس واقفا متحجرا يتأمل نافذة في البيت كالفار أمام الأفعى . لم يأكل ، ولم يتكلم . ودخلوا البيت فأسرعت الوطاويط بالطيران ، والجردان بالهرب . بقايا الأثاث في الردهة كان متهتكاً وقال الزنجي : - هناك كانت غرفة التعذيب . روح الكابيتين تظهر هناك في نصف الليل ، وتدمى أظافرها وهي تحفر الجدار .

وهزىء الراوي من هذا الخيال الفقير . وطلب أن يرى مكانا أفضل للنوم ،

(١) المامون Mamao شجرة كالدخلة الصغيرة تحمل بدل التمر ثمرأ كثيراً واحده في حجم البطيخة الصفراء وفي ما يشبه طعمها وقوامها . وفي داخلها بذور مستديرة سوداء صغيرة وكثيرة . ويكثر المامون في المناطق الحارة الرطبة من مدارية واستوائية .

فقداه الى غرفة الكابتين نفسها . أما رفيقه فبقي خارجاً . وحين عادا إليه وجدا
ملاحه قد تقلصت ، وتعبيراً مربعاً على وجهه . كان مجرد جسد . ثم مالبت ،
حين أدخله البيت ، أن استغرق في بكاء متشنج ، وسقط على الديوان
صامتاً بينما كان العجوز يحكي كيف اشتراه الكابتين وكيف وصل المزرعة .
ويحكي قصة لدوينا العبدة التي كانت وصيفة لايزابيل الفتاة البالغة ابنة صاحب
المزرعة ، وكيف أحببت شاباً برتغاليا في المزرعة اسمه فرناندو ! . . . وفجأة
نضب زيت السراج ، وعم الظلام بينما اهتز الرفيق النائم ، وأخذ يهذي كأنما
يتحدث لنفسه . ولكن بصوت غريب كأنه آت من الماضي البعيد
- اسمي فرناندو !! . . .

وروى كيف رأى ايزابيل لأول مرة وهي تستحم في النبع من وراء بعض
الأدغال ؟ وكيف أحبها ؟ وكيف كانت الخادم لدوينا هي الوسيط بينهما ؟ وكيف
كانت تحتالان لزيارته في معصرة قصب السكر إلى أن علم الكابتين فجأة بهذا
الحب وكان الجزاء الرهيب !! . . .

فأما لدوينا فكان السوط يأكل مزقاً من لحمها . ماتت أمامي بينما كنت انا كتلة
مكومة من اللحم والدم وكان اثنان يحفران حفرة في الجدار وصوت الكابتين
يقول لي :

انظر سيكون لك هذا الجدار عروساً . . .

وصمت الصوت . وانقطعت القصة . وفي الصباح أكملها العجوز . قال :
ماتت لدوينا تحت السياط . وأرسلت ايزابيل إلى الريو . وأما فرناندو فاختفى .
لم يره بعد ذلك أحد ! . وينظر الراوي في غرفة التعذيب فيرى في جدارها بقعة
كبيرة مغايرة مرصوفة بالقرميد . . .

هذا الجو الخليط من الأرواح والحقد والشر والزنجي الأسود في الخرائب كان
يصور فيه لوباتو ثلاثة قرون سابقة قاسية من ماضي البرازيل .

على ان هذا العنف الفكري لم يكن مجانيا لدى لوباتو ولا كان حياديا . كانت وراءه روح معذبة بحب البرازيل ، وبالرغبة في عمل الكثير لها . كان الأدب بالنسبة اليه السلاح الفعال - وليس الوحيد - للثورة السياسية الاجتماعية الكامنة في ذاته . وكان له تأثيره الواضح في الحياة العامة واتجاهات السياسة . كان لوباتو يساير ويصنع ، مع الصناعين ، منازع الناس . في تلك الفترة ، كانت النزعة الريفية - الوطنية ، إرث الادعاءية القديمة، قد بعثت من جديد، منذ أواخر القرن الماضي . وقد أخذ الفلاحون « البسطاء » والعامة اعتبارهم لدى ضمير النخبة . اضحوا ، في الجو الأدبي ، مستودع طيبة ، وحكمة إنسانية . . . وأخذت الأرض مفهومها الحي المتصل بالإنسان ، لدى رجال القلم . وبات « أدب الأرض » جزءا من الحملة الوطنية لانقاذ الإنسان البرازيلي !

ومع أن زوايا النظر عنده كانت شعرية أكثر منها واقعية ، فإن (لوباتو) قد استطاع أن يفرض في إخلاص جارح مفهوماً جديداً للأرض والإنسان مختلفا جدد الاختلاف عما قدمه الواقعيون أصحاب كتب (الفيافي) ، واستطاع أن يجعل من (جيكاتاتو) ، ذلك (الكابوكلو) التافه ، شخصية بارزة في الأدب البرازيلي . لقد لا تكون صحيحة واقعية . ولقد لا يكون (جيكاتاتو) الذي يشبه الجرذان في البراعة ، ويعيش في بؤس الاجحار ، ويقاوم كل تقدم ، موجودا . . . ولكنه خلقه وفرضه على الناس ، وجر من خلاله هؤلاء الناس إلى مأساة الواقع الريفية .

على ان حياة لوباتو الأدبية شهدت تحولا عنيفا أشبه بالعاصفة ، في الفكر والاتجاهات واللون الأدبي . كان ذلك بعد سنة ١٩٢٠ حين سافر الى الولايات المتحدة . ذلك الارستقراطي المشيع بالحس الوطني ودنيا الريف والفلاحين ، انقلب هناك . بهرته حضارة الحديد والبترو . هزته حتى الأعماق ، فعاد يبحث عن الحديد والبترو في ترابه . الفولاذ والذهب الأسود

أصبحت أساس الحس الوطني لديه . وكان هذا سبب اصطدامه بالقوى الامبريالية والمحلية التي سحقته سحقاً . تجرد لها بالقلم وحده مع سؤر من مال . وقد كتب ثم كتب وكتب بكل قلبه ، وذهب الريح بما كتب . . . سنوات . فلما تفجر البترول حقا في البرازيل كان قلب مونتيرو قد همد ! وقبل أن يهدم كان اهتمام آخر قد ازهر فيه : الأطفال .

ترك عالم الكبار قصصا ودعوة وأقبل على الأطفال يروي لهم القصص ألوانا وتلاويح . نسي (أو لعله مل . . .) احتراق الأعصاب وراء أخطاء الفكر والسياسة والاجتماع والاقتصاد من حوله . كره حديثه المكرور ضد « التقليد » و « الميكانيكية » و « العبودية للرأسمالية العالمية » ، و « الكتل الانتخابية تساق كالأغنام » ، و « المحسوبة العمياء » ، وانصرف إلى الصغار يحدثهم . لقد ينقصه في هذا المجال بعض التعاليم الأخلاقية ، وبعض الطيبة ، ولكن لم تكن تنقصه جاذبية الحديث وتعليم حقيقة الحياة . وأبطاله الصغار (ناريزينو ، بيدرينو ، رايكو ، اميليا . .) مثلهم مثل أبطاله الكبار (جيكاكاتو ، العمدة اناستاسيا ، الزنجية العجوز) سيقون بين أخلد ما في الأدب البرازيلي من شخصيات .



الفصل الرابع

اتجاهات في الأدب البرازيلي الحديث والمعاصر

(١) العصر الحديث منذ ١٩٢٢

قبل سنة ١٩٢٢ بكثير كان العالم كله يعيش كابوس الدم، الذي اهرق في الحرب الأولى . القلق الساحق لم يقف عند حقول الخنادق من أوروبا ، ولكنه تسرب ، كجنيح الليل ، إلى كل مكان . ولحقت به سلاسل من الثورات الخرساء والصارخة بكل أرض . حتى في البرازيل كانت فترة ١٩٢٠ - ١٩٣٠ أشد الفترات أسى في التاريخ الحديث . كانت فترة التفجر . جو محموم بالاستياء الملح كان يعتصر جميع قطاعات الحياة . مفاهيم ومشاكل وأحزاب ، أجيال كلها جديد كانت تتفتح . وقد حاولت الحركات المسلحة الوصول إلى حل فلم تفلح إلا في تحطيم التكوين السياسي والاجتماعي للجمهورية الأولى . ثم جاءت أزمة البن سنة ١٩٢٩ مع الأزمة الاقتصادية العالمية ، فأجهزت عليها بثورة سنة ١٩٣٠ التي وصلت بجوتوليو فارغاس إلى قصر الرئاسة .

ومرت البرازيل بعد ذلك في دور من التوازن برزت فيه ثورة سان باولو الدستورية سنة ١٩٣٢ ، وحركات الدمج القومي تقليدا للنازية الألمانية ، ثم الحركة الشيوعية سنة ١٩٣٥ . ثم جاء اعلان الميثاق الدستوري والدولة الجديدة سنة ١٩٣٧ ، فأدخل البلاد في الدكتاتورية العسكرية حتى نهاية الحرب الثانية سنة ١٩٤٥ ، حين اضططر فارغاس للتنازل . وقد عاد إلى الحكم سنة ١٩٥٠ لينتحر بعد أربع سنوات . وقضت البرازيل عشر سنوات من الديمقراطية بعد ذلك لتقع في الدكتاتورية العسكرية من جديد سنة ١٩٦٤ فلا تتخلص منها إلا بعد مطلع الثمانينات . سنة ١٩٨٤ .

أكان لهذا القلق أن يذهب مع الريح فلا يترك الميسم القاسي في الأدب
البرازيلي ؟

قبل سنة ١٩٢٢ بسنوات طويلة كان فكر أدبي جديد يبرعم في البرازيل .
المذاهب التي أعلنت منذ سنة ١٩٠٩ في أوروبا بعدد من الاسماء المنتهية بـ
« Ism » من مستقبلية وسريالية وانطباعية و . . . و . . . كلها وصلت البرازيل ،
وظلعت تارة في مجلة ، وأخرى في معرض وثالثة في مقالة ، أو قصيدة أو
مسرحية .

وفي سنة ١٩٢٢ فقط استقطبت مجلة (اسبوع الفن الحديث) في سان باولو
جميع الأقلام والاتجاهات ، وقادت الحركة التحديثية . أولنقل الثورة - سنوات
سبعاً . . . بل ! كان ههما أن تفضح ، أن تزجج ، أن تحض الأفكار وتوجه
البرازيل نحو أوروبا بل ، وكان السلبي في بيدرها الأخير أكثر من الايجابي
ولكنها عبرت عن الرفض العنيف والفوضى أحيانا لدى جيل ما بعد الحرب .
هذا الجيل لم يستطع أن يحن رأسه لأي مبدأ فني أو بدعي أو روحي . كان
هاجسه الملح البحث عن الأصالة في الروح البرازيلية ، والركض مع
الحديث ! . . . أي حديث .

ما استطاع التحديثيون ، أول الأمر ، أن يلوحوا على دروب المستقبل
بطريق . فرفضوا الماضي مع (المستقبلين) الرفض المطلق ، وثاروا على
الواقع ، مع الفوضويين ، كل ثورة ! رأوا أن الحياة البرازيلية مستعارة كلها ،
غريبة . هي من التقليد للغرب ومن التحجر الفارغ ومن المخالفة للحاجات
القومية ، بحيث لا بد من تحطيمها أجمع .

كل ما كسبه من (مارينتي) ، ومن التيارات الأوروبية الحديثة التي غزت كل
الآداب الأمريكية بعد سنة ١٩٠٩ ، هو الجوع إلى التجديد ، واستنفاد كل ما في

الحاضر واللحظة الحاضرة من وجود ومأساة وخمر . ومن هنا التقت الحركة الأدبية في البرازيل كما في كل بلد حديث التكوين القومي ، مع الأفكار القومية . ومن هنا توازت الاتجاهات التحديثية في الأدب مع الحركات الوطنية في السياسة . وامتزج الطريقتان في واحد . والقيت على دروب الفكر والأدب ، شعارات (المشي نحو الغرب) ، (برزلة البرازيل) ، (حضارة ما قبل كابرال) ، (تأميم الأمة) ، (البان برازيل) ، (أخضر - أصفر) ،^(١) (برازيل أرض المستقبل) ، وجرى البحث - على منوال (اسطورة القرن العشرين) النازية لروزنبرغ - عن أساطير جديدة باقامة الوحدة القومية . . .

على أن سعة البرازيل ، السعة القارية ، فتحت المجال للاقليمي من خلال القومي . تباعد الأقاليم جعل القومية البرازيلية تترجم عن نفسها غالبا بالحس الاقليمي . وهكذا أقبل التحديثيون على بقاعهم المتباعدة يستنزفون ما في تلك البقاع من لون انساني خاص . ومن فولكلور محلي ، ومن مأساة ، وهكذا أيضا ظهر أدب الجنوب . أدب التصنيع والمدينة في سان باولو ، وأدب (البامبو) و (الغاوشو) في ريو غراندي دوسول . وظهر أدب الشمال - الشرقي (باهيا : برنهبوكو ، سيارا) . . . الأدب الذي قد يكون أكثر أصالة وحيوية من كل ما أخرجت البرازيل حتى الآن من أدب ، أليس من عباقرة (راموس) و (أمادو) وغيمارايش روزا ؟

هؤلاء وأولئك على السواء صاغوا البرازيل الأخرى ، برازيل الفكر ، ولكن كلا صاغها على الصورة التي يراها حوله . وهم يكتبون ويمنحون الانسانية حتى الآن أدبا غنيا ممتعا خصباً ولكن كلا يغرق ، يمتح ، يستقي من غنى الاجواء المحلية التي تملأ نفسه وصدرة . . . وهؤلاء وأولئك هم الآن حاضرون البرازيل الأخرى ، ومداها الأدبي الحديث . . .

(١) رمزاً للوني علم البرازيل .

على أن هذه النظرة الاجمالية، كلمحة الطائر العجول ، أو المنظر البعيد لا تأكل التفاصيل الخطيرة الهامة فحسب ، ولكنها تخدع عن الواقع على عكس ما روي المتنبي عن الشحم والورم . ووراء تلك الملامح التي ألحنا بها في كلمات خاطفة ، تاريخ طويل، ومعارك سالت بها الاقلام والجباه ، وبحار من الحبر .
ما سوف نذكر من بعد ليس الا بعض التفاصيل .

٢ (معركة القديم والجديد (حركة التحديث) :

السمة الرئيسة للفكر البرازيلي بعد الحرب العالمية الأولى أنه بعد أن كان عالمة على الثقافات الأوروبية ، (والفرنسية منها بصورة خاصة) ، صار يبتكر أدبه . وبعد أن كان يستورد الأفكار صار يصدرها . كان أدبه مستوردا مستعارا ، رغم أنه كان يصنع بيديه وفي بلاده . ومع أن هذا لم يكن يعني عدم حدوث تغيرات معينة فيه خلال انتقال المدارس والأفكار من جانب من المحيط الاطلسي إلى الجانب الآخر ، أوم يكن ليخضع للمناخ الاجتماعي أو الكوني للبرازيل، إلا ان هذه التغيرات لم تكن جذرية إلى أن بلغ الفكر البرازيلي الخاص رشده . ووعت البلاد اصالتها الجمالية الخاصة من خلال ارهاصات كثيرة ، طويلة في الزمن لعل من أهمها حركة غونزالفش دي ماغالايش Goncalves de Magalhaes الذي وضع وهو بعد في باريس برنامجا للاستقلال الثقافي واضح الحدود قال فيه : يجب ان يستجيب أدب برازيلي مختلف للواقع السياسي الجديد . على الاستقلال السياسي ان يمثل تجاوزا للاستعمار على المستوى الثقافي أيضا . . . وكيف ذلك ؟
يجيب ماغالايش بالقوة الملهمة في طبيعتنا .

ومنذ وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها جرت أول تجربة لذلك من خلال ثورة فكرية صاخبة أولى سميت بحركة التحديث تلتها في تعاقب دوري يكاد يكون منظما حركات تالية تجديدية وتصحيحية كانت وماتزال تقود الذوق الفني والأدبي إلى اليوم سنة ١٩٢٠ ، ١٩٤٠ ، ١٩٦٠ ، ١٩٨٠ ،

تخللتها في أواسطها ٣٠ - ٥٠ - ٧٠ فترات الأوج التي هي في الوقت نفسه بداية الانحسار والبحث عن طريق جديد . إن هذا التنظيم رغم ظاهره الاصطناعي ، ورغم كثرة الشذوذ فيه وتراكم الجديد على القديم ، ورغم ما فيه من تعسف في توقيت العقدين بعد العقدين لكل حركة ، يعكس حقيقة قائمة بالفعل ، وفيه الكثير من الواقع . فقد وقعت في الفكر الأدبي البرازيلي ، حوالي تلك السنوات ، أربعة انقطاعات هامة عن التقاليد المحورية التي كانت ترين عليه ، وتوجه مساره منذ ظهر قبل قرنين حتى أول العشرينات من هذا القرن . وكانت كل حركة تبرر ذاتها في ثلاثة طموحات لكل منها اتجاه مختلف :

- ترفض أكثر من تقليد من تقاليد الأدب المستقرة .
- تنزل إلى الساحة الأدبية بمبادئ أخرى تقترحها ما تلبث أن تصبح تقاليد .
- تنبش في الماضي عن جذر أدبي تصل به اقتراحاتها وتعطيها التبرير والشرعية والاصالة .

وجدلية هذه الحركات لا تظهر فقط في انطلاقها من التناقض مع ما ترفض وتقترح وتنش ، ولكن في اتجاهها . فهي في الوقت الذي تقوم في الرفض على القطيعة والتوقف ، تقوم في ما تقترح على التطلع إلى الأمام والغد ، وفي محاولة الشرعية على الاتجاه إلى الوراء ، وإلى الجذور الأولى . . . وتقع الأزمة . وتمضي فترة من الزمن تصل إلى عقدين ، يكون فيها الاقتراح الجديد قد أضحي تقليدا أو نوعا منه ، فتعود الأفكار إلى رفضه واقتراح غيره ، باحثة عن نسب آخر قديم يبرر وجودها . وتعود الجدلية بين أمام ووراء إلى الدوران ، وإلى اقلاق الفكر ، ممثلة بذلك لحظة الأزمة ومداها .

وإذا كان التغيير الدائم من سمات الفكر الحي ، وقانوننا من قوانينه الأبدية نسميه لدينا « معركة القديم والحديث » فإن طرف المعركة الثاني ، وهو الجديد ينتقل في العادة ليحل محل القديم بشكل « تقاليد » تريد ان تثبت فما تلبث ان يهبط عليها جديد حديث آخر يناقضها ، ويحل في الساحة محلها . . . وتدور

الدائرة !! ولكل حركة تجديد بالطبع خصائصها ، وأهدافها وجندها المدافعون وضحاياها على جوانب الطريق . . .

حركات التغيير الأربع الذي هزت الفكر البرازيلي في هذا القرن كانت تتميز بأمرين : أنها مختصرة ، سريعة ، لعل ركض الحياة الغربية وراءها كان يعجل في تكوينها ، وولادتها السريعة المتوالية ، وأنها كانت متوافقة مع التطورات السياسية الاقتصادية التي نزلت بالبلاد . فالحركة الأولى جاءت في أعقاب الحرب العالمية الأولى وبلغت أوجها سنة ١٩٣٠ . ثم جاءت الثانية مع الازمة الثقافية التي اثارها الحرب الأهلية الأسبانية ، والحرب العالمية الثانية . وترافقت الثالثة مع اقصى انتشار للثورة الكوبية ، ومع استيلاء الدكتاتورية العسكرية على السلطة في البرازيل . وظهرت الرابعة مع الانفراج الأخير ، ووهن القبضة العسكرية وعودة الديمقراطية إلى البلاد . ولنلاحظ أن هذه الحركات التغييرية كان لها ما يقابلها في باقي أمريكا اللاتينية . لم تكن خاصة بالبرازيل . والفارق فيما بين الطرفين فارق زمني فحسب ، وفارق في الوسائل والاهداف .

كانت حركة التحديث الأولى سنة ١٩٢٢ هي الانقطاع الأول في هذا القرن في سلسلة الفكر الأدبي البرازيلي الذي مر قبل ذلك بالرومانتيكية الابداعية ، والرمزية ، والبارناسية وغيرها ، متتبعا أثر المدارس الفرنسية و« موداتها » .

بدأت الحركة في سان باولو متأخرة في الزمن عن حركات التحديث في أمريكا اللاتينية التي بدأت في المكسيك سنة ١٨٧٥ ، وعن مثيلاتها في أوروبا . فبيان المستقبلية الايطالية صدر سنة ١٩٠٩ . وقد انتجت الحركة التحديثية اللاتينية الكثير من الشعراء والكتاب ، تحت لواء الرومانتيكية الغنائية ، كان أبرزهم الشاعر روبن داريو في المكسيك . وبلغت الذروة بانتاجه الرائع قبيل أواخر القرن . كان انتاج المحدثين بمثابة امتلاك للعالم ووعي له . لكن هذه الحركة . بما أوجدته من مواضيع ومفردات وقواعد نَظْم ، كانت تضمحل وتموت حوالي

سنة ١٩٢٠ . ورغم مساهمة الحركة الرمزية البرازيلية لها ، وظهور أولافوبيلاك (١٨٦٥ - ١٩١٨) ، وجوان دي كروز أي سوزا (١٨٦٣ - ١٨٩٨) فإنها كانت قد استنفذت أغراضها ، ومالت إلى المغيب حين برزت فجأة في سان باولو حركة تحمل الاسم نفسه ، ولكنها تقلب المسرح كله بما فيه على من فيه . كانت أشبه بانقلاب ثوري كامل .

كان ذلك في مايو سنة ١٩٢٢ اثناء الاحتفال في سان باولو « باسبوع الفن الحديث » ، الذي اقيمت فيه معارض لأحدث منتجات التصوير والنحت ، وحفلات للموسيقى الجديدة مع ندوات أدبية وشعرية ، وفكرية ، تناقش الأفكار الجديدة المطروحة . وكان جمهور الطبقة الوسطى يتفرج على كل ذلك دون كبير اكتراث . ولكن الأسبوع وما فيه اجتذب وجمع كل الطليعيين في مختلف الفنون . وكان البداية الصاخبة للحركة الضخمة التي سيطر عليها البرازيليون اسم « التحديث Modernismo » . ما طرحه التحديثيون كان خطيرا . ومع أنه يستند الى الحركة المستقبلية الفرنسية إلا انهم كانوا يطالبون :

- بقطع الروابط مع فنون القول والبلاغة البرتغاليين .
- بتحديث الأدب البرازيلي عن طريق تكثيف الاتصال مع الطليعة الأوروبية .

- باكتشاف البرازيل وتفسيرها عن طريق اكتشاف اللغة البرازيلية ذاتها والأساطير الخاصة بها من زنجية وهندية وخلاسية .

- باكتشاف الابداع الشعري عن طريق قيم ادبية جديدة وتقنيات تدمر تقاليده !! ...

قاد الحركة ماريو ادموندو دي اندراده ، وأوزوالد دي اندراده (ولا علاقة من القرابة بينهما) وقد قدم الاثنان اسهامات لفتت الانظار بما تحوي من قوة ابتكارية كبيرة ، في الشعر وفي النثر على السواء ، استطاعت أن تجسد نظرية الحركة

التحديثية ، وتمثلها في أعمال أدبية ، كما استطاعت أن تؤثر على مستقبل الأدب البرازيلي ، وتجدد مساره . نشر ماريو ، في ذلك العام نفسه ، ديوانه بعنوان (Pauliceia Desvariada) (باوليشيا الهاذية) يعرض في مقدمته الجدلية البالغة الأهمية على الشعر البرازيلي كل حريات العصر التحديثي الجديد : الشعر الحر والنزعة النثرية ، واللغة الدارجة والتعبير الشخصي والتهكمي والموضوعات الشعبية ، والبحث عن الاصيل الهندي في اللغة وفي التقاليد واتبعها بمقدمته حول شعر الحداثة التي قدم بها لرواية (الجارية التي ليست هي ايساورا سنة ١٩٢٥) ثم بروايته أو - كما يفضل أن نسميها ناقلاً الاسم عن الموسيقى رابسوديته - البارزة ماكونا (Maconaima) سنة ١٩٢٨ ، وبكتاباته النظرية الجدلية في مقدمة باوليشيا ويحثه حول شعر الحداثة ، وفي الفترة نفسها قدم ازوالدو شعر بالو - برازيل^(١) (Palo - Brasil) ١٩٢٥ - ١٩٢٧ بعد أن مهد له سنة ١٩٢٤ بيان شعر بالوبرازيل المتفجر ، وبرواياته (أو مبتكراته كما كان يفضل ان يسميها) : الذكريات العاطفية لجوان مرامار (Memorias Sentimentais de J. M) في السنة نفسها . ثم عاد سنة ١٩٢٨ على الجوال الأدبي ببيان أكل لحوم البشر (Manifesto antrophofagio) واكمل ذلك سنة ١٩٣٣ بروايته (Serfim puente grande) (ساروفيم الجسر الكبير) وبمسرحه الثوري (١٩٣٣ - ١٩٣٧) ...

ومع أن ثورة التقليديين قامت على التحديثيين لما تدخله من الضعف والابتذال على الوضع الارستقراطي للأدب. ومع أن عضوا الاكاديمية كويليو نيتو وقف يصرخ متحدياً بصورة مسرحية طليعية التحديثيين ، محتجاً عليها : « أنا آخر الاغريق » ! إلا أن بعض الاكاديميين أنفسهم وقفوا بجانب الحركة المجددة . ووقف غارسا ارانيا (Garca Aranha) (١٨٦٨ - ١٩٣١) ، وكان من كبار

(١) عنوانها بالبرتغالية هو : Aeserava que no es Isaura

الكتاب سناً ومكانة ، فأيد الحركة تأييداً حاسماً بخطاب في الأكاديمية نفسها .
وانحد معه وتبعه عدد من الشعراء أمثال جورج دي ليم (Gorge de Lima)
(١٨٩٣ - ١٩٥٣) وروي ريبيرو كوتو (Rui Ribero Couto) (١٨٩٨ -
١٩٦٣) ، وكارلوس دروموند دي اندراده (١٩٠٢ وما يزال حياً) ، وسيسيليا
ميرليس (Cecilia Mereles) (١٩٠١ - ١٩٦٤) ، واوغستو فيديريكو
شميت (Au . Fed Schmidt) (١٩٠٦ - ١٩٦٥) مكونين بذلك تياراً من
المع تيارات الشعر البرازيلي .

ولعل السبب الاساسي في قبول مدرسة التحديث ، والرضى عن مبادئها ، ما
تميزت به النماذج الاولى التي قدمها اوزوالدو وماريو من اصالة تبرر القيم الجديدة
التي دَعَوا إليها .

فبينما كان ماريو اندراده يقرض شعراً متعدد الأصوات يحو الحدود بين الشعر
والنثر بطريقة محيرة ، ويتميز بايقاع الحضارة الحديثة فيه ، وعفوية اللغة البرازيلية
المحككة « الجامعة لكل الأخطاء » كما يقول ماريو نفسه والبعيدة عن نقاء
البرتغالية المتقعر ، كان شعر أوزوالدو يتميز خاصة باللغة المكثفة . وباستخدام
اللغة الشعبية ، وبادخال الصورة المباشرة . بالإضافة إلى روح الدعابة . كانت
قصائده حيوياً مكثفة من اللغة الحية ، ملتقطة مما هو يومي عادي ، ولكنها
مشحونة بجهد كهربائي غنائي ، وتقودها بصيرة نقدية صائبة تبرر لدعائها السائغ .

وبالرغم من أصالة الشاعرين وبراعتهما الفنية التي لا جدال فيها فإننا نستطيع
أن نرى في موقفها الشعري ملامح التأثير بالاجواء الطليعية الأوروبية . فإذا كان
ماريو قد قرأ ثم قرأ حول مختلف المدارس الفنية من مستقبلية ودادية وسوريالية
وتكعبية مما كان تمثلياً به أوروبا في فترة ما بعد الحرب الأولى ، فإن اوزوالدو
سكن باريس فترة ، وغرق مع شعرائها وفنانيها المرتبطين بهذه المدارس ، وعاش
بدمه وأعصابه نزواتهم ، وشطحات اليد والفكر عندهم . على أن الشاعرين كانا

أعمق تمثلاً لهذا كله لأنها كانا يلامسان التنوع العرقي في البرازيل ، ونكهة الاسطورة الخلاسية ، وجمال اللحن العامي ، والشعر الفولكلوري الزنجي ، ورنين اللهجة الشعبية المطرب ، كل ذلك في معاناة حية مباشرة لم تمحها بعد الحضارة الصناعية كالشأن في أوروبا ، ولا التجانس الثقافي العميق .

ولم يكن ماريو وأوزالدو شاعرين فحسب ، ولكن روائيين أيضاً ، وعلى طريقتهما التحديثية ذاتها . وقد نستطيع القول أنها لم يكونا يفرقان بين الشعر والنثر . الحدود بين هذين النوعين الأدبيين كانت ممحوة لديهما . وهكذا فما كتبه في الرواية هو الصورة الأخرى لما انتج في الشعر . وقد كسرا في النثر كما في الشعر المفهوم التقليدي للرواية المحبوبة ، المكتملة ، المتوازنة الشخصيات والصياغة ، والمتصلة بواقع الحياة ودمها الحار . كانا يفتشان عن رواية أخرى أكثر إثارة لأنها تحمل القارئ جهداً أكثر سواء في فهمها وإعادة تركيبها ، أم في تحديد المقصود المتعدد منها .

ونشر ماريو كتاب (ماكونايبيا) منطلقاً من النموذج الروائي التقليدي ، ولكنه سماه (رابسوديه) ، وأقامه على المفارقة العميقة في الموضوع ، وفي اللغة ، وحافظ على المبادئ والقيم الأساسية لحركة التحديث . واسم ماكونايبيا يعني الشرير الكبير بالهندية . وقصته في الأصل مستمدة من أساطير أمريكا الأمازونية ، ولكن ماريو أدخل عليها عناصر اسطورية أخرى عديدة ، حللها واختارها لتناسب غايته من الرواية ، وجعل من ماكونايبيا بطلاً دون طابع محدد يبحث عن طابعه القومي وملامحه الاثنية . وتتطور القصة لاحسب مبدأ منطقي

(١) استعار أوزالدو هذه التسمية من عادة هندية تقضي بأكل الهندي لحم عدوه بيكتسب صفاته . ويقصد أن يتضمن وتمثل كل تجارب الآخرين لنكسب قواهم وابداعهم بنية تحويله إلى قدرة برازيلية خاصة تعود عالمية من جديد .

أو سيكولوجي ولكن حسب نسق الحكايات الخرافية . ويسبغ عليها المؤلف تنوعات من الأساطير ومن الحكايات الشعبية البرازيلية ، ومن عناصر النقد الاجتماعي ومن التنوع المدهش ، فماكونايبيا مثلاً يتصارع مع العملاق بيايمان (Piaiman) (وهو ملتقط من ميثولوجيا هنود التاوليبانغي Taulipangue) الذي يكون في البدء محتالاً من البيروسق منه الطلسم ، ثم مهاجراً إيطالياً غنياً في سان باولو . . . وهكذا . . . كل ذلك في نعمة ساخرة ، ولغة هي مزيج مركب من اللهجات البرازيلية المتنافرة ، والتعبيرات العتيقة ، والهندية والافريقية والاقليمية وطرق بناء الجملة الشعبية .

أما اوزوالدو فكتب ميرامار وقدمها على أنها رواية . وهي في الواقع لقطات مكونة من ١٦٣ قطعة تحتاج إلى تدخل القارئ فيها لاعادة تركيبها واخراجها . فصولها تصلح أن تكون تارة تعليقاً جاداً ، وتارة نادرة فكاهية ، وطوراً بطاقة بريد ، ورابعة قصيدة من قصائد (بالو- برازيل) . ثم نشر رواية ساروفيم وهي مهزلة اجتماعية كتبها على طريقة رابليه الفرنسي ، ولخص فيها التلخيص الساخر مظاهر المجتمع الرأسمالي المنحل ، ولكنه كثف فيها عملية الفصل بين القارئ وبين دعابة المفارقة ، وزاد في جموح الفكرة واللغة لدرجة جعلت بعض النقاد (مثل داسيلفا بريتيو) يعتبرها أكثر الكتب جموحاً في اللغة البرتغالية .

على أن هذا التآلق الذي أصابته الحركة التحديثية حتى أوائل الثلاثينات ، والذي استمد قوته من أقطابها من جهة ، ومن ثقافته مع النزوع العام إلى تأكيد الهوية القومية البرازيلية من جهة أخرى ، مالبت أن خبا تدريجياً بعد انقضاء حماسة سنوات العشرين وإن كان انتاجها المكثف القصير المدى قد ترك طابعه الواضح « على جلد الأدب البرازيلي » لأنها لم تمت . وإنما صارت أحد التيارات المتوغلة في الفكر البرازيلي المعاصر .

٣ - القضية الاجتماعية : (١)

ما حال الأدب البرازيلي لو انتصرت قوى الانفصال في حروب النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فصار الشمال الشرقي اتحاد خط الاستواء ، وأوضحت ريو غرانده جمهورية بيراتيني ، وتوالى الانكماش فصارت هناك جمهورية سان باولو ؟ سؤال ألقاه على نفسه الكاتب انطونيو كانديدو وهو يحاضر عن الأدب البرازيلي في مؤتمر الأدب الأمريكي اللاتيني في واشنطن سنة ١٩٨٢ ، واجاب عليه قائلاً : قد يكون هناك ثلاثة آداب ! صدفة انتصار القوى المركزية أبقّت على البرازيل موحدة . ولكن هل يغير ذلك شيئاً ؟ ان قدرا واحدا يقود القارة اللاتينية كلها هي انها حكمت من اسرتين ايبريتين ، وجلبت لها يد عاملة زنجية من افريقيا ، ونهبت ثرواتها المعدنية . وسحق أهلها الأصليون ، وحكمتها جميعا نخبة برتغالية واسبانية طالبت بالاستقلال ونالته ، وظلت حتى هذا القرن حارسة للوضع الراهن تأبى تغييره . .

لكن هذا الوضع الراهن معقد كل التعقيد تصطرع فيه على الأقل ثلاثة عروق من هندي وزنجي وأبيض عدا ما يقوم بينها من خلّاسي ، وكريولا ، ومهاجرين ، وكابوكلو ، مع ما تحمل هذه الجماعات من ثقافات متباينة ، وما تحتقب من امكان متنوع ، وما تعاني من حياة في تلك القارة - العالم التي تدعي البرازيل ، وما وما تتحدث من لغة تحب وتكره في وقت واحد . . .

ومنذ البدء كان تباين الطبقات الاجتماعية صارخاً في البرازيل . بسطاء الناس لم يكونوا مسحوقين فقط ، ولكن غارقين أيضا في التخلف ، يعيشون دنيا الأسطورة الهندية - الزنجية ، ورقص الكاندومبليه ، وينامون على الطوى ،

(١) أخذت بعض الافكار في هذا الفصل عن بحث (تجاوز اللغات العصرية) هارولد دي كامبوس المنشور في كتاب (امريكا اللاتينية في آدابها) (ص ٢٧٩ وما بعدها) والذي نشرته اليونسكو سنة ١٩٧٠ .

وموتون على دروب الجوع . الأدب البرازيلي كان حتى الآن يتحامي الطبقات الدنيا . يغطي عينيه كي لا يرى عريها . كان مكتبة البورجوازية للبورجوازيين . القلائل من الشعراء والكتاب الذين نشأوا من هذا الشعب مثل كاسترو فيس وسوزاندراده ، وغنوا بؤسه وشقاءه الصامت ، ظلوا هامشين سمعتهم الشعبية التي تحولت إلى سمعة اسطورية كانت تتناقض مع الاهمال الرسمي لهم ، ومع الأسطر القليلة التي تحجز لهم في كتب الأدب . . . غير ان الفئة القليلة المسيطرة من الملاكين الكبار وسادة المطاحن ومزارع قصب السكر مالبت أن تحللت في مطالع هذا القرن ، وظهرت بدلاً منها ارستقراطية المال . وبدأ العفن الاجتماعي يطفو على السطح ، ويفرض نفسه فرضاً يزكم الانوف ، وترافق ذلك في البرازيل مع وصول جيتوليو فارغاس إلى الحكم سنة ١٩٣٠ لعله يحل أزمة البن التي خنقت البرازيل ، وطبقته الحاكمة اقتصادياً وسياسياً . كما ترافق دولياً بصراع تيارات أكبر خطراً تحاول أن تجد الحلول للازمات الاجتماعية - الاقتصادية بشكل عالمي . واذا كانت الاشتراكية العلمية قد طرحت نفسها عبر الماركسية ، والاتحاد السوفياتي كحل ممكن فقد زجت نفسها في الوقت ذاته حركتان أخريان هما الفاشية والنازية كحلول مناقضة . وتقومان على المدى الحيوي والتوسع الاستعماري . وطرحت نفسها الكاثوليكية أيضاً فيما يشبه اليقظة لكي لا تفقد أراضيها في العالم ان لم تستطع كسب أراض جديدة . وامتلاء العالم بالجماعات التي تتبع الكومنترن من جهة ، أو تتشبه بالميليشيات الفاشية والفرق النازية من جهة أخرى ، أو بالبعثات التبشيرية المتزايدة . لكن النتيجة الأساسية من كل ذلك أن تنافس هذه الجماعات على الطبقات المسحوقة كسبها لها وجهه الانظار بقسوة إلى البؤس الاجتماعي وفضحه . وكان أبرع الجماعات في إثارة البؤس واستغلاله هي الجماعة الشيوعية .

في البرازيل كان سوء الشروط الاجتماعية سبباً في انتشار الشيوعية في الشمال

الشرقي ، وأرض الجفاف في السرتون ، لم تخترق كل شيء ولكنها أثارت الأفكار ووجهت الأعين إلى الواقع الاجتماعي المر . إلى شروط حياة الزوج . وشقاء الهندي البدائي وموت الكابوكلو على أثلام الحقول . ودخل كل ذلك ، ومن الباب العريض ، إلى الأدب . وفهم الناس هناك حركة التحديث ، واكتشاف البرازيل وأرضها وأساطيرها الخلاسية ، على أنها كشف لهذا الواقع الفاضح . . . ولم تستطع عهود فارغاس (التي امتدت حتى سنة ١٩٤٥) أن تفعل شيئاً كثيراً ، رغم أن البرازيل شهدت تحديث المؤسسات الاجتماعية والسياسية ، وتأسست فيها القاعدة الاجتماعية والاقتصادية لتطور البلاد المعاصر . ورغم أن الكتاب البرازيليين في جمهورتهم أسهموا اسهاماً واضحاً في بلورة رؤية جديدة للشخصية البرازيلية . فقد كان القمع الشديد الدائم الذي يتعرض له المتمرّدون منهم وعظمة السجون ، واللوان الارهاب تغطي على من يعملون بجانب النظام السياسي المسيطر ويضعون اقلامهم في خدمة أهدافه . ولن نجد مثل هذه الجمهرة في الستينات حين جاءت الدكتاتورية العسكرية الثانية . . . من خلال ذلك كله تفرعت عن حركة التحديث حركة متصلة الجذور بها ، مناقضة في الوقت نفسه لها يمكن ان نسميها بالواقعية الطبيعية الجديدة ، او الواقعية الاجتماعية ، او التجريبية ، او تركها دون اسم ، لكنها تهدف الى :

- تجذير الادب في أرض البلاد ، في طبيعتها الوحشية ، في أرض ماسابي السوداء ، في أرض السرتون التي يشققها الجفاف ، في أرض الكاكاو والبن والقصب والغابات مد البصر . . . يريدون ان يكون الادب اكثر برازيلية . . . تجذير الادب في واقع الناس البسطاء ، بالتصوير السوسيولوجي للشرائح الاجتماعية ، باقتطاع « وثائق » انطباعية عن استغلال الخلاسي في أرض الكاكاو ، وزحف الجائعين من الشمال . . . وانسحاق العمال في آلة سان باولو . . .

- ترك التفكير بالعالمية في الأدب والتفكير بالعكس في « الاقليمي » والبؤس القريب . أو بمعنى آخر البحث في العالمية عن طريق الواقعية الاجتماعية ، لا عن طريق « القيم » الأدبية الساذجة المثالية ، وعن طريق معاشة الجموع المسحوقة لا عن طريق وصفها من الخارج . .

لم يكن الكاتب الذي نصر هذا الخط الفكري-الأدبي أديباً أو شاعراً ، ولكنه عالم اجتماع كرسه البرازيل كلها أديباً بالرغم منه هو : (Gilberto Freyre) . لقد كتب هذا الرجل وهو بعد في الخامسة والعشرين من العمر (سنة ١٩٢٥) « البيان الاقليمي للشمال الشرقي (Manifesto Regionalista de Norte este) مسجلاً فيه اختلافاته مع الحركة التحديثية التي قامت في سان باولو . الروايات التي صدرت في عقد الثلاثينات كانت تستجيب لهذه الواقعية الاجتماعية التي سجل نصرها فريري^(١) في كتابه السوسيولوجي (كازاكرانده اي سنزالا سنة ١٩٣٣) فكانت « وثائق » اجتماعية كما أسماها جورج أمادو وكتبها : وكما كانت روايات جوزيه امريكودي الميدا ، وروايات جوزيه لينز دو ريغو ، وراكيل دي كيروز ، وغراسليا نوراموس ولكن هذه النزعة لم تكن كما هو الشأن في الواقعية الطبيعية القديمة لمصلحة طبقة البورجوازية الثقافية ومن أجلها ، ولكنها كانت نزعة طبقة البروليتاريا الوليدة ، وتجسداً لآلامها . كانت تعبيراً عن شعب بكل ملامحه ونقائضه ومبازله . .

كانت طبقة أسياد المطاحن ، أو مزارع قصب السكر والبن التي سادت البرازيل سياسياً واقتصادياً عدة قرون في الانهيار الأخير أمام ظهور التصنيع والآلية

(١) جيلبرتو فريري (١٩٠٠) ولد في ريسيفه في أقصى شمال البرازيل ويعتبر كاتباً يعمل في السويولوجيا والانثروبولوجيا أكثر منه عالم اجتماع . رفض كل الكراسي الجامعية في بلده . واكتفى ببعضها خارج بلده ، ولفترات مؤقتة . تسلم الوزارة فترة . كتابه : (البيت الكبير والكوخ) ترجم إلى عدة لغات وطبع عدة طبعات .

الزاحفة . وظهرت طبقة جديدة تقوم على ارسقراطية المال ، لا على امتلاك الأرض والعبيد . وقد صور الأدب ، في واقعيته الطبعية الجديدة ، هذا التحول المتزايد السرعة ، وانسحاق « البروليتاريا » المتزايد معه . فبينما كان أبناء الطبقة القديمة ملايزلون يتشبثون بأرض فقدت قيمتها ، و « بيوت كبيرة » خرسق فيها الموسيقى لهجرة الأولاد إلى المدن ، ومطاحن انطفأت نيرانها ، ووقفت دواليبها ، وتساقطت الجدران ، تحت ضغط النباتات الاستوائية الوحشية ، كان العمال من الأقنان يفرون من المزارع إلى المدن . وقطاع الطرق ، ورجال العصابات يتكاثرون على السبل ، والعمال الخلاسيون يتسكعون ، ومدعو القداسة والنوبة يحملون المباخر ويدجلون على البسطاء . والآلة تقترس الأوصاحي الجديدة . والجوع يزحف بكل مكان . ومنظومة أخرى من العلاقات الاجتماعية تظهر . .

وتبلورت بهذا الشكل مدرسة « باهيا » ، مدرسة الأدب في الشمال الشرقي للبرازيل ، وظهرت معها الرواية على أنها العنصر المركزي في الأدب البرازيلي . لكن تبلورها وظهر الرواية رافقتها بالضرورة الظاهرة الإقليمية . لم يكن أدب كل البرازيل هذا الذي ظهر ولكن أدب إقليم منها . وحين مارس ذلك الآخرون ، في الولايات الأخرى الجنوبية خاصة ، انتجوا بدورهم أدباً إقليمياً آخر . وبهذا الشكل ظهرت مدرستا الشمال الشرقي والجنوب في الرواية ، كانت الفروق بينها واضحة . الشمالية تمتد أنظارها إلى الريف المعذب وآلامه ، وأما الجنوبية فركزت الأنظار على المدينة . الأولى اعتمدت صورة المجتمع البطرياركي الأبوي الذي تفشى في الشمال ، مملكة الملاكين الكبار المنهارة ، ومعاصر القصب والطواحين التي يأكلها الغبار والنبت الوحشي ، والبيوت الكبيرة ، والاكوخ الخادمة لها . وقد سمح ذلك في الجنوب باتخاذ الموقف الروائي النقدي أو الهجومي في الغالب . وانفتحت الكتابة على واقعية في الأوضاع المدنية المهنية ، وفي التعبير اللغوي ، وتنوعت المواضيع ، فتناولت الأحداث العابرة

الراهنة . غراسيليا نوراموس روي في ذكريات السجن (Memorias de Cacere) حياته تحت حكم جيتوليو فارغاس . وفتحت هذه المذكرات الطريق واسعاً ضمن أدب فقير في هذا النوع . على أن المدرستين اتجهتا إلى الأدب الملتمزم ، الأدب المكافح . في سنة ١٩٤٠ كان هذا الضرب من الأدب هو الطموح الأدبي الكبير . بعد أن فشلت الجمهورية في اسبانيا في حرب استمرت أربع سنوات (١٩٣٦ - ١٩٣٩) ، وكتب همنغواي : لمن تفرغ الاجراس ؟ كما كتب بابلونيردا « اسبانيا في القلب » ، وكتب جورج أمادو سيرة القائد الشيوعي لويس كارلوس بريستس . وكتب روايات الكاكاو مثل غويابا (١٩٣٥) ، وكرسها للنضال الاجتماعي الثوري . وقامت من حول هؤلاء جبهة من الكتاب في باريس ، في لندن ، في نيويورك ، في الأرجنتين والبلاد اللاتينية تكتب في الخط نفسه . وجاءت الحرب العالمية الثانية ، رغم بعد ميادينها المدمرة فنصرت . وتكرس الأدب الملتمزم مدرسة الأدب الاولى . ودخل ذلك في صلب الأدب البرازيلي منهجاً من المناهج الاساسية المكونة ولو انه كان يسارياً ، وكان أحياناً ثورياً ..

لكن الكتاب سرعان ما توسعوا في فهم الالتزام . فاصبح لايعني الالتزام السياسي فحسب ولا الثورة أبداً ، ولكنه يعني الانتماء شبه الحيادي إلى خط من الخطوط كالاتزام الديني مثلاً ، أو الفكري ، أو اليميني أيضاً . . اعتبر الالتزام حافظاً للعمل الادبي ومبرراً له تحت تأثير الكتاب الكبار في الآداب الاوروبية . غيمارايش روزا وضع التزامه في الكاثوليكية ، وقلد توماس مان . آمادو وضعه في الشيوعية وغوركي . آخرون كان همهم البحث عن طبيعة هذا الكائن الغامض . وكيف قذف به إلى العالم وما مصيره ؟ الوجودية الفرنسية اخذت تكتسحهم . فكان الالتزام عندهم يعني الابداع الادبي . والغنيمة هي غنيمة شعرية أكثر عمقاً !

وتطورت الرواية « المدنية » في النوعية وفي الشأن . وإذا كانت أحياناً تأخذ شكل رد فعل جدلي على رواية الشمال الشرقي ، كما جرى خاصة في كتابات أوتافيو فاريا (Ottavio Varia) الكاتب اليميني ، والمتصلة بأزمات الضمير ، وبمشاكل الدين في اطار الطبقات الاجتماعية ، فإن أعمال لوسيو كاردوسو ، وكورنيليو بينا ، أخذت الخط نفسه من الاتصال مع القيم الكاثوليكية ، لكنها وضعتها في عوالم من التخيل تصلح اطاراً للمشاكل والأزمات الحميمة الخاصة !

هل كان هذا كل شيء ؟ الواقع أن ثمت خطأ ثالثاً قام على منتصف الطريق بين اليمين واليسار ، بعيداً عن قسوة الواقعية الاجتماعية وعنفها الثوري ، بعده عن الاسى والتمزق الانفعالي السلبي . هو خط ماركيس ريبيلو ، جوان الفونسوس ، سيرودوس آنجوس ، وكلهم في الأصل ، مثل السابقين من المناطق الوسطى الجنوبية التي تطيف بالريودي جانيرو . .

وثمت خط رابع أيضاً - وليس تنتهي الخطوط - هو خط الراديكاليين في أدب الجنوب « المدني » . هؤلاء كانوا يهتمون بعدم التوازن الاجتماعي اهتمامهم بالمشكلات الشخصية . ومع أنهم كانوا واضحي الطابع في وصف أصول بيئاتهم الاجتماعية إلا أنهم لم يكونوا عبيداً للاقليمية الضيقة . ارادوا أن يكون أدبهم برازيلياً صميمياً فقط . كان هذا حال ايريكو فيريسمو ، وديونيليو ماشادو ابن ولاية ريوغرانده دل سول . لكن هذه النزعة غابت بالتدرج . ماتت لأنها تركت الرواية عائمة في الفضاء ، ولأنها اهتمت بالشكل ، وجهرة الأدب على الانتفاء إلى أسرة أو أخرى ، وعلى الاهتمام بالمحتوى أكثر منها بالشكل .

على أن اهتمام الكتاب في الاربعينات بالتجديد في المواضيع ، وبالبحث عن الواقعية الطبيعية أكثر فإكثر، وعن « برزلة » الأدب أنساهم أنهم كانوا يقومون في الوقت نفسه بالثورة في الأسلوب . وقد كانوا - دون أن يشعروا - الرواد في هذه الثورة . كانوا يطورون طرائق جديدة في الكتابة . مستفيدين من الحرية التي

كسبها أنصار التحديث في العشرينات . النزعة الطبيعية لدى ايريكو فيريسمو (Verissimo) ، التحديث في اللغة التقليدية لدى غراسيليانو راموس (Ramos) ، أو ماركيس ريبيلو (Ribello) ، النثرية الصدامية المتفجرة لدى ديونيليو ماشادو (Dionilio Machado) ، استخدام العرض الشفوي لدى جوزيه لينز دوريجو (Do Rigo) ، استخدام القصيدة والشعر وعدم التسلسل في الانشاء لدى جورج آمادو هي كلها أمثلة على هذا التيار والأسلوب المجدد .

إن الوضع السياسي الراديكالي لمعظم هؤلاء الكتاب هو الذي جعلهم يبحثون عن حلول لا أكاديمية ، أو ضد - الأكاديمية ودفعهم للانضمام إلى اشكال التعبير الشعبية . لكن هذا نفسه جعلهم أكثر وعياً بإسهامهم الايديولوجي منهم بعلاقاتهم الرسمية . وبهم قويت حركة تمزيق الادب التقليدي وتفكيك القصة والرواية . ومن هذه الناحية فقد مارسوا في الاربعينات المهمة نفسها التي مارسها ماريو واووزالدو اندراده في العشرينات .

٤ () الاقليمية والهوية البرازيلية :

مع النزعة الواقعية الاجتماعية فرضت الاقليمية بالضرورة نفسها . سعة البرازيل ، والتباين الكامل في أقاليمها ، وشروط حياتها ، وتنوعاتها العرقية ، وتجمعات السكان المتباينة فيها ، وتباين التراث الحضاري والاجتماعي لهؤلاء واولئك ، كل ذلك جعل البرازيل « برازيلات » ، وجعل كلمة البرازيل أشبه بالعباءة الواسعة تضم كل شيء ، وفيها من كل فاكهة زوجان . واستلهم الواقع البرازيلي كان يعني بصورة آلية ظهور الاقليمية . ومن ذا الذي يستطيع أن يستلهم في آن واحد الغابة الأمازونية الأبدية ، ومآسي السرتون المميت ، وجوع الخلاسين ، وزراع الكاكاو ، وغابات قصب السكر وملحمة الغاووشو ، رعاة الجنوب على الخيل ، وفواجع الآلة الضخمة الرهيبة في سان باولو . . . ؟ . . . كان

لابد من « الإقليمية » ليكتمل التجذر والصدق . وهذه الإقليمية ليست حديثة في البرازيل . إنها نزعة قديمة في جميع البلاد المستعمرة ، كان الأدب يبحث عن هويته القومية . وفي البرازيل أخذ البحث عن الهوية الوطنية بالضرورة شكلين متميزين يتمثلان في التيار الإقليمي من جهة ، والتيار المدني من جهة أخرى . ولكنها يستهدفان فكرة واحدة هي الاقتراب أكثر فأكثر من فهم البرازيل . ومنذ استقلال سنة ١٨٢٢ الذي يتوافق مع الأدب الرومانتيكي جاءت موجة الهنودة (Indianismo) ، التي تمجد بشكل خيالي سكان البلاد الأولين (الذين استؤصلوا) على أنهم الأجداد الاسطوريون الرائعون . ثم نجد هذه الإقليمية في المدرسة الطبيعية التي ازدهرت ، قبل حركة التحديث ، في ولاية ميناس جيرائس مع أ. ارينوس ، وفي داخلية سان باولو مع مونتيرو ولوباتو ، في تيار يمكن أن نسماه مدرسة السرتانيجو كانت تغنى (بالكابوكلو) الفلاح ضد مدني الساحل . وأخذ هذا الاتجاه شأناً أكبر في أواخر القرن الماضي لأنه اعتبر نوعاً من الانفصال الثقافي عن أوروبا ، ونظر إليه على أنه أكثر برازيلية بسبب تأثر المدن بالتيارات الأوروبية . لكنه فقد سمعته في مطلع القرن العشرين حين سقط في تصيد الواقع ، واخذ لهجة العاطفة الابوية والاشفاق . . .

لكن بحثاً جديداً أصاب الإقليمية مع أعمال الواقعيين الاجتماعيين بالذات حين بدأها باحث ، من ألمع وأقوى الباحثين السوسولوجيين الذين أخرجتهم البرازيل ، هو جيلبرتو فريري (Gilberto Freyre) بكتابه الذي كان له وقع الهزة الأرضية في الأوساط الفكرية والأدبية يوم صدر سنة ١٩٣٣ تحت اسم (Casa grande e senzala) . لكنه ما انفك يزيد في الاثر عمقاً وسعة حتى اضحى منذ الاربعينات الكتاب الكلاسيكي الأول في البرازيل .

في هذا الكتاب الضخم الذي يزيد على ٥٥٠ صفحة درس فريري الصفات العامة للاستعمار البرتغالي للبرازيل ، وتكون مجتمع زراعي عبودي وخلاسي .

ثم درس الوجود الهندي في تكوين العائلة البرازيلية ، والمستعمر البرتغالي في أجداده ، وفي استعداده ، ثم الرقيق الأسود وحياته الجنسية ، وتكوين الأسرة البرازيلية على ضوءها . و وراء هذا الهيكل المبسط العام دراسة جد متميقة للعلاقات بين العروق الثلاثة التي تشكل البرازيل ، وجد معقدة لتصلبها واختلاطها المتماذي جسدياً وفكرياً واجتماعياً . كل ذلك في عرض واضح تلقي فيه الموهبة الادبية بالدقة العلمية ، والتحليل السوسيولوجي العميق بالنظرة الواسعة الشاملة ، وبالتفاصيل الواقعية الأخاذة ، مما يجعل من هذا الكتاب العلمي ملحمة مثيرة رائعة . يقول عنه الباحث دارسي ريبيرو « إنه أعظم الكتب البرازيلية ، وأكثر البحوث برازيليةً على الإطلاق . . . إنه حدث في الثقافة البرازيلية . . . ومع أن الاكاديميين لم يسامحوه على جرأته الجارحة ، وذكره بعض المصائب الاجتماعية الدارجة (ومنها عادة Despique) القديمة (اي تبادل الزوجات بين الاصدقاء ، تبادل النخز او الثأر) « إلا ان الكتاب علمنا ان نتصالح مع أسلافنا الخلاسين ، والزنوج ، والهنود ، والمهاجرين الذين كنا نخجل منهم ، ونحتقر تصرفاتهم المسكينة . هذا الارستقراطي استطاع بذكائه ودراسته ودقة فهمه أن يعين البرازيل أكثر من أي شخص آخر على أن تعي خصائصها ، وخاصة منها الخصائص الغريبة الرائعة . إن فريري هو مثل ماكونايما (بطل رواية اندراده) هونحن جميعا ! وقد نستطيع الاستغناء عن كثير من بحوثنا ورواياتنا حتى عن أحسن ما كتبناه ، ولكننا لانستطيع الاستغناء عن (كازاكرانده) لأن جيلبرتو فريري قد اسس فيها على نحو ما ، أو على الأقل قد صور البرازيل على المستوى الثقافي كما فعل سرفانتس مع اسبانيا ، ودكامونيس مع البرتغال ، وتولستوي مع روسيا ، وسارتر مع فرنسا . . . »^(١) .

(١) في المقدمة التي كتبها لطبعة كتاب فريري في مكتبة (Ayasucho) في كاراكاس - فنزويلا وقد نشرت المقدمة في البرازيل في كتاب دارسي ريبيرو نفسه (Insaio Insolitos) ص ٧٢ وما بعد .

هذا « الحدث في الثقافة البرازيلية » كما شهد بذلك جورج آمادو، ايضا و « الحدث المتفجر المحجومي » كما قال عنه آخرون يناقضون فريري في العقيدة السياسية ، ولكنهم يحترمون الكتاب بحثاً وفكراً ولغة كل الاحترام ، استطاع أن يجمع أطراف الاقليميات المتباعدة في خط واحد هو « البرازيل الواحدة أم المتناقضات . وان يجتثها من الجذور بكشف اختلاط العروق والتقاليد حتى الخرافات ، في ملامح البرازيلي الأبيض أينما كان ، هادماً بذلك - ودون أن يقصد - الأسس التي تقوم عليها الاقليمية لاقامة برازيل الخليطة الواحدة . ولنسرع الى القول أن الاقليمية في البرازيل لم تعد تعني الانفصال ابداً ولكن تعني السباق في ادعاء المزيد من التبرزل . فهي رغم التناقض الظاهري تتكامل مع الهوية الشاملة ، وان كانت تجربها الى جانبها . وبهذا الشكل ساعدت الاقليمية على ايضاح الهوية البرازيلية الواحدة بدل تمزيقها . الارادة الواحدة ارادة التوحد ، خلقت البرازيل من خلال جميع متناقضاتها الطبيعية والعرقية والاجتماعية والحضارية .

لهذا لم يكن صعباً بعد الحرب العالمية الثانية ، وحتى أوائل الخمسينات ، تصفية الإقليميين الأولين ، وبعث الرواية المدنية البرازيلية متخلصة من آثار سنوات العشرين والثلاثين . قد يكون كتاب مطالع الخمسينات أقل قوة من سابقهم . هذا واقع لا ينكر . ولكنهم وطدوا مكانهم في الأدب البرازيلي ، وثبتوا ، بمعنى من المعاني ، المستوى المتوسط للنتاج الأدبي . ومالم يكن من قبل أكثر من ظاهرة استثنائية أضحي هو العادي .

لكن من الواقع الذي لا ينكر أيضا أن مظاهر الإبداع العالي كانت أكثر فاكث ندرة من بعد ، والأقلام أقل تألقاً . ومحل الاقليميين (الذين استمروا على اي حال في الانتاج) لم يظهر من يحتل أمكتهم نفسها . لم تظهر كتب أوروايات ذات وزن كما في كل فترات الأدب البرازيلي . الخط البياني لم يهتر كثيراً بين الخمسين

والستين .

صحيح أن كاتباً مثل دالتون تريفيسيان أبدع ، من خلال القصص القصيرة القاسية ، ميثولوجيا حقيقية لمدينة كوريتيبا (قرطبة) . لكن الكتاب الباقي لم يلمعوا لمعان الإقليميين الأولين إلا في النادر منهم . عثمان لينز نكص عن الواقعية الكلاسيكية منذ مطلع حياته الأدبية ليصبح روائي القلق الوجودي . وما انفك يجدد في هذا النهج حتى وفاته (سنة ١٩٨٠) فرناندو سابينو يقدم في رواية (اللقاء المميز) (O Encontro marcado) (سنة ١٩٥٦) يوميات المراهقة ، ويلعب بمستويات الواقع المختلفة . اوتولارا ريزندا (Otto Lara Rezenda) يطبع رواية قريبة من روايات برنانوس في جوها العام لكنها تراجيدية ، مبتدلة ، ليغيا فاكوندس تليس (Lygia Facundos Telles) تبلغ الرشد الأدبي سنة ١٩٥٤ في روايتها (Girande de Pedro) ، وروايتها مثل قصصها القصير تصل غاية الشفافية في الأسلوب ، وتعكس رؤية ثابتة ومجردة للموضوع واحد من هؤلاء كان كاتباً إقليمياً هو (Bernardo Ellis) أما الباقي فلم يكونوا يأتبون بالأمكن والعادات رغم أنها كانت تنطبع واضحة مشهودة في قصصهم ، أو يحدون أنفسهم ايديولوجيا في الروايات

قلائل أولئك الذين تميزوا بخط خاص مثل عثمان لينز الوجودي . من هؤلاء موريو روبيان (Murillo Rubian) صاحب مجموعة قصص (O ex magico) (الساحر السابق) التي نشرت سنة ١٩٤٧ . لقد أدخل إلى البرازيل أدب العبث . واللامعقولة الشاذة . كان اللامعقول حتى عهده يدخل في باب الغنائية كما في (O incade de Vento) (ابتداء الهواء) لها نيبال ماشادو وهو كاتب في الغاية من الارهاق . تشكل في مدرسة التحديث وعرفت اعماله منذ سنة ١٩٤٠ . أما موريو روبيان فقد زرع في قصصه النوع اللامعقول باندفاع خاص عنيف . وفتح بذلك طريقاً جديداً ندر في الناس من لاحظته في وقته . لكنه مالبت فيما بعد أن اصبح مدرسة لها الحواريون والسالكون والمريدون .

اثنان فقط من كتاب هذه الفترة قفزا إلى الصف الأول من كتاب البرازيل ،
 واثبتا نفسيهما بين الكلاسيكيين الكبار ، هما : غيمارايش روزا ، وكلايس
 ليسيكاتور . لكن قفزتهما كانت في أواخر الخمسينات وإن بداها مبكرين . الأول
 في سنة ١٩٤٦ حين طبع مجلداً من أقاصيصه المحلية (Sagarama) ، وتوقف
 حتى سنة ١٩٥٦ حين طبع روايتين أخريين كانتا سبب شهرته . والثانية كلايس
 ليسيكاتور التي طبعت سنة ١٩٤٤ أول رواية لها (Cerca du Coracao)
 (saivage) ثم اتبعتهما بروايتين أخريين حتى سنة ١٩٤٩ ، وتوقفت بسبب
 الزواج والسفر حتى سنة ١٩٦١ حين عادت إلى الكتابة . . .

وهكذا فالاثنان يعودان في الواقع إلى الفترة التالية فترة ما بعد ١٩٦٠ .

وعلى أي حال فإن الاهتمام بالهوية البرازيلية كهوية خاصة للبرازيل ، وابرار
 هذه الهوية في الأدب تميزاً وتحدداً كان هم الجميع زمنياً طويلاً . ولكنه لم يعد مع
 الأيام بالهم الوحيد ، أو على الأقل لم يعد مفهومه مقصوراً على معالجة الواقع
 البرازيلي المحدود ، بل توسع ليشمل شطحات الفكر كلها . ماكان مقتبساً منها
 عن الغرب . أو كان محلياً . وقد اندرج هذا الهم ضمن تيارات الأدب البرازيلي
 المتنوعة ، وشكل أحد الروافد والمسارات الأساسية فيه . ولنذكر أن تداخل
 الأجيال وتراكبها بعضها فوق بعض هي السمة الدائمة في الأدب كما في
 الفكر . . . ما من شيء يموت منها فجأة ولا يولد فجأة ، وإنما هو النضج المتصل
 مقابل الذبول المتصل .

٥ (الادب المعاصر

(الرواية منذ الستينات) :

العشر الستيني كان قلقاً في مطالعه بالبرازيل ، كثير الاضطراب . في
 انتخابات رئاسة الجمهورية . حمل المرشح « المقشة » رمزاً له يريد تكريس

الفساد . وقد عدلوا نظام الحكم ، ومنحوا السلطة لرئيس الوزراء حين تسلم الرئاسة جوان كولار ، وبدأت الشعبية الفوضوية تتجذر بارتياح حتى ارتفعت البورجوازية ، والقوى الامبريالية . واستطاعت تدبير انقلاب عسكري في ٣١ مارس سنة ١٩٦٤ اعتمد على القمع الوحشي . ومالبت الحكم العسكري أن تحول بعد فرض الدستور سنة ١٩٦٨ إلى الدكتاتورية ، وإلى القمع المفترس الذي استمر يحكم قبضته على البلاد حتى سنة ١٩٧٩ حين هدأت الموجة ، وبدأ أن القبض العسكرية قد استنفذت قواها وبدأت في التراخي . وقد انتهى الحكم العسكري بعد خمس سنوات بعودة الديمقراطية إلى البلاد .

في البدء كان غولارد ذا تذوق كثيف للثقافة الشعبية ، ولديه الرغبة في أن يعبر الشعب عن تطلعاته ومطالبه ، من خلال المسرح والقصيدة والسينما والرواية والتربية . لكن الانقلاب العسكري خنق ذلك كله تدريجياً . وقد حدثت محاولات للتمرد ، لكنها في اغلبها فوضوية هدامة ذات ضجيج وجعجعة دون طحن مثل التروبيكاليزم (حركة خط الاستواء) . والواقع أن الهزة كانت أعمق من ذلك وتتعلق بالتطورات الاجتماعية - الاقتصادية الجذرية التي كانت تقلب المجتمعات كلها في اسسها والتي عبرت عن نفسها ، في البرازيل ، كما في غيرها ، بحركات الطلاب سنة ١٩٦٨ والمطالبة بتغيير كل شيء في العادات ، وفي التسلسل الهرمي للمجتمع ، وللسلطات باحثة البحث المهووس ، عن مواقف جديدة . . . جديدة حتى الجنون ! . . . لكن التصعيد في القمع الدكتاتوري العسكري استمر واستمر بالمقابل ضده الرفض العنيد حتى الثمانينات . وقال الأدباء ، (من وراء الرقابة والسجن والقضبان والنفي والرصاص) ما يريدون قوله وبمختلف اللهجات . . . إن عشرين سنة من القمع العسكري كافية لجعل القاعدة الفكرية البرازيلية بركاناً أو كالبركان . حناجر الكتاب في الداخل اضمحت ملحاً ، وأما خارج البرازيل فأضحت مرارة كلها حتى اللعنة .

جيل الستينات إلى الثمانينات هو جيل القمع ، لذلك فهو جيل الرفض ، أن الوقت نفسه جيل الملل من كل القديم ، ولذلك فهو جيل البحث عن طريق جديد . وهم في ضيقهم بالواقع السياسي المكبوت يحاولون اختراق جدار الأدب إلى مجهول جمالي لا يعرفونه ، إلى أدب فني آخر يحاولون بناءه من الحطام الأدبي الفني ، الذي عايشته الأجيال الماضية حتى اليوم ، والذي يتحطم تحت مطارق العصر التقني - الإلكتروني الذي يسحق الجميع بمبتكراته وبسرعته الحارقة ! ... نقيمتهم على الواقع السياسي - الاقتصادي يلقونها ؛ في عملية اسقاط كاملة ، على الأدب ، ويحاولون من خلاله بناء عالم آخر . . للهرب أم لوضع أسس جديدة ؟ لست تدري !

إن انقلاب سنة ١٩٦٤ في البرازيل ولو أنه كان انقلابا سياسيا إلا أنه كان في الميدان الأدبي أيضا حدا فاصلا ما بين جيل الحرب العالمية الثانية والخمسينات ، (المتهم بالأسلوب والمضمون وبالأدب الاستيطاني) ، وبين جيل ما بعد سنة ١٩٦٤ الذي توجه إلى اهتمامات أخرى مختلفة جدا . إنه رفض في جهرته التعاون مع السلطات التي تسلمت الحكم كما تعاون أسلافه في الثلاثينات . ورغم أن الجدل حول التحديث والواقع الاجتماعي والهوية القومية كان قد خبا بعد الحرب الثانية ، إلا أن السلطات والأفلام التي تدور في فلكها أحيته من جديد ، في محاولة منها لايجاد عقيدة رأسمالية تقليدية للبلاد تشكل القاعدة الفكرية للنظام . وقد استعانت على ذلك بطبقة من الفنيين والخبراء ... غطت بهم واجهة الحكم وثغراته . أما المثقفون فانكمشوا على معظم الجبهات . وسرعان ما عرفت السلطات العسكرية أنهم الخطر . وسمتهم بالمخربين وعزلتهم ، وقامت بهجماتها المتكررة عليهم في الجامعات والصحف والمنتديات بحجة « اجتثاث جذور المخربين » . المثات من أساتذة الجامعات والطلاب والصحفيين والكتاب وأهل الفكر كانوا ضحايا هذه الحجة . حرموا من حقوقهم السياسية ، أو من البقاء في البلاد ، أو من الحياة . . . في حين كانت

الرقابة على وسائل الإعلام صارمة ، والسيطرة على الاقتصاد ، وعلى الشارع كاملة ، مما جعل الأصوات الراضية ، أو المحتجة تخفت أو تصمت . . . ريثما تجد الوسيلة للاحتيال على « كاتم الصوت » ! ولعل هذا يفسر لماذا لم تظهر في فترة الستينات كلها إلا بعض الأعمال ذات القيمة . وقد ظهرت بالصدفة أو نتيجة جرأة غريبة . ولم يكن ذلك عن قلة في الكتاب فقد كانت فترة الخمسينات أكثر قحطاً بكثير . وقد تكاثرت عددهم في السبعينات كثرة واضحة ، ولكنه الكبت المطلق !

من هذه الأعمال التي ظهرت كنوع من التحدي ، بشكل أو بآخر ، أعمال انطونيو كايادو (Ant Callado) وهو صحفي ناجح كان يلزم جانب المضطهدين دوماً ، وله مقالات وتحقيقات عديدة في صحف اليرودي جانورو . وقد استطاع أن يجدد الأدب الملتزم بحزم وجرأة نادرين في رواية (Quarup) سنة ١٩٧١ (١) . وكان بها أول مؤرخ ناجح لانقلاب ١٩٦٤ ، أما روايته (Bar Don Juao) التي صدرت سنة ١٩٧١ فتؤرخ قصة اليسار الانتهازي المغامر .

وفي الخط نفسه كتب ايريكو فيرسيمو (Eriko Verissimo) الكاتب القديم ، بدوره خرافة سياسية بعنوان : (Incidente em Antare حدث على) نشرها سنة ١٩٧١ وكتبها بشكل خرافة لأنه لم يستطيع أن يقولها حقيقة عارية . وظهر بعد ذلك ما يمكن أن ندعوه بجيل القمع الذي كانت جبهته العريضة هم الكتاب الشباب الذين نضجوا بعد سنة ١٩٦٤ . والانقلاب . ومنهم (Rene Tapagos) في روايته (Em Camera Lanta) (سنة ١٩٧٧) التي تحلل الإرهاب بوصفه تقنية روائية متقدمة . وقد صادرتها الرقابة فترة قبل أن تسمح بتداولها سنة ١٩٧٩ . ومنهم عدد من الأدباء كتبوا تجاربهم في السجن بعد سنة

(١) ترجمت الى الفرنسية بعنوان بلادي على الصليب (Mon pays em Croix Le Selol 1971)

١٩٦٤ مثل فرناندو كابريرا ، الفريدو سركريس ، فراي بيتو .

وقد ظهرت في الوقت نفسه روايات ترتبط مباشرة بخط القضية الاجتماعية وبالأوضاع الاقتصادية السياسية البرازيلية مثل روايات باولو فرنسيس ، ايفان انجلو ، اغناسيودي ليولا براندون ، كلهم كشفوا تناقض الحياة البرازيلية وبؤسها الرهيب ، وتعقدها ذا الديول والمآسي .

ولكن ما كان يجعل الحياة مقبولة في سنوات الخمسين والستين لم يعد موجوداً في السبعينات ، والاستقطاب السياسي والعقائدي لم يكن على أي حال العنصر الهام الوحيد في صياغة الرواية البرازيلية الجديدة . فهناك عنصر آخر ربما كان أكثر شأناً في توجيهها ، والتأثير فيها هو الفقر المتزايد في الطبقات الدنيا ، وما ينجم عنه من تمزيق لكل القيم ، ودفع بالأيدي الجائعة إلى الضراوة والوحشية في العلاقات فيما بينها نفسها ، أوفيا بينها وبين الطبقات الأخرى . لم يكن ذلك نتيجة سوء استغلال الثروات والبشر فقط ، ولكنه كان نتيجة التراكم المنفلت للناس في المدن . وتنامي الطبقات الهامشية في قلبها ، وعلى الأطراف ، كالفطور المرضية . شعب الفتيان ذوي العيون الغائرة ، والحمالين المتسكعين ، وباعة القطاثر الرخيصة ، والشحاذين ذوي العاهات ، والكسالى الذين يغنون بمصاحبة القيثارة ، والمومسات المرضى بالزهري ، والغسالات المسكونات بالسل والسعال ، والشطار المحتالين ، وزبائن القمار ، وإبناء الحانات ، ولصوص الليل ، والمجرمين ، وأصحاب ضربة السكين ، والأطفال الباحثين عن اللقمة في الرابطة ، وعند سيقان المارة . . . كل أولئك كانت تهبط بهم شروطهم المعاشية إلى اكواخ الصفيح ، والأزقة المخبئة بالتن . منذ أواسط القرن أخذ النزوح من الريف نحو المدن يزداد ، ويزداد معه الاختلال الوظيفي في النمو السكاني لهذه المدن من جهة ، والارتباك في خدماتها الاجتماعية والصحية ، من جهة أخرى ، وفي طرقها ، واستيعابها السكاني ، وفي قدرتها على التموين الغذائي المتوازن .

وأهم من كل ذلك أنه لم تكن لهذه الموجات السكانية التي توالى حتى أواخر السبعينات من فرص عمل في مدن مثل الريودي جانيرو التي تشكو من ضواحيها وسفوح جبالها المملأ « بالفافلات » القدرة والزواج العاطلين ، ولا في سان باولو التي انداحت دائرتها في قطر يزيد على ١٢٠ كم . فقلبها مصنع آلي ضخمة ، وبنيات تنطح السحب ، وطرق معقدة . وأطرافها زنازانات الصفيح وعشش الخشب والعتمة واكياس القنب . .

وفي حين تزداد الديون القومية على البرازيل وتصل سنة ١٩٨٥ إلى ما يقرب من مائة مليار دولار أمريكي ، رغم كل ثروات البرازيل ، فإن الأحياء القدرة الفقيرة تمتد وتتنامى بشكل تستحيل السيطرة عليه لا في التنظيم ولا في الأمن ولا في الخدمات . فلكل مدينة هناك الآن جيشها من الفقراء الحاقدين وأوبئها الفاشية من الأمراض الاجتماعية المتحفزة . فالريودي جانيرو ، وسان باولو وبيلو أوزيرونت ، وبورتو الليغرية ، والسلفادور وريسيه حلبة مفتوحة الآن لجرائم السرقة ، والاعتصاب والقتل المجاني ، والقمار المدمر وسموم الخمر الرخيصة .

هذه المدن المهتدة بالانهيار نتيجة الانفجار السكاني وأنظمة الصيانة الهشة . والمفتوحة للجريمة هي نفسها كانت ميدان أعلام روائي المدن في السبعينات ، ووعي عيونهم الناقدة والحاقدة في وقت معا . هي المادة الخام الغنية التي نسجوا فيها أجراً الاخيلة وأروعها .

على أن هذا النسيج الروائي ليس نقلاً أميناً للواقع . الحلف الواقعي الذي ظل مسيطراً على الرواية البرازيلية أكثر من مائتي عام استنفذ أغراضه . استهلك تماماً . انتج في الثلاثينات خاصة والاربينات آخر ممثليه الكبار . الرواية الواقعية الجديدة قطعت الصلات مع هذا الحلف القديم . . وانصرفت في طريق آخر تماماً . . . فما هي هذه الطرق ، وما أوضاع الأدب البرازيلي المعاصر الآن ياترى ؟

٦) ملامح الأدب القصصي المعاصر

قد يكون من الصعب للملمة أطراف ذلك البساط الأدبي الواسع الذي يترامى اليوم في القارة البرازيلية رواية وقصصاً وانتاجاً متنوعاً . وقد يكون أكثر صعوبة من ذلك وضعه ضمن اقية محددة ، من المدارس والمذاهب . إنه « الكرنفال » الشهير في الريودي جانيرو ، انتقل إلى الأدب فهو زركشات وملابس شتى من كل لون ، وأنماط من الموسيقى ، وجمال زنجي حار ، وهزيج مجون ، وأجساد تهتز بالتعبير ، أي تعبير ، ومواكب بعد مواكب بعد مواكب . . . حتى ينسى الزمن نفسه ، ويستوي الليل والنهار ، والكلمة البديئة مع المقدسة !

الصرخة التي تستبد بالجميع وتذهب بكل شيء ، هي التجديد . الركن المحموم إلى غير المنتظر . الادهاش بكل وسيلة . بحر التيارات الذي يتقاذف الدفة الأدبية والاشرعة والمبحرين ، هو التجاوز إلى المجهول سواء في داخل الذات ، أم في الواقع الاجتماعي الاقتصادي ، أم في التعبير .

هذا الاتجاه ، وما نجم عنه من تيارات مضطربة ، ليس مستقلاً بالطبع عن الفترة التاريخية التي كانت تعيشها الطلائع الأدبية الفنية ، ولا عن معاناتها وأوضاعها العامة في ظل الدكتاتورية العسكرية ، وعسفها القمعي ، ورقابتها الشديدة ، وتصيدها الدائم الوحشي للمناهضين والمتمردين . كل ذلك ينعكس ضمن الأجواء الأدبية ، حركة مزدوجة من الرفض والتجاوز في وقت معاً . وفي حين كان شعور المثقفين بالمعارضة يزداد ويتصلب كانت شدة القمع تدفع إلى الكبت والتمويه ، والكلام « بالرمز » ولعبة التخيل . الطلائع المعارضة الأولى من حركة « الاستوائيين » « الترويكاليزم » سحقت لأنها انطلقت في رفض وحشي ، ونهايي للقيم التقليدية التي تحكم الأدب كالذوق الرفيع ، والتوازن وحسن التناسب والمنطق لكن استمرار الدكتاتورية العسكرية في خطها الرأسمالي الرجعي أدى إلى ازدياد القهر والتعسف في الريف وانتشار العصابات وتزايد

الجرائم في الوقت الذي أدى التراكم السكاني في المدن إلى تفشي ألوان الرذائل الاجتماعية من خمر ، وإدمان مخدرات ، وأمراض ، وقمار ، وبغاء ، وبطالة ، واحتتيال ، واجرام وسرقات . . . وإهمال كامل من السلطات ! . . هذه الهامشية الاجتماعية - الاقتصادية لم يكن لها إلا أن تمزق الضمائر ، وتمس الأعصاب المرهفة للكتاب ، وإلا أن تخلق حاجات جديدة لدى القارئ ولهذا فقد اضطرت الرقابة (رغم تطور أساليبها في السيطرة خلال عشرين سنة) إلى أن تتنازل أكثر فاكثر عن قيودها ، وأن تقبل وصف الحياة الجنسية ، والكلمات البذيئة ، وقصص العنف والفساد ، لا في الروايات فقط والقصص ، ولكن في السينما والمسرح أيضاً والصحف . . . رغم هيمنة النظام العسكري الرهيب ! . . . قبلت ذلك للتنفيس !

وهذا كله قد يفسر ظهور الرفض الشديد في الأدب وظهور ما يسمى « بالواقعية المقترسة » وارتداد الأدباء للرمز . والتخيل المغرق . بل أضحي اللجوء إلى الشاذ ، وإلى غير المعقول هو السائد المسيطر . هو « الموجة » و « المودة » في الرواية البرازيلية (واللاتينية عامة) . وهو الذي يحكم الأذواق الأدبية الآن . والذين يتبنون هذه الموجة هم فريق كبير . (وكانوا يتبنونها قبل أن تصبح موجة بكثير) ومنهم جوزيه جورج فيغا (Jose J. Veiga) الذي طبع سنة ١٩٥٩ (Os cavalinhos de patiplato) مجموعة القصص المتميزة بنوع من السكون المدمر .

صحيح أن كثيراً من المؤلفين ظلوا أوفياء للخطوط التقليدية ، دون اتفاق حولها ، ولكن جبهة الأدباء أخذوا يحرقون القواعد المستقرة ، ويبحثون عن طرق أخرى . منذ ظهر مبدأ التحديث في العشرينات كانوا يبحثون . وقد أضحي هذا البحث نوعاً من القاعدة ، أو لنقل الممارسة العامة . وهذا هو حال الأعمال المكشوفة التي كتبها لويس فيليلا ، الكاتب الحصب الذي بدأ انتاجه سنة ١٩٦٧ .

فإذا أضفنا إلى هذا كله أن الأدب يتجه ضد الكتابة الأنيقة ، وهي الكتابة التي كانت حتى عهد قريب المثل الأعلى للأدب البرازيلي ، وأن الأدباء الآن هم مع أدب يكتب بمختلف طرائق التعبير حتى بالصور وحتى بالكلام المبثذل في الشارع ، وبالرمز وبالحيال (الفانتازي) ، وجدنا أنفسنا أمام أدب من نوع جديد تماماً . التجديد الصارخ هو أبرز ميزاته ، والرغبة في المخالفة هو القانون العام لسدنته . والمجددون يعبرون فيه بطرق ملتوية . من خلال التجربة التقنية عن هذه السنوات المظلمة التي تقدم فيها الأسلوب الجمالي جداً . ولكن زادت المرارة السياسية أضعافاً مضاعفة ، وزاد الظلم الاجتماعي . . . حتى الغثيان الخائق . هكذا أخذت تظهر - وقد ظهرت بالفعل - من خلال كل ذلك ملامح وخصائص الفترة الأدبية الجديدة بوضوح . بدأت تتبلور التيارات المكونة للجو الأدبي . وألوانه الحارة الملتهبة رغم سكونه الظاهر . وهي مذاهب شتى يصعب حصرها . لم يعمل على إيجادها العهد الدكتاتوري وحده ، ولا الواقع الاجتماعي - الاقتصادي معه أيضاً ، ولا الشطحات الفنية للادباء أيضاً وأيضاً ، ولكن عملت عليها كذلك التقنيات الجديدة التي دخلت من الخارج على الناس والانقلاب الهائل في وسائل الاتصال ، والقبضة المتزايدة للإحكام للامبريالية العالمية . . . دنيا جديدة كانت تخلق في الوقت الذي كانت فيه الأفكار تصطرع في تيارات شتى :

١ (التيارات الأدبية الموروثة من الجيلين السابقين من بحث عن الهوية القومية ، واهتمام بالواقع الاجتماعي ، وإصرار على التحديث . ولكنها كانت تدفع كلها بقوة حتى نهاياتها . . . معظم الكتاب الذين ظهروا في هذه الفترة كانت تتملكهم الرغبة في أن يكونوا شهود عصرهم . . . وقد ترك ذلك بصماته على اختيارهم للمواضيع ، وعلى أساليبهم ، وعلى الأطر التي يرسمونها للرواية . صار امتلاك الهوية التاريخية ، والرغبة في الشهادة للعصر وتفجير الواقع

الاجتماعي نوعاً من القدر كأنهم يريدون إثبات وجودهم في وجه العهد العسكري ، وتسجيل نقائضه في وجهه . وقد أثاروا الجدل حول الهوية البرازيلية لا على طريقة جيل الثلاثين الساذج الذي ربط هذه الهوية بهوية الأراضي الريفية في الأجزاء الخلفية من البلاد ، ولكن بشكل جديد ، يقوم على الغوص في الذات البرازيلية نفسها وكشف عقدها ومآسيها من الداخل .

٢) الالتزام الذي كسر طوق القضية السياسية ، وقيد العبودية للواقع الاجتماعي ، وصار التزاماً بالابداع الأدبي فقط . وما تهدف إليه الكتابة هو الوصول إلى موقف شعري أعمق . كل ابداع جمالي هو في الوقت ذاته التزام أدبي ، لأنه التزام بالجمال . لا الثورة تم ، ولا المجتمع ، ولكن التقيد بالجمال فحسب . والتساؤل الراديكالي إنما يكون عن الكتابة في ذاتها ، وعن اللغة وعن الشطحة الفنية ، لا عما تحمل من ثورة ، أو عن صلتها بالشقاء اليومي ، أو بآلام المجتمع .

٣) محاولة التجاوز لكل أدب وجد من قبل . جوع حارق إلى الجديد أخذ يعشش في الأعلام ويثيرها . ينشدون الجديد في الأسلوب ، في العرض ، في الحدث ، في التعبير في اللغة . . . في كل شيء . وقطعوا الصلة مع التقاليد لايجاد تقاليد أخرى على مقدار كل طموحاتهم . حاولوا اختراق جدار الأنواع الأدبية ، ومزج الشعر بالنثر والموسيقى والصور . . . عبروا عن ثورتهم بالاندفاع ضد الواقع الاجتماعي الاقتصادي ، وعن عزلتهم بخلق عواملهم الخاصة الرفضية . أعجزهم مواجهة الواقع فأخفوا الأفكار بالرموز من جهة ، وبالتخييل (الفانتازيا) من جهة أخرى . قبلوا التنوع والتناقض وعدم الترابط في العمل الأدبي باعتبارها أنواعاً من التبرزل (برازيلداد Brasilidade) اليس التنوع والتنافر والتباين من خصائص الشخصية القومية ؟

٤) الاهتمام بالبرازيل ، بمآسيها المزروعة بكل مكان ، بالوعود التي لم

تتحقق ، بالمشكلات الاجتماعية - الاقتصادية التي ترهقها حتى العظم، بناسها الذين تلاحقهم النكبة من الهندي البدائي في المجهل الأمازونية إلى عامل مصنع الطائرات في سان باولو، ومن الزنجية بائعة الحلوى في باهيا إلى الغاووشو الراكض على الحصان وراء القطعان في ريو غرانده دل سول . على أن هذا الاهتمام لم يأخذ شكل الإقليمية من جهة ، ولا شكل الوصف الواقعي من جهة أخرى ، ولكنه كان غوصاً في أعماق الشخصية البرازيلية ، ومحاولة لتجسيدها ، وكشف عواصفها والهواجس ، ودبيب الأعراق والدماء . ولم يعد هناك برازيلات عديدة ، ولا حتى برازيلتان اثنتان واحدة ريفية داخلية فقيرة ، وأخرى مدنية ساحلية غنية . علاقة الطرفين قائمة . وفقر الريف في الداخل شرط لغنى المدن الساحلية . والدورة السببية بين الطرفين كاملة . هناك إذن برازيل واحدة ترابط حداها الأقبصيان ترابطاً لا انفصام له . إنها تتعذب أو تغني أو تحلم . وإنها لتتعذب بآلام مختلفة ، كما تغني بافراح شتى ، وتحلم عديد الأحلام

٥) قطع الصلة مع التقاليد . لا مع فنون القول والبلاغة البرتغالية التي اهترأت فحسب ، ولكن مع اناقة النص ، وجماليته التقليدية ، ومنطقه المحبوك ، ولغته المهذبة . انه ادب ضد المواصفات الفنية - الثقافية السائدة كلها ، ضد منطوق القصص وتسلسلها حسب التقنيات المتعارف عليها للأحداث ، والأوصاف والتوازنات . وأخيراً - وليس آخراً - ضد القواعد الاجتماعية المستقرة . الكلمات النابية التي لا يسيغها المجتمع كثيراً ما ترد في هذا الأدب الروائي حتى كأنها عقيدة مناهضة للقيم العامة المقبولة ، أو كأنها محاولة لاستكشاف مكونات اللغة المحرمة .

هو أدب رافض لكل شيء . أنسميه أدبا ؟ قد يكون وقد لا يكون حسب قدرته على الصمود والابداع المتصل . ولكنه على أي حال لا يكشف عن اقتراحات اجتماعية أو سياسية محددة ولكنه رفضية مستسرة ، ضمنية دون ارتباط

واضح بأي ايدولوجية .

٦) ما سماه الناقد البرازيلي انطونيو كانديدو(*) : « بالواقعية المفترسة » وهي بذلك النوع الجديد من الانتاج الأدبي البرازيلي الذي يعتمد على « ما وراء الواقع » دون حد ، ويكتبه أدباء لديهم قابلية غير عادية لالتقاط الفني من بين الأحداث ، وقدرة على استخدام التقنيات الحديثة بما يطورونه أو يبتكرونه من الوسائل والاساليب . وهذا ما يفعله اثنان من معلمي القصة الكبار الآن في البرازيل : جوان انطونيو الذي نشر مجموعته القصصية الأولى (Malqueta Perus e Becanacus ولكن تحفته الرائعة (Paulinho Perna Torta) التي نشرت سنة ١٩٦٥ ، والتي حاول فيها أن يحقق بشكل مميز تطلعه لنثر يندمج مع كل مستويات الواقع نتيجة تدفق المونولوج فيه ، والغاء الفروق مع اللغة المحكية ، وركض الحديث الذي يجر الفكر ويضعه في مواجهته مع عالم الجرم والعهر . أما الثاني فهو روبين فونسيكا (Rubem Fonseca) الذي يهاج القارئ بعنف موضوعاته وتقنياته المقامة على الكائن والحدث ، طارحا حلولاً متناوية حسب اهواء الرواية ، في حديث ذاتي حميم تتوحد فيه الحكاية مع روايتها تمام التوحد .

هذان الكاتبان يمثلان (في مستوى عال جدا) الاتجاهات البارزة الآن في « الواقعية المفترسة » اوفي هذه الاتجاهات نرى كتابا آخرين مثل : اغنياسيو دي ليولا الذي أنجز رواية Zero سنة ١٩٧١ * وطبعها سنة ١٩٧٥ . بعد ان طبعها

(*) اخذنا هذه الفكرة والفكرتين التاليتين في هذا الفصل ، كافكار عامة ويتصرف عن محاضرة لانطونيو كانديدو في مؤتمر الأدب الأمريكي - اللاتيني الجديد الذي عقد في واشنطن سنة ١٩٨٢ تحت رعاية مركز وودرو ويلسون العالمي . وكانديدو هو أشهر ناقد برازيلي معاصر . بالإضافة الى أنه مؤرخ وسيوسولوجي يدرس في جامعة سان باولو حتى تقاعد سنة ١٩٨١ . وقد نشرت أقسام من محاضراته في « المجلة الأدبية » (سبتمبر ٨٢) .

بالإيطالية ، لأنها منعت في البرازيل ، ولم تسمح بها الرقابة إلا سنة ١٩٧٩ . ولنا ان نتساءل فيما إذا لم يكن هؤلاء الكتاب ورفاقهم الآخرون يخلقون بهذه الطريقة نماذج أدبية من نوع خاص تصدم في المستقبل قراءهم أكثر فاكثراً . وفيما إذا لم يكن نجاحهم ناجماً في جانب منه عن أن الموضوعات التي يقدمونها ، والمواقف وطرائق الكلام الخاصة تؤثر على قارئ الطبقة الوسطى !! . .

وعلى أي حال فهم مجددون لأنهم وسعوا المجال الأدبي كل التوسعة . كتاب الرواية في سنوات ٣٠ و ٤٠ جددوا في مادة المواضيع والمفردات مطورين دمج الشكل الشفهي في الرواية المكتوبة . أما هؤلاء الكتاب المعاصرون فقد ذهبوا أبعد من ذلك حين اتجهوا إلى توسيع الخطاب نفسه ، لكنهم على أي حال لم يبلغوا بعد المستوى العالي الذي وصله تجديد الكتاب الأولين السابقين .

٧) تحطم الأنواع الأدبية والفنية وخلطها بعضها ببعض . لم تعد الرواية مفصولة عن الشعر ، أو السينما ، أو المسرح ، أو التصوير . لقد ظهرت نصوص ومطبوعات أدبية لا يمكن أن توضع في إطار أدبي محدد . روايات لها جو « الريبورتاج » ، وأخرى لا تستطيع تفريقها عن القصائد ، أو عن التاريخ ، أو اليوميات ، وثالثة مزروعة بالإشارات ، أو بركام من الصور . وسير ذاتية تتبنى تقنيات الرواية ، وقصص على شكل مشاهد المسرح ، ونصوص مقتطعة من مصادر شتى مزروعة بعضها بجانب بعض ، أو وثائق وذكريات وتأملات من كل نوع تحمل اسم الأدب . وذلك دون الحديث عن رواية السينما وقصص المسرح ، والأوراق المتلفزة التي تزداد شأناً يوماً بعد يوم وتفرض نفسها . . . وهل نستطيع ان ننكر كم وجد الخيال الأدبي في السينما والتلفزيون من مجال ؟ ومن قناة مميزة وخاصة بعد ظهور السينما الجديدة التي أضحت من العادي فيها أن يتصور المخرج القصة ، ويكتب النص وسيناريو الفلم ؟ ألم يحقق كثير من الروائيين أنفسهم على هذه الطريقة كما حققها الشعراء الذين اختاروا الأغنية أمثال (Venitius)

(Morales) (١٩١٣ - ١٩٨٠) شاعر الحياة كما يسميه زميله الشاعر كارلوس اندراد ؟ لقد تلقى الخيال الروائي ، وامتنع مختلف التأثيرات ، واساليب التعبير من تأثيرات الصحافة السريعة ، والتطور المدهش للمجلات ودرويات الدعاية إلى أعمال السينما والتلفزيون ، والأشكال الشعرية التي ظهرت منذ سنة ١٩٥٠ وخاصة الشعر المجسد . . . كان هذا كله مركز الأعصار الذي هز بعنف العادات الذهنية ، وبخاصة لاستناده إلى تأملات نظرية غاية في الحدة وفي التشدد .

٨) هجر المواضيع الكبيرة . لم نعد نرى في الجو الأدبي تلك السلاسل من الروايات ، ولا الثلاثيات التي يكمل بعضها بعضاً حول موضوع معين . الرغبة في التجربة وفي التجديد اضعفت الطموح إلى الابداع الضخم بمقدار ما دفعت إلى التركيز على صياغة كل نص صياغة محددة . صارت من الماضي روايات قصب السكر (Cycle das C.S.) التي كتبها جوزيه لينز دوريجا (وهي خمسة عناوين) ، وتلك الملاحم الخصبية من روايات باهيا (NoVeles de B.) التي كتبها جورج آمادو (ستة عناوين) ، وتلك اللوحات الضخمة التي كتبها (Ottavio de Faria, Marquez Rebello, Erico Verissimo) وسيطرت الأقصوصة والقصة القصيرة في الأدب وفي السوق . . . الأدباء صاروا يستجيبون للقارئ الذي يطالب بنص محبوب يتناسب مع الوقت اليومي القليل الذي يتيسر له ، في اطار نضاله ضد السرعة ، وضد النسيان ، وضد مشاغل الحياة الأخرى ، وأخيراً ضد اغراءات التسلية والتقنية الحديثة السهلة . صارت وسائل الأدباء أشبه بالرواسم تسيل بين أيدي أكثرية من القراء لا تبذل من الجهد سوى أن تتبع الحديث وتنقل « المودة » .

٩) توسيع مجال الأدب كل التوسعة لافي العمق ولكن في الشمول . لم تصبح السير الذاتية ، ولا التاريخ فقط ، انواعاً من الأدب ، ولكن اصبحت تشمل

أيضا كتاب السوسولوجيا (علم الاجتماع) والسينما بل الأنثروبولوجيا أيضا .
لقد ضموا جميعا إلى عالم الأدب . وقد يكون ذلك نوعا من طلب الجديد
والغريب . ولكنه الواقع الذي صار مقبولا بعد أن كرس منذ الثلاثينات دخول
جيلبرتو فريري منتصرا عالم الأدب . . . لهذا - على ما يبدو - لم تعد أحسن
انتاجات الأدب البرازيلي المعاصر من صنيع كتاب الرواية أو من الشعراء ،
وليست أبدا كتب روايات أودواوين شعر، ولكن كتبا علمية متقنة ، كتبها من
الأدب والعلم بينيين . ونعني بذلك كتبا مثل (Malra) الذي كتبه دراسي ريبورو
سنة ١٩٧٦ ، وتحول هذا الانثروبولوجي الممتاز ، والباحث الممتاز ، والمؤلف
العلمي ، من بعده ، إلى كتابة الرواية . وكتب روايتين هما غوص لا سابقة له وفي
العالم الهندي المنسي . كما نعي أعمال أعظم نقاد السينما البرازيلية باولو أميليو
سالس (P. Emilio Salles gomes) الذي كتب مؤلفات تحلل شخصيات
جوان فيكو (Joao Vigo, Humberto Mauro) . وكتب وهو في الستين من
العمر ثلاث روايات طويلة تتحدث عن علاقات حب معقدة ، في لغة نادرة
الحرية والمفهوم ، وفي تحديث جاد لاذع وأسلوب كلاسيكي شفاف ساخر يذكر
باساليب كتاب القرن الثامن عشر الفرنسي . وضمن هذا الجو نفسه نجد
مجموعة أقاصيصه (Tres Mulheres de tres P.P.P.) التي كتبها سنة ١٩٧٧ .
ونجد المجلدات الأربعة التي طبعها (Pedro Nava) باسم مذكرات
(Memorias) وهو الطبيب المشهور . فعرفت الضجة الكبيرة والنجاح القوي
بسبب طابعها التحليلي العلمي على منهج (في البحث عن الزمن الضائع)
للمارسيل بروس .

١٠ نتيجة لذلك كله ، أو مرافقا لذلك كله ، تغير التعبير الأدبي التغير
الجلدري . دخلته تقنيات جديدة ، ووسائل شتى بجانب تغير اللغة الأدبية
نفسها . رطانة اللغة الدارجة دخلت منتصرة إلى صلب العمل الأدبي مع فضيحة

اللغة الجنسية والبديهة . عري لغوي كامل هذه «الأمانة اللغوية»القاسية التي أضحت من سمات الرواية البرازيلية الجديدة ، لاعلى أنها الأدب المكشوف ، ولكن على أنها « الأدب » . وفي روايات جوان انطونيو سجل حافل من هذه الكلمات والمصطلحات « السوقية » . الروائي فونسيكا صاغ دفاعا نظريا علميا عنها . وحتى أولئك الكتاب الذين لا يستخدمون اللغة النابية والجنسية يستخدمون قواعد لغوية تنتمي إلى لغة الحديث الدارج ولغة الشارع .

على أن القاسم المشترك بين معظم الكتاب هو رفض الالتزام بأسلوب واحد ، أو طريقة من التعبير ثابتة . فهم يتنقلون بين الأساليب . وقد يدخلون عليها الصورة والموسيقى والشعر والرمز والمونولوج الداخلي ورصف النصوص واحدا بعد الآخر في غير نظام ، إلا المنطق الداخلي الذي يريدون الانحاء به ! . . . ولعله لهذا أضحي الرمز، وأضحى التخيل (الفانتازيا) ، من أكثر الاتجاهات الأدبية المعاصرة رواجاً . ولعل ذلك من أثر السينما والتلفزيون والتصوير الذي باعد بين الأدب وبين وسيلته التقليدية في الكلمة ، وخرق عليها تفرداها القديم . وثمت (على أي حال) أثر أقل فسوة وجذرية هو أثر كلاريس ليسبكتور التي يبدو أنها كانت السابقة في تدمير الأسلوب التقليدي لذلك فرضت نفسها في مطالع الثمانينات . واعانت كتاباتها على ظهور الاتجاهات التي تكسر اطار الوصف العام لحساب المحيط ، وتهمل النظرة الشاملة لتراكم التفاصيل المفرطة في الدقة . . . ومن هنا جاء انتاج النصوص الرتيبة في ما يسمى « بالرواية الجديدة » لدى الكتاب ، إنها كانت الرائدة المجهولة التي نجدها بخاصة لدى عدد من الكاتبات أمثال نيليدا بينون « Nelida Pinon وماريا أليس باروسا Maria Alice Barrosa » .

إن الناقد البرازيلي انطونيو كانديدو يلخص الوضع الحالي للأدب في بلاده قائلا : « إن هذا الوضع يعطي الانطباع بأنه يبذل الكثير من الجهد ليخرج من

التقاليد ، ولهضم ويتمثل الوسائل الأخرى الحديثة ، ولیمارس أشكالاً من التعبير جديدة لدرجة أننا أصبحنا نفضل عليه بعض الأعمال الأدبية التي ألفت دون اهتمام بالتجديد ، وخارج نطاق الانتباه لأي تيار معين ، ودون مبالاة « بالموءة » ، ولا تتجواب حتى مع عمل روائي حقيقي . أهى صدفة ، أم هى مقدمة لتيار جديد ؟ ما من أحد يعلم ولكن الواقع يدخل القلق إلى النفس وهو من الدقة بحيث يستعصى على البحث النقدي .

٧ (الشعر حتى الستينات

حين نصل الشعر البرازيلي المعاصر ندخل مباشرة في التيه دون بوصلة ولادليل ، ولاخط يرسم الطريق ، ندخل في الغابة الأمازونية الجمالية حيث يكون حتى للعواء ، وهسيس الفهود ، ولاوركسترا الهدير والحفيف ، ولتكسر الغصون ، ورهبة العتمة ، أدوارها المعبرة ومعانيها . . . واجهد بعد ذلك كل الجهد أن تخرج من ذلك البحران الغريب المليء بالايحاء . إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الفهم الصحيح أبداً . فثمت دوماً في هذا الشعر ما يخلق ، وثمت دوماً ما يموت ، في عملية جدلية هندسية يشترك فيها أعمق التراث لديك مع تفكيك الألفاظ إلى الحروف ، ويلتقي فيها على مستوى واحد الصورة السينمائية ، والتركيب العنيف لما وراء اللغة .

هل نتكلم بالألغاز ؟ قد يكون . فمن أجل أن نفهم الشعر البرازيلي المعاصر يجب أن نلقي عنا المنطق الشعري القديم كله . وأن ننسى حتى الأبجدية الشعرية التي نعرف جميعاً . ونبدأ بتعلم أبجدية جديدة للشعر ومنطق آخر لتركيبه . . . لكن لنبدأ القصة من أولها !

التجديد الشعري في البرازيل ظهرت أول حركاته الجذرية في العقدين الأخيرين من القرن الماضي . في ذلك الحين شمل التجديد أمريكا اللاتينية

جميعا . لكن لم يتبعها الشعراء البرازيليون جميعهم . الطلائع منهم فقط هي التي تبنت ما عرف بالمدسة البارناسية (الفرنسية الأصل) التي حملها معه من فرنسا البرتودي اوليفييرا كوريا (A. de Oliveira Correa) (١٨٥٧ - ١٩٣٧) ، واولافوبيلاك (١٨٦٥ - ١٩١٨) (Olavo Bilac) ، أمير شعراء البرازيل في عهده ، وصاحب قصيدة صائد الزمرد (O Cacador de esmeraldas) (١٩٠٤) .

قبل أن ينتهي القرن ، ظهرت الجماعة الرمزية التي تابعت مدرسة فيرلين ومالارميه . وكان نجم الرمزيين الكبير في البرازيل هو جوان دي كروز آي سوسا (Joao de Cruz Y Sousa) (١٨٦٣ - ١٨٩٨) ، ديوانه (Borqueis y Mis saís) الذي صدر سنة ١٨٩٣ أحدث ضجة واسعة في عهده ، وإن خبا تألقه بعد ذلك ، لأن الرمزيين الآخرين لم يستطيعوا أن يساندوا الخط الذي رسمه كان الخط على أي حال تقليداً عبّر المحيط من الطرف إلى الطرف الآخر ثم انقطع . ويجب أن نتظر سنة ١٩٢٢ ، وصرخة التحديث التي انطلقت في سان باولو من متحف الفن الحديث لنبداً التاريخ لشعر برازيلي بحت . شعر هو من تراب الأمازون والبارانا وباهيا ، ومن دم الزنجية والهندي والخلاسي الذي امتزج بذلك التراب ! . . ودعا جماعة التحديث إلى مراجعة كل القيم الفكرية والأدبية مراجعة كاملة من الجذور . وتوجه التحدي إلى اللغة السائدة وإلى قواعدها نفسها . لم يكن للغة البرتغالية لديهم أي حرمة تمنعهم من مساسها ، أو زعزعة أركانها . - كما في العربية - لهذا لم يتمتع ماريودي أندرايه (أحد قطبي التحديث يومذاك) عن طرح مشروع من اشد مشروعاته الثورية جذرية وهو البدء في تطوير نحو برازيلي خاص ، يعتمد على لغة التحديث العادية للبرازيل ، ويبعد عن اللغة التقليدية المتقكرة في غرب ايبيريا البرتغالية . كان لا يريد فقط الحرية اللغوية ، ولكن يريد أيضا اضعاء الاحترام الثقافي على الجملة

الشعبية ، وإدخالها منتصرة إلى الجوانب الأدبية المعترف به . النقاء « الكلاسيكي »^١ هو الذي كان يثيره . وهو الذي جرح بهذه الحركة الجرح الأول ، كان في خلفية أذهان التحديثيين أن في تراث الزنوجة من جهة ، وفي مفردات الهندي من جهة أخرى ، ما يكفي لجعل اللغة الأدبية البرازيلية لغة كاملة وبرازيلية حتى الصميم في وقت معاً .

وفيما بين ١٩٢٢ - ١٩٢٥ تقاذف كل من ماريو اندراد واوزوالدو آندراد كره التحديث بينهما . كلاعبين أساسيين على المسرح الشعري والنثري . كانت حركتهما متأخرة في الزمن فقط عن الحركات الأمريكية - اللاتينية في التحديث ، لكنها كانت أبعد منها جميعاً في المرمى . وبينما كان ماريو آندراد يصدر شعره الحديث في (باوليثيا الهاذية) سنة ١٩٢٢ ثم يتبعه ببحثه عن شعر التحديث في (الجارية التي ليست إيسورا) سنة ١٩٢٥ شطح أوزوالد العنيف المزاج فأصدر ما نيفستو (بيانه) المتفجر بالو - برازيل سنة ١٩٢٤ ، ثم أعقبه بشعر بالو - برازيل (١٩٢٥ - ١٩٢٧) ثم بيان (أكل لحوم البشر) سنة ١٩٢٨ .

وحركة التحديث ولو أنها كانت شعرية - نثرية في الأساس ، إلا أنها برزت أكثر ما برزت في أعمال هذين الشعارين . كانت حركة تنظير جديد للشعر بالإضافة إلى أنها حركة تحد للقيم السائدة في الفن . وقد تميزت خاصة عند أوزوالدو باستخدام اللغة المكثفة ، أو القصائد - الأقراص على حد قوله نفسه ، ولكن في لغة حية إيحائية ، وبصيرة ناقدة غنائية عارية ، بينما استخدم ماريو لغة أقل عرباً ، لكنها أكثر صورا وإيقاعات ، واشد قرباً من لغة الشارع والناس

هكذا فالثورة التي حطمت ، في أوروبا ، الشكل الواقعي الرتيب ، في التصوير والرواية والشعر وحولته أشكالاً تكعيبية ، وخطوطاً سورريالية ، وصدام بقع لونية ، وصلت الكتابة الجمالية فمست النثر جزئياً ، وأصابته الشكل

الشعري فدمرته ، واكتسحت ، حين وصلت البرازيل ، الشكل والمحتوى ولغة التعبير جميعا في الشعر والغت حتى حدوده . وفي حين ادخلت تقنيات بناء القصيدة في الرواية أدخلت الرواية على الشعر فلم يعد ثمت شعر ونثر ولكن مواقف تُرى وتحلل في نظامها اللفظي الخاص .

على أن حركة التحديث كانت الخطوة الأولى في هدم التقليد « الشعري » ولغة الشعر . لم تعد هناك لغتان : واحدة تقريرية وظيفتها المعرفة والتواصل ، وأخرى شعرية وظيفتها الإيحاء الجمالي ، اختلطت الوظائف لتحل إحداها في الأخرى ، وفي أمريكا اللاتينية عامة يتجاوب الناس مع الهزة الشعرية ، يتدفق الشعر تلقائيا بينهم ، ويظهر بين حين وآخر الشعراء العظام . كل ذلك لأن الطبيعة اللغوية تساعد على التأمل الشعري وتمهد لصوره ولموسيقاه وإيحاءاته ، وساعدت موجة التحديث على رواج الشعر فزادت دواوينه ، وظهر في ميدانه شعراء ذوو مكانة هامة شكلوا فترة من الميع فترات الشعر البرازيلي منهم : روي ريبيروكوتو (١٨٩٨ - ١٩٦٣) (Rui Ribeiro Couto) واوغستو فديريكو سميث (A. Federico Schmidt) (١٩٠٦ - ١٩٦٥) وسيسيلييا ميريليس (C. Meireles) (١٩٠١ - ١٩٦٤) على أن أبرزهم (وهو من الباقين الأحياء) هو كارلوس درموند اندارده (١٩٠٢) وجورج دي ليمّا (G. De Lima) (١٨٩٣ - ١٩٥٣) الذي ألح على الموضوعات « المحلية والاجتماعية - كما فعل بابلونيرودا - فأضفى قيمة شعرية على أسرار اللغة الهندية ، والايقاع الزنجي ، وملاحم الأحياء المختنقة بالبشر . وهو صاحب القصيدة الخالدة اختراع اورفيوس (Invencao de Orfeo) .

وأخيرا جوان كابرال دي ميلونيتو (J. Cabral de Melo Neto) (١٩٢٠) في شعره العميق الدقيق المتأثر كل التأثر بكارلوس أندراده ، وموريلو مندش رغم أنه يدين كثيراً لبول فاليري . . . هؤلاء هم أساتذة الشعر البرازيلي

السابقين ١

على أن من العدل أن نذكر أن هذه المجموعة من الشعراء الكبار لم تكن نتيجة حركة التحديث وحدها . فقد حدثت أحداثها خلال الثلاثينات ، وخبا الجانب الأكثر هجومية وعنفامها . ولكن بقي من إنجازاتها مامنحته هؤلاء الشعراء من طرائق الشعر الحر ، واللغة الدارجة ، والغناء القافية ، وحرية الابتكار المجازي ، والتجربة السورالية . ثم ما لبثت حركة التحديث كلها أن نسيت بعد أن دخلت إنجازاتها في التكوين الشعري العادي . وغطى عليها « جيل سنة ١٩٤٥ » بالمدرسة « البارناسية الجديدة » . وكانت هذه المدرسة في جديتها البعيدة عن العاطفة وإيثارها الرصانة والأسلوب الكلاسيكي ، وكمال الشكل ، نوعا من ردة الفعل التي ختمت حركة التحديث ، ومنذ سنة ١٩٤٠ اتضحت معالم هذه الموجة الجديدة التي ظهرت ، في الوقت نفسه ، في أمريكا اللاتينية كلها ، بعد الحرب العالمية الثانية . وبالرغم من أن القليل من الملامح المشتركة يقوم بين هؤلاء الشعراء ، فإنهم يشتركون في صفة أساسية واحدة هي أنهم نصبوا أنفسهم شهود عصرهم ، جعلوا قصائدهم شهادات على عالم ظالم ممزق ينتحر . أصداء الحرب وفواجعها كانت تنعكس في صدورهم بقدر انعكاس المآسي الاجتماعية التي يشهدون حولهم ، فيصرخون ويصرخون ! ... من هؤلاء : أقطاب الشعر المعاصر فينيسيوس دي مواريش (١٩١٣ - ١٩٨٠) ، ومانويل بانديرا وموريلوفندش ...

على أن بجانب هؤلاء الشعراء « البارناسيين الجدد » جماعات طليعية أخرى بعضها يقوم بردود فعل ضد جوانب معينة من التحديث ، لتصحيح ما يراه من التجاوزات والعيوب في التكوين الشعري . ويسمى هؤلاء أنفسهم بالمبتجاوزين للحدثة : (Ultramodernismo) . وبعضها الآخر أكثر جرأة يصير أصحابها على تطوير اتجاهات التحديث في الابداع الفردي ، وفي حرية الفنان ، مهما كانت

التسائج . ويتسمون بشعراء ما وراء الحداثة ، أو ما بعدها (Pasmodernismo) . فأين انتهى بعد هذا كله ركب الشعر ؟

قبل أن نتحدث عن الشعر المعاصر قد يكون من الهام أن نسجل ملاحظتين :

الملاحظة الأولى :

عن الشعر الحواري الذي يمارسه الكثيرون الآن بعد ان كان مهجورا . وقد أضحى يشكل جزءا هاما من الابداع الشعري ذاته . ولا نقصد به المسرحية الشعرية بل اختلاط الديالوج بالمونولوج الشعري وإدخال صوت آخر ، أو أكثر على صوت الشاعر في القصائد . وقد استخدمه جوان كابرال ميلو نيتوليحيكي بالشعر قصة ضحية من ضحايا الجفاف الدوري في الشمال الشرقي . وحكايته تحكى ولا تغنى فقط . وفيها يتلخص بوضوح ودقة ثورين وكثيفيين كل الموضوعات التي اكتشفتها الروايات والأفلام عن الشمال الشرقي للبلاد . وشرحتها بتفصيل شديد ، وإن لم يكن بالفاعلية الحيوية نفسها . وقد حولت هذ القصيدة إلى لوحات غنائية ولحنت من جانب (تشيكوبواركي دي هولندا) وهو من أكبر المخرجين الغنائيين .

الملاحظة الثانية :

تتعلق بشعر الغاوشو^(١) . فهذا الشعر يملأ جنوب البرازيل . وهو زجل شعبي اسباني اللهجة ، يتكون من أبيات ذات ثمانية مقاطع يغنيها الغاوشو

(١) الغاوشو كلمة تطلق على سكان جنوبي البرازيل وشمال الأرجنتين ، ويسمون أيضا « الماراكاتوس » والكلمة الأولى آتية في الأغلب من الكلمة الهندية (كاتشا) ومعناها جوال . وأما الثانية فاختلفوا في أصلها ، وأغلب الظن أنها من كلمة مراکش . فهؤلاء السكان فرسان سمر يعيشون على رعي البقر في سهول الباميا الشاسعة ، ويتميزون بالشهامة ، والقرى ، والمروءة ، والغيرة على العرض . ولهم زيمهم المميز وعاداتهم الخاصة ، ومنها الانشاد الجماعي ، والغناء الشبيه بالمواويل الاندلسية ، وشرب نقيع (الماتي) الشبيه بالشاي .

كالوال . وله موضوعاته ومشاهده الخاصة . وأول من كتبه وغناه هو بارتولوميه ايدالغو (١٧٨٨-١٨٢٢) في مطالع القرن الماضي . وهو من الاورغواي . ثم ظهر عدد من الشعراء الغاوشو، كما ظهرت بعض القصائد الضخمة المميزة ولعل خوسيه اراندز (Hernandez) أبرزهم . وكان نائباً وصحفيًا . وهو صاحب قصيدتي : « الغاوشو مارتين فييرو » ؛ « وعودة مارتين فييرو » ، الأولى تحكي تمرد هذا الرجل على الحضارة ، وتحوله إلى سكير قاتل شرير ، والثانية تحكي على لسانه وهو عجوز يتذكر حياته ، حين لجأ إلى الهنود ، ثم عودته لأرض البيض . لكن البطل الغاوشو يظل في الحالين نقي السريرة ، متمسكا بشجاعته وتمهديه . وشعر الغاوشو في البرازيل جزء من هذا الشعر المشترك مع الأرجنتين والأورغواي وهو مهمل فيها لان لهجته اسبانية .

يجب أن ننتظر إلى ما بين أواخر الخمسينات ، وأوائل الستينات لتظهر حركة شعرية جديدة ، أو لنقل لتظهر حركات شعرية تجديدية ، وتأخذ مداها وتدخلنا في التيه والضباع ...

٨ (الشعر المعاصر والشعر المجسد

بعد سنة ١٩٦٤ تبلور في البرازيل جيل واسع من الشعراء ملأ الساحة لأدبية ، وجعل زعامة الشعر الأمريكي اللاتيني ، وجماليته الأولى في البرازيل . وإذا كان الاسم البارز الأول في الشعراء هو كارلوس دروموند اندراد (١٩٠٢) الذي يدخل الآن الرابعة والثمانين من العمر ، فإن الأجيال التالية تثبت شأنها في الساحة ، ولها جماهيرها في مجتمعات ماتزال تهتز للشعر وتغويها الغافية . وقد برزت في أواسط الستينات جماعتان شعريتان : جماعة فيريدا (الدرب Veredas)^(١) وبراكشيس (الممارسة Praxis) شنتا غارات التتر على الجماعة

(١) هذه الكلمة عربية الأصل آتية من كلمة يريد بالمعنى القديم للكلمة .

الثالثة التي اكتسحت الجو الشعري ، والتي غرقت بالشعر المجسّد (كونكريت) (Concrete) وبالرغم من النفس التجديدي المستمر الذي يعيشه شعراء الجماعتين ، ومن محاولاتها تقديم الرائع من الأجواء الشعرية فإن أنصار الشعر المجسّد كسبوا الجولة لأنهم كانوا « مسودة » العصر . . . هجمات الجماعتين استهدفت مختلف المحاولات التجريبية التي تسعى إلى جعل اللغة الشعرية ملتصقة بالعصر ، وإلى تجديد البنى الشعرية التي أفادت في التعبير عن رؤى واقعية جرى تجاوزها ، وإلى كسب جماهير اعتبرت أن شعراءها تخلوا عنها . هذه الهجمات كانت نوعا من رد الفعل الحي ضد ممارسات طوعية وقعت في أحابيل الشكل الشعري . يقول الناقد الشاعر افونسو رومانودي سانتانا (Afonso Romano de Sant'Anna) : « ليكن واضحا منذ البداية بالنسبة لنا نحن الأمريكيين اللاتين ، برازيلي سنة ١٩٦٤ ، أن الطليعية ليست مرادفة للقفز الأعمى فوق الهاوية ، ليست لعبا ، ليست نهالكا على العدم ولا وسيلة خرقاء لاذهال البورجوازيين . إن ما نريده هو العكس تماما : تجنب الادعاء ، الاقتصاد في السادية الثقافية ، الهروب من المونولوج ، البناء بدل الهدم . ولا يرضينا أن نكون مجرد انعكاس للضرورة الصناعية البورجوازية ، بل بالعكس فإن كوننا طليعيين يعني أن علينا التأثير في الأزمة ، استيعابها ، اختزلها إلى معطياتنا الخاصة ، تجاوزها ، وعدم الاقتصار على تلخيصها تاريخيا . . » (١) .

هذه الغارة القاسية إنما كانت بهذا العنف لأنها كانت تحاول إيقاف الانتشار المذهل للجماعة الثالثة جماعة الشعر المجسّد . فما هي ماهية هذه الجماعة ؟ وما الذي تفعله في الجو الأدبي ؟

في سنة ١٩٥٦ ومن متحف الفن الحديث أيضا في سان باولو انطلقت صيحة

(١) عن بحث صراع الأجيال لآدولفو بريبيتو (Adolpho Prieto) المنشور في كتاب أمريكا اللاتينية في آدابها ص ٤١٧ (من الطبعة الاسبانية ١٩٨٢) .

هذا الجديد الشعري ، مرة أخرى بعد صيحة التحديث الأولى سنة ١٩٢٢ ولكنها انطلقت من جماعة سميت نفسها جماعة نويغاندرز^(٢) (Noigandres) ثم حملت من بعد اسم : ابتكار (Invencao) ولم تكن الصيحة على أي حال بنت وقتها ولكنها كانت نهاية تطور اختمرت عناصره قبل ذلك . ففي سنة ١٩٥٠ كتب ديسيو بيغناتاري (Decio Pignatari) أحد أعضاء الحركة مستكراً التعبير الشعري الشائع قائلاً : « أميل إلى الاعتقاد أن الشاعر جعل من الورق جمهوره ، وجعله متمشياً مع صورة انشاده ، واستخدم كل الوسائل الكتابية والطباعة ، بدءاً من وضع النقاط حتى رسم الحروف (الكاليفرام) ليحاول نقل القصيدة الشفهية إلى القصيدة المكتوبة بكل ظلالها . . . »^(٣) . حركة الشعر المحسوس جعلت ههما بالعكس من ذلك تماماً وهو : أن تعطى بعداً عملياً جديداً لتحويل تقنيات الشعر المنظم المكتوب والطباعي نحو الشفهية ! ولكنها الشفهية المصحوبة بكل ما توفره التكنولوجيا الحديثة من إمكان موسيقى وتصويري !! . .

المحاولة قد تبدلونا ساذجة ، وأحياناً هي من المبالغة واللعب بين بين . ولكنها في الواقع أسس فكرية منطقية ، ومدرسة ذات مناهج وتجارب واتباع ، وأهداف مباشرة ، وأخرى بعيدة ، ولها إلى هذا وذاك جمهور واسع يعمل عليها ، وآخر أوسع منه بكثير يلتهم انتاجها ، ويتذوقه على غرابته ، وعلى الصعوبة والجهد في

(٢) الاسم مأخوذ عن التروبادوري البروفسالي : أرنو دانييل عن طريق عزراباوند الشاعر الأمريكي في نشيده المشهور . ومعنى الكلمة فيه الكثير من الغموض . ولعله لهذا استعارته هذه الجماعة الشعرية .

(٣) عن مقال هارولد كامبوس - تجاوز اللغات الخاصة - بحث في المرجع السابق ص ٣٠٠
(Harold de Campos. (America Latina en su literatura, Ed. IUESCO, Superacion de los lenguajes exclusivos p. 300 (1982) وعنه أخذنا بعض المعلومات الأساسية في هذا البحث حول الشعر المجسد بوصف هـ . دي كامبوس ثالث ثلاثة من أقطابه .

فهمه ومصاداته .

وجد الشعر المحسوس في أكثر من مكان من أوروبا وأمريكا اللاتينية وفي أزمنة متقاربة من مطالع الخمسينات . حاوله كارلو بيلولي (Carlo Belloli) في إيطاليا ، واوجين غومرينجر (Eugen gomringer) في سويسرا ، واوفند فالستروم (Oyvind Falstrom) في السويد . وفي البرازيل . مع الأخوين : أوغستو وهارولد دي كامبوس ومع ديسوس بيغناتاري (D. Pignatari) . وقد لا يكون من باب الصدفة أن يكون السويسري مولوداً في كاتشويلا في بوليفيا من أم بوليفية ، وأن يكتب بالاسبانية قصائده المحسوسة الأولى ، وأن يكون السويدي قد عاش السنوات الثلاث الأولى من حياته في سان باولو . لكن مما لا شك فيه أن العمل الحاسم في انتشار الشعر المجسد عالمياً إنما كان في البرازيل قبل أن يخترق الثقافة العالمية كاللهب في ببادر الحصاد .

وجد البرازيليون في أسلافهم التحديثيين ، أصحاب (بالويرازيل) (الانثروبوغاين) الركائز الأولى لأفكارهم . وإذا كانت عزلتهم البرازيلية اللغوية قد منعتهم من نشر أفكارهم وتجاربهم الشعرية خارج البرازيل ، كما حددت استفادتهم العميقة الواسعة من تجارب الآخرين في هذا الشعر ، فإنها لم تمنعهم من استحضار شعر باوند ، وجيمس جويس ، وكمينجز (E.E. Cummings, J. Joyce, Ezra Pound) ، ولا من الملمة تجارب اويدوبرو (شاعر شيلي) المبعثرة ، وتنظيم فوضى أفكاره والمسيرة فيها إلى شكل أكمل واشد تعقيداً . من هذه التجارب ولعلها أبسطها منهج الالتصاق البصري (Collage) . حين ألف أوغستو دو كامبوس قصيدة « العين بالعين » وهي ايضاح تصويري لفظي لهذه الآية . القصيدة هرم من العيون « كأنها الاضاحي الهمجية » لكن تفحص لوحاتها يكشف التعليقات (اللفظية في الأساس) على موضوعها ، وعيون بعض المشاهير تتبادل التأثير مع الأصابع والشفاه والأسنان

لاعطاء أبعاد تتجاوز الأحرف .

- ومثل ذلك تجربة ديسيو بيغناتاري التي استخدم فيها عنوان مجلة لايف للتلاعب بحروفها ، وخلق أجواء من الفراغات والعلاقات الرمزية ، أو تجربته في قصيدته الهجائية لشعار « اشرب كوكاكولا » واستخدامه الألوان والأحرف التي تستخدمها في اعلاناتها ، أو تجربة هارولد دي كامبوس الذي لجأ إلى الألوان في قصيدته (Cristal forme شكل الكريستال) ، أو تجربة الأسطوانات البصرية التي تكتب فيها القصيدة على أسطوانتين تدوران بشكل متفاوت كي تتكاملا في الأداء الديناميكي . . . أو تجربة قراءة الكتاب من آخره إلى أوله ، وقراءة الحروف في الصفحات شبه البيضاء ، أو تجربة الشعر الحوارى لجوان كابريال دي ميلونيتو الذي اراد أن يحكي قصة أحد ضحايا الجفاف الدورى في الشمال الشرقى فحكاها في قصيدة تغنى (Morte e vida Saverina) واصفا فيها ، في كثافة مذهلة ، كل ما استكشفت الروايات والأفلام بتفصيل شديد من شقاء الشمال وآلامه ، وقد حولها إلى مناظر ملحنة المغنى تشيكو بواركي دي هولندا .

ومن مثلها أيضا تجربة تقسيم صفحة القصيدة إلى قطاعات بصرية بحيل طباعية بسيطة ، فسطر مكتوب ببنط صغير ، وآخر ببنط كبير ، وآخر مائل . وتقرأ المقاطع حسب الأسطر فتحصل على قصيدة ، وبالحرف المائل فهي قصيدة أخرى ، وبالحرف العادى فهي ثلاثة حتى تتوحد القصيدة في النهاية في وحدة شعرية واحدة . . على أن التجارب تعقدت كثيرا واشتبكت مع الفنون الأخرى بكثافة غريبة حين أدخلت على القصائد الهندسية للشاعر كابريال دي ميلونيتو مثلاً سينما ايزنشتاين ، ولوحات تشكيلية من مدرسة (انقطاع = Ruptura) التصويرية ، وموسيقى فيبر واتباعه ، كما دخلت على القصيدة قطع من الملصقات ولوحات الدعاية ، والوسائل السمعية والبصرية . واعادت تبني

ماياكوفسكي في دعايته التحريضية وفي « نوافذ روستا »^(١) واستخدام البيانات الأولى في مجال العمارة ، وفي تنظيم الكتاب كموضوع بصري ، ومعرض متنقل لقياس الأفكار !! .

إن أنصار الشعر المجسّد يصرون على أنهم يتابعون قصائد أبولينير المعروفة بالكاليفرام (الخطوطية) ، والتي تبدأ السير في الصفحة كلها ، أو قصائد مالارميه (أبي الجميع) الذي جعل الفراغ في قصيدة « ضربة زهر Un coup de des » يندم كالقافية ، وبالمعنى المزدوج للكلمة . أي الفراغ البصري ، والفراغ الصوتي (الصمت) . ولكنهم وصلوا في التطبيق إلى درجة اعتبار كايثانو فيلوسو (Caetano Veloso) أعظم شعراء الجيل . وكايثانو موسيقى فقط وهو رئيس جماعة باهيا (grupo Bahiano) للموسيقى ! لا يخشون في ذلك الانتقال من مجال إلى مجال في هذا الحكم ، ومن نوع فني إلى آخر ، ومن دائرة الانتاج المحدود المكتوب (الشعر) إلى دائرة الاستهلاك الجماهيري المسموع موسيقى . . . أوغستو دو كامبوس أحد أقطاب الشعر المجسّد كرس لجماعة باهيا جانبا كبيرا من كتابه ميزان الموجة (١٩٦٨) (Balanco da Bossa) وكتب أنهم يستخدمون ما وراء اللغة الموسيقية لاستعراض كل ما انتج البرازيل والعالم من موسيقى ، وخلق وعي فني جديد . أسطواناتهم تجميع موسيقى أدبي يمكن أن يحدث فيه كل شيء . ويكتشف الإنسان بين صدمة وأخرى كيف ينصت بأذان حرة تماما كما كان يطالب (التحديثي) أوزوالد اندارده في جماناته بالرؤية بعيون حرة . ويشير اوغستو إلى أن كايثانو مع رفيقه جيلبرتو جيل (Gilberto Gil) يعيدان إحياء نوع أدبي يكاد يكون ميتا هو الشعر المغنى والشفهي أيضا ! ألم يكن الشعر غناء أيام هوميروس ؟ وأنشادا في الجاهلية ؟ .

(١) نوافذ روستا ملصقات هجومية تحوى مع الكتابة الرسوم ، وكانت تظهر بشكل منتظم ابتداء من أواخر سنة ١٩١٩ على الواجهات بموسكو . وقد كتب معظمها ماياكوفسكي كما رسم الكثير منها . وروستا هي وكالة الأنباء الروسية -

على هذا الشكل من التفكير لا يمارس شعراء التجسيد شعرهم كصناعة فنية فحسب ، ولكن يعيدون أيضا قراءة الشعراء الماضين واكتشافهم . فقد أعادوا اكتشاف الشاعر سوساندراده ، وأعادوا تقويم حركة التحديث ، وردوا الاعتبار إلى اوزوالدو اندراده ، وأبرزوا أعماله في مجال بعيد عنه ظاهريا هو مجال الموسيقى الشعبية ، ونجحوا بتقديم عمله المسرحي ملك القنديل (O Rei da Vela) الذي كتبه سنة ١٩٣٣ لكنه لم يعرف على خشبة المسرح الا سنة ١٩٦٧ (حين تناوله أكثر المخرجين البرازيليين ابداعا) جوزيه سيسيليو مارتينز كوريا) وفرقته : فرقة المكتب . ومن التفسير العنيف الذي أعطاه سيسيليو للمسرحية ، وتحت تأثير بيان أكل لحوم البشر ظهرت جماعة الاستوائيين (تروبيكاليسم) ا

إن ما أعطى جماعة الشعر المجسّد كل هذا النفوذ الشعري الفني هو منطلقاتها الفكرية التي تستند إلى قاعدة نظرية سليمة ، ومقولات محددة فيها الكثير من المنطق ، ولو أن النتائج التي تصل إليها الجماعة إليها تصفع القيم المستقرة وتورث الدوار .

أول هذه المقولات :

فهمها للشعر على أنه فن حركي ، ديناميكي ، وأنه إنما ينتج في الزمن ، وأنه بنية صوتية ، ولكن ابتكار المطبعة هو الذي اخضع هذه البنية للمصفحة المطبوعة مضيفاً عليها طابعا زائفاً من السكونية « الستاتيكية » ومن اللازمية ، ومن اللاصوتية . إذن فلا بد من ادخال التجارب البصرية والسمعية على الشعر لتعود إليه تقاليده الشفهية التي فقدت من جهة ، ولتتحرر بصريا وسمعيا ، من جهة أخرى ، من سكونيته الغريبة عنه ، أي ليكون شعرا ! . . .

المقولة الثانية :

تقبل تحدي التكنولوجيا . لقد فرضت نفسها على العالم ، ويجب أن تتوازي

وسائل العالم معها في التعبير الفني . ويدل الارتداد عن الثورة الصناعية الجديدة يجب استخدامها لخدمة الشعر ، واستعادة سحره العتيق بها ، من خلال السمو بالمكان والسرعة والصعود للتكنولوجيا ، وتحويل الشاعر إلى « مظلي للفراغ الخيالي » - على حد قول أميررودريغس مونيغال - إن التكنولوجيا لاتحد من القوى المبدعة ، بل أنها بالعكس تطلقها في آفاق جديدة كل الجدة لمصلحة العملية الشعرية .

المقولة الثالثة :

إنه لما كان إيصال الشعر - وهو قضية الشعر الأولى - يقوم في المقام الأساسي على نص لغوي ، أي على شكل معين ، فمن هذا النص يجب أن نبدأ توسعة واغناء وأبعادا .

فالمشكلة الأساسية التي يجب معالجتها ليست المحتوى الشعري ، ولكن طريقة الإيصال ووسائطه لكي يعطى النص أقصى ما يحمل . إن الكتاب مات أو كاد . لم يعد الوسيلة المثلى لإيصال الشعر ، أو على الأقل لم يعد الوسيلة « الوحيدة أو المناسبة » وإذا كان موت الكتاب نبوءة مرعبة أو خاطئة ، فمن الصحيح أنه بوصفه موضوعا وآلة قراءة لايقدم سوى واحدة فقط من امكانيات التواصل الأدبي .

المقولة الرابعة :

إنه لما كانت الفنون كلها تنبع من نبع واحد يروي حاجة جمالية واحدة في الذات البشرية فلا معنى بل قد يكون من القصور المؤذي فصل الفنون بعضها عن بعض ووضع الحدود فيما بينها . ولا بد من كسر الأطر التقليدية للأنواع الأدبية والفنية أيضا لتنساح بعضها في بعض وتخرج من ذلك تركيبات جمالية جديدة .

هكذا يطرح الشعر المجسد نفسه على أنه استكشاف لكل الامكانيات اللفظية

للقصيدة ، على أنه تجاوز للتعبير التقليدي للشعر ، ومخاطبة لكل الحواس معا لانتاجه . وممارسة للحرية الخلاقة التي تستعصي على اطار النظرية وتتجاوزها دوما . إنه يوحي بوحدة الفنون عن طريق تألف الاحساس والشكل . هو اقتراب من لغة العصر التي يجب أن تكون خليطا من الحروف والموسيقى والتسجيل المرئي والصوت المسموع . هذا هو الشعر . وبهذا يكون اكتماله .

وهكذا في مذهب « التجسيد » ترك الشعر الواقعية ، وموسيقى الوزن والقافية ، ترك البكاء الرومانسي والعاطفة المشوبة ، ترك الموضوع الشعري كله ، وراح يبحث في سذاجة بلغت حد الهوس ، في التأمل النقدي للأشكال ، وفي الوسيلة التي توصل الهزة الشعرية . تنازل عن دوره الثوري المباشر إلى دور ثوري آخر ربما كان أكثر صعوبة واستعصاء هوفن اللغة ، فن توفيق الكلمات مع الصوت ، فن يسمح للأدب والشعر باستيعاب أنواع فنية من الواضح أنها خارجة عنه ، ولكنها تفيده كالفنون التشكيلية والموسيقى . . . ودفع القارئ بكل وسيلة إلى عملية التركيب ، وفك الرموز ، وتلمس الاستيحاء الكثيف ، والانفعال الفني البعيد ا

ودخل شعراء التجسيد من ذلك كله في تجارب بصرية - لفظية - صوتية لا انتهاء لها ، وفي تحليل للغة واللفظ بالغ الابتكار بحثا عن جماليات شعرية جديدة ، وفي تطبيقات منهجية تكنولوجية التماسا لابداع شعري لم يعرفه الناس من قبل . . . مما جعل البرازيل أكثر بلدان أمريكا ثراء في الفكر الجمالي في السنوات الأخيرة .

إن الشعر المجسّد يلتقي من وراء هذه المغامرة مع الميادين التي انتهى إليها الأدب الروائي القصصي المعاصر ، ومع شطحات السينما الحديثة (Cinema Nova) والمسرح ، وهوس المدارس التشكيلية المتباينة ، والأشكال النحتية التي تحتاج أن يوزع أصحابها معها لفهمها . ولكن لدى مدرسة الشعر المجسّد

البرازيلي طموحاً لا تنكره فهي تطمح إلى العالمية . صحيح أن تاريخها قصير لا يتجاوز العقدين من الزمن ، ولكنها تشدد على أنها سوف تكون عالمية . المنطق الذي تستند إليه يعطيها هذا الأمل . « إننا نحن الأمريكيين اللاتين معاصرون لكل البشر » هكذا أعلن أحدهم ذات يوم ! . . .

فهل تحقق تجارب الشعر المجسد هذه الأهمية الشعرية الجديدة ، وهل ينتج تقارب الفنون ، أو تلاقيها ، أو توحيدها: فن ما وراء الفنون ؟ إن الجواب على ذلك يضع الأدب كله ، كنوع جمالي ، موضع التساؤل ! .



الفصل الخامس

كتاب وشعراء

(١) من الجيل الماضي إلى الحاضر

جمهرة الكتاب والشعراء في البرازيل قائمة طويلة عند الاستقصاء والتعداد ، ولكنها قد تكون بالنسبة لعدد السكان الذي يحوم حول المائة مليون أو يزيد ، قليلة محدودة . الأمية المتفشية من جهة ، وطغيان جانب الكسب المادي على كثرة الناس من جهة أخرى ، بالإضافة إلى تعدد لغات المهاجرين ، وتعدد مجالات الكتابة السريعة أمام الكتاب بين صحافة ، تبلغ عدة مئات ، وإذاعات تتجاوز الخمسين ، وإفنية تلفزيونية ، وسينما ، كل ذلك جعل الكتابة الأدبية الفنية مشروعاً أقل إغراء من غيره ، ومغامرة في المجهول .

وليست المهوبة وحدها هي العامل الدافع لمعاناة الشعر والخيال الفني فإن تنوع الثقافات التي انداحت في تلك الأرض ، أو التي يحملها المهاجرون إليها ، وتنوع الأجواء الطبيعية بين أنهار لا أعظم ، وغاب مظلم ، وجبال تنطح السحب ، ووديان يهرب فيها الصدى فلا يعود ، وقحط حتى لتتشقق الأرض من الجفاف ، وخصب حتى لتندى الأيدي « ونبت في اطرافها الورق الأخضر » ، وفاء لا يعرف الخبز كبيراً ، وجوع لا يعرفه افتقاراً ، واللوان من « السحن فيها جميع ألوان البشر ، من ورائها جميع ألوان العقول ، والطبائع ، والسخائم . . . كل تلك الأجواء المثقلة لدرجة الضياع بما يفوق الخيال ، كانت يتابع وحي ، ومناجم من الذهب لمختلف المواضيع التي يطرقها الكتاب . وإذا شحذوا معظم أعلامهم لوصف الواقع الاجتماعي الأسود ، فلأنه يقتحم العين اقتحاماً بسواده

القطراني ، ومرارة الشقاء الذابح فيه ، ولأنه فاض عن حدود السكوت ومؤامرة الخرس !

ومع اختلاف منابع الاستيحاء للكتاب والشعراء ، واختلاف انتاجهم اختلفت حظوظهم من الذبوع والشهرة ، بعضهم تجاوز المحيطات إلى القارات الأخرى ليصبح الكاتب العالمي المشهور ، فانتاجه يقرأ في أكثر من ثلاثين لغة (مثل جورج أمادو) ، وبعض وصلت حدوده المتكلمين بالفرنسية والانكليزية والإسبانية (مثل غراسيليانو راموس وجيلبرتو فرييري) ، ومنهم من لم يغادر البرازيل ، رغم شهرته وجمال قوافيه والخيال .

ولعل نظرة الطائر التي نمر بها على الأدب البرازيلي تسمح لنا بأن نلم ببعض الاسماء من هنا وهناك . وقد يكون من الصعب أن نقسمهم أجيالاً ، جيلاً بعد جيل ، فما يزال من الجيل الماضي من يعيش في الحاضر ويسايره في العطاء . ولكننا سوف نركز الاهتمام على العقود الأخيرة ، ونفرد المعاصرين ، في الحديث وبعض البارزين .

فأما الشعراء فآلوان :

(مانويل بنديرا) (Manoel Bandeira) (١٨٨٦ - ١٩٦٠) وكارلوس دروموند دي اندارده (C.D. Andrade) هما للمغامرة الثورية ، وللتحرر من كل قيد لغوي أو أخلاقي .

إنما ينشدان فقط الوصول إلى أشكال تعبيرية جديدة تعطي الشعر لغة ، وتعطي (الشعري) اتجاهاً جديداً . وهما يبعثان من أجل ذلك الطفولة ، ومجاهل اللاشعور وملابس الحياة اليومية والعادية للناس . يحاولان من خلال ذلك الوصول إلى « الإنسان الحديث » في علاقته الصميمية ، عاطفة وروحاً ،

مع واقع الحياة الحديثة^(١) .

وهناك (غيليرمي دي الميدا) (Guilherme de Almeida) أشهر شاعر برازيلي معاصر ، (ماريودي اندارده) (Mario de Andrade)^(٢) و(مينيوي ديل بنشيا) (Menotti del Picchia) وهم اللون القومي في القصيدة ، قد رفعوا (الفولكلور) الشعبي وخرافة الزقاق الى مرتبة « الشعري » . كانوا يبحثون عن ركائز شعرية - أوروباً عن ركائز فنية - برازيلية في التعبير الشعري . أرادوا « برزله » . أرادوا إيجاد تعبير يستطيع أن يقف ، لغة وموسيقى وشعراً ، للاستقراطية البارناسية ، وللشيطان الرمزي ، وللزاحفين على جباههم نحو أوروبا على السواء . أرادوه تعبيراً عن الشعب البرازيلي ، يطرد خارج الأبواب ، الاقلية المتفرنجة !

ولقد تكون تلك الحماسة البالغة التي ركضوا بها أول الأمر هذا الطريق قد تطامنت منذ انتهت الحرب الثانية سنة ١٩٤٥ ، كما تطامنت في مجال المعمار والموسيقى والتصوير . ولكنهم على أي حال استطاعوا أن يضعوا بين القيم الشعرية الكبرى بعض القيم القومية والمحلية حين غنوا الهندي ، والفلاح (الكابوكلو) ، وحملة اللواء ، والثقافة الافريقية البرازيلية !

ألم يكن من الشعراء من تمرد على كل هذا الجدد القومي ؟ بلى ! (اوغوستو فريديريكو شملت) (A. Federico Schmidt) صرخ منذ سنة ١٩٢٨ : « لا أريد مزيداً من الحديث عن البرازيل ، ولا مزيداً من الجغرافيا ، ولا من الروعة ! » وانصرف الرجل مع أصحابه ضد الشعر الذي يستلهم « التكنيك »

(١) سوف نعود مرة اخرى الى كارلوس دروموند دي اندارده ، ببعض التوسع .

(٢) من أبناء سان باولو ، توفي سنة ١٩٤٥ .

الآلي أو « الحياة اليومية » ، أو يغني (الأصفر - الأخضر) و (البان برازيل) !
لينشد شعراً آخر هو غنائية إنسان اليوم ، شعراً يجد في مآسي الإنسان الحديث ،
بل وفي الواقع البرازيلي ، عنصراً فنياً ، وقيماً عالمية . وقد وفي (شمدت)
صرخته حقها ، ثم وفي ! ومثله زميلته الشاعرة (سيسيليا ميريليز) (Cecilia
Meireles)^(٣) التي غنت الطبيعة والحب غناء لا أحر ولا أغنى وحيّاً !

على ان هؤلاء الشعراء جميعاً كانوا كتاباً أيضاً . حتى زعيمهم الذي علمهم
السحر : (غلبيري دي الميدا) ، وكان أروع من يغني الحب وهز الضمير
القومي ، هو كاتب مرموق بدوره . ولكنهم ليسوا بشيء كثير في القصة ،
فالقصاصون المحلقون اليوم ، كوكبة أخرى .

والقصة الحديثة البرازيلية بدأها (لوباتو) الذي نعرف . . . ودون أن يريد !
كان في انصرافه إلى التقاط الشقاء الريفي ، رائد الطريق . . . الكتاب الذين
كانوا فتياناً أيام (لوباتو) نفذوا من بعده أكثر فأكثر إلى الواقع البرازيلي ، حاولوا
فهمه ، نشره ، ايضاح مأساته في مختلف أبعادها .

ولقد وجدوا لغتهم البرازيلية الخاصة في القصص ، وهي أحياناً فجّة ،
محلية ، ولكنها حية مثقلة بالايحاء . ولقد وجدوا طريقهم في (التكنيك)
القصصي المكين ، ولكنهم جميعاً الآن يعانون القصة - المشكلة . هم قصاصون
ملتزمون : يعكسون مواقف من الحياة ، يلونون مثاليات ، يزحفون إليها ،
ويترجمون عن نضال سياسي . (فيريسيمو ، ريغو ، آمادو ، فاريما ، سلفادور)
كلهم يحمل صليبه .

وقد يتراءى من خلال الاحرف أحياناً شعاع ثوري . . . أحراراً ناقوس صلاة
كاثوليكية . . . وندر أن تعكس القصص مأساة فردية . إنها تفضل المأساة

(٣) ولدت في ريو دي جانيرو سنة ١٩٠١ - توفيت سنة ١٩٦٤

العامّة ، مأساة الوجود العام لا الفرد ؛ (جفاف الشمال الشرقي ، أزمة الاقتصاد الرعوي الاقطاعي في بيرنمبوكو وبارايبا ، مغامرة الكاكاو في باهيا ، تطور الحياة الحديثة في المراكز المدنية الكبرى ، النزاع على الحدود في ريوجراندري دلسول) . وتلعب هذه المأساة قوى ساحقة من الصعب تحديدها ، وإن كانت تتصل بالتكوين العرقي ، وبالتاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، المتطور ، والبالغ التعقيد ، في البرازيل .

في هذا المعترك القصصي لايقود الفرد حياته ، لايفرض إرادته . إنه يطفو ، كالقشرة اليابسة ، مع الأحداث والتيار المنطلق ، كل ماهو أساسي في القصة البرازيلية المعاصرة يجري في جو من القدرة الفاجعة . قوى التاريخ والوسط الاجتماعي والتطور الاقتصادي هي التي تلعب الدور كله . أما الناس فيمرون من خلالها في ضباب من الوعي ، ويتتهون إما إلى إهمال يرعش الأضلاع (قصص ريغو ، راموس آمادو) ، وإما إلى نضال يائس لايجد فيه ، ولقد يكون بالغ الأسى (قصص فيريسيمو)^١ .

وارتباط القصة المعاصرة بالواقع البرازيلي أعطاهما ، مرغمة ، جوين اثنين^(١) جو المدينة في الجنوب ، والجو المحلي الريفي في الشمال الشرقي .

قصاصو الجنوب : فتحوا عيونهم على الجنوب المتطور ، على الصناعة والمدينة الكبيرة ، وعلى استقرائية المال ، والأخلاق العرقية الأوروبية ، والفعالية الاقتصادية العنيفة . وهكذا كتبوا القصة - « المدينة » في قماشها البورجوازي العمالي ، (اوتافيو فاريا) (Ottavio Faria) ، (ايريكو فيريسيمو) (Eri- co Verissimo) فيما كتبه من الروايات عن (بورتو اليغري) و (جوزيه

(١) ثمت جوثالث للقصة النفسية (قصة لوسيو كرهوزو) ، وجو رابع للقصة الإنسانية (جوزيه جيرالدو) وبالرغم من قيمتهما إلا أن الذوق الأدبي السائد لايعطيها كبير وزن ويفضل عليها القصة البرازيلية الخاصة .

جيرالدو فييرا (J. Geraldo Viera) (سيرو دوس انجوس ((Ciro dos Anjos) (أوزفالدو دي انداردا ((Oswaldo de Andrade) (مينوتي ديل بتشيا ((Menotti del Pichia) عن سان باولو .

وأما قصاصو الشمال الشرقي . فكتبوا لونا آخر من القصة ، يدهش في أصالته ، ولعله أروع ماظهر في أدب البرازيل إلى اليوم . كان لديهم (السرتون) براري الغابة المدارية ، وفيافي (سيارا) ، وحياة الناس التي تذبل وتحف كما يحف النبات وييس ، ولديهم مأساة الموت الأسمر في الاحراج الشائكة . ومجتمع المطاحن المتهمة ، و (الكابوكلو) المستثمر ، ومعاصر السكر ، وبقايا الملاكين القدماء (الكورونيس) ، والتقاليد القديمة في (باهيا) ، وذلك الأثر الإفريقي الذي حمله إلى هناك الزوج وثمت إلى هذا وذاك مراعي وادي (سان فرنسيسكو) البعيدة ، وملحمة البحث عن الذهب ، ووقدة الملاحظات عند الشواطئ ، وزحف الجوع ، وأعداد السحرة والالهة والشياطين ! . . . كل هذا الصيد كان مبدولاً لقصاصي الشمال الشرقي ، وقد تصيدوه . وقصة الشمال الشرقي اليوم قد تصدم وتدهش بمواضيعها الفجة ، المذقة ، وبدعوتها ، سواء على الصعيد الاجتماعي أم الإنساني ، الدعوة الصريحة - والضرورة - للثورة . . . ولكنها فرضت نفسها كقصة للبرازيل !

من هذه المدرسة (راكيل دي كيروز) (Raquel de Queiros) التي وضعت ، في قصصها ، حياة (سيارا) والجوع والفقر القاتل في كرة من الزجاج السحري ، ومن هذه المدرسة (جوزيه لينز دوريجو) (J. Linz de Rigo) . وهو من أهم القصاصين قيمة ، قص التطور الاجتماعي والاقتصادي لأرض قصب السكر . ولعله مال إلى الواقعية الجغرافية ، ولكنه حاول أن يكشف في الواقع المعقد ، المأساة التي تتجاوز مأساة الإنسان في حد ذاته . ومن هذه المدرسة أخيراً الكاتبان (راموس) و (آمادو) .

(٢) غراسيليانو راموس

١٨٩٢ - ١٩٥٣

ولد غراسيليانو راموس في مدينة صغيرة من ولاية ريودي جانيرو ، ونشأ في بيت متواضع لم ينعم فيه بحنان الوالدين ، « كانا جافين مجهولين . بعيدين عن حياة طفلها » كما قال غراسيليانو .

وكان والده قد تزوج من ابنة صاحب قطيع أودى به جفاف أصاب المنطقة . وحفلت نشأته الأولى بآثار أليمة لهذا الجفاف أبدته عن الدراسة المنظمة فالتمس السلولى في قراءة القصص وكتب التاريخ والأدب .

وجاء العاصمة سنة ١٩١٤ فعمل في إحدى مجلاتها سنة ، ثم عاد إلى (بلميرا دوس انديوس)^(١) ، وراح يعمل في الميدان التجاري فأصاب بعض النجاح وتزوج ، ثم اضحى رئيساً للبلدية . وبعث إلى حاكم الولاية آنذاك ، اوغستوشميت ، وكان أديبا مرموقاً وصاحب شركة نشر ، تقريرين كان لهما أثر حاسم في اطلاقه ومستقبله الأدبي .

أدرك الحاكم أن في بردي رئيس بلديته المغمور أديباً موهوباً ، وعرف بنوع من الحس أن لديه قصة أو رواية للنشر ، وكان غراسيليانو قد كتب بالفعل رواية هي « كابيتيس » وقد نشرتها له شركة شميت (سنة ١٩٣٣) .

وعين غراسيليانو مديراً لمعارف « الاغواس » حيث كتب روايته (سان برناردو) وقد وضعته في مصاف كبار الروائيين البرازيليين .

(١) وتعني الكلمة (تدمير الهنود) وثمت في البرازيل أسماء عديدة مأخوذة من مدن المشرق والمغرب عدا تدمير هذه فهناك بيلم (بيت لحم) وكوريتيبا (قرطبة) ونازارية (الناصرة) وغيرها .

ثم تحمله رواية « أسي » (Angustia) إلى أعتاب الشهرة ، وتعتبر من أجمل آثار الأدب البرازيلي .

وانتقل راموس إلى الربو حيث كتب آخر رواياته : « حيوات جافة » (Vidas Secas) وتضم مجموعته القصصية « أرق » بعضاً من أجمل ماكتب في البرتغالية من قصص . وامتاز راموس في مؤلفاته بالتستر العاطفي والاقتصاد اللفظي . وكان عالمه داخلياً يركز فيه إلى التأمل والملاحظة النفسية يسر بهما الطبيعة البشرية . وقد أجاد في حقل الرواية والقصة معا . وتحللت حياته فترات من النضال في سبيل الديمقراطية والعدالة الاجتماعية ، أدت به إلى السجن مع نخبة من أحرار البرازيل وأدبائها ، بينهم صديقه جورج آمادو ، وواتافيو مالتا وسانتاروزا .

وكتابه « ذكريات السجن » (Memorias do carcere) بعبارة السلسلة الشفافة ، ينم عن نفسه الطيبة ومشاعره الإنسانية ، ويذكرنا بشاعر إيطاليا الكبير غبريل دانونزيو في « سجنونه » .

(وغراسيليانو راموس) ما ان تهم كثيراً حياته التي بدأت والبرازيل مجتمع محافظ مغلق ، وانتهت والبرازيل مفتوحة الأبواب للرياح الأربع . ويكفي أن نعلم أنه ، في عمله في التعليم ، أوفي السياسة أو الصحافة ، وفي سجنه ، وفي قصصه ، وفي شطحاته ، كان حر الاراء ، وقد كافح مع من كافحوا لتصبح البرازيل قابلة لكل رأي حر .

ومجموعة قصصه ، وإن تكن مرتبطة فيما بينها بمفهوم موحد للفن والحياة (مما هو ميزة كبار الكتاب) . إلا أنها متنوعة ، ومتنوعة بسبب من رغبته في ألا يكرر نفسه . التجربة الأدبية التي عيشتها مرة ، هي تجربة قد جرى تخطيطها ، فلا عودة إليها . ومن هنا فأعمال (راموس) يمكن ان تعكس ثلاثة مظاهر واضحة :

مجموعة الروايات التي كتبت بضمير المتكلم (كاتيس ، سان برناردو) ،
أسى (هي دراسات متتابعة للروح الإنسانية ، محاولات لاكتشاف أبعد الخفايا
وراء مظاهر الحياة السطحية ، لفضح (الإنسان التحتي) ، والجانب المظلم
المكبوت الذي يفرض نفسه علينا من الأعماق .

واما مجموعة الروايات التي صيغت بضمير الغائب (حيوات جافة ،
وغيرها . . .) فتعكس نظرة أوضح للحياة ودراسة لبعض طرز العيش والحياة ،
لا الحاح فيها على تحليل الآخرين .

وأما المؤلفات التي يروي فيها حياته (طفولة ، ذكريات في السجن) فالنظرة
الشخصية فيها أكثر صفاء واطمئنانا . إن (راموس) يتخلى فيها عن الخيال
ليتصل مباشرة بالمشكلة والانسان !

وتقرأ (راموس) ، إن قرأت ، فثمت التعبير السامي في اللغة . كان اختيار
« نعت » يكلفه ، كما كان يكلف فلوير ، « عرق النزع » ! و ثمت الغيبة الكاملة
لكل اثاره في العاطفة والأسلوب ، و ثمت أيضا التشاؤم الملح المقيم . ونقله
« راموس » المتابعة من التأمل والخيال إلى الذكريات ، تعكس ما في فنه من رغبة
جائحة في أن يكون « شاهداً » على الإنسان . إن شخصياته المخترعة أو المصورة
تخضع جميعا لهذا الواقع العميق الذي يشكل الوحدة العميقة في كتبه . .

أجواؤه تتجه دائما إلى الداخل ، إلى ما وراء الجلد والعظم ، إلى تلك
السراديب الافعوانية في مبادئ الانسان ، لا للتحليل ولكن لدراسة ارتكاساتها
تجاه الحياة . . . للذة سادية تأخذه في هذا السبيل . ولعلها لهذا السبب أجواء
سمراء في سواد . العنصر الإنساني هو الذي يهيمه . بل ! ولكن من خلال
اصطدامه وتفاعله مع العالم الغريب .

الرواية الوحيدة التي حكى فيها المأساة الاجتماعية الجغرافية للمنطقة الشمالية

هي (حيوات جافة) ، وقد يتراءى في نهايتها بعض الامل . أما الروايات والقصص الأخرى فأفساها (أسى) . إن شخصيتها الرئيسة (داسيلفا) تذكرنا بـ (دوستوفسكي) في (ذكريات بيت الموق) . هنا أيضاً شخص أناني ، يحب الحياة ولكنه لا يستطيع عيشها ، ويشعر أن كل شيء ضده ، فينقلب عليه ، ويحس بالرغبة الملحة في الانمحاق ، ورفض الذات . إنه نوع من التطلع الأخرس لحيوانية لا تفكر . . . ولا يصل (داسيلفا) الى النهاية المنطقية التي وصلها بطل (كافكا) في التحول إلى حشرة بشعة ، ولكنه يعيش محاطاً بالحيوانات التي ترمز إلى طبيعته ، أفاع حبيسة من ذكريات طفولته ومربطة بخوف الموت ، وبالجنس المكبوت ، جرذان تقفز في البيت وتشبه في ضجعتها بعض ضجة البيت ! . . . كل شيء جاف قاس مدمر ، و (داسيلفا) ، خلال ذلك ، مطازد بحس عميق قاس من أغوار ما تحت الروح !!

وفي فن راموس يحضر الجفاف وتحضر الطبيعة القائمة ولكن لزيادة العنف الأسود في المأساة ، ويحضر (الهنود) ولكن كعنصر للترزين والغرابة . عنوان (كايتيس) هندي ، ولكنه يريد أن يرمز فيه إلى ما يظل بدائياً وحشياً في النفس الإنسانية . يريد أن يقول إننا ، إن نكشط (المهذب) فينا ، يظهر تحت الجلد ، البدائي والغريزي والسفاح والطفل !

و«السجن» هذه القضية التي تخري ، وتشغل الأدب الحديث ، منذ أساتذة القصة في القرن الماضي ، شغل بدوره (راموس) أيضاً . إنه للروائي نوع من المختبر الذي تظهر فيه أقسى وأكثر الحلول تناقضاً ومفاجأة . إنه يؤزم العلاقات الإنسانية ولكنه ، على مستوى آخر ، يعيد تكوينها من جديد ، وعلى طريقته إنه مكبوح عند (ديكنز) ، رهيب عند (هوغو) ، و (بلزاك) ، مرعب وحشي (دوستوفسكي) . أما عند (راموس) فكان مدرسة . وكان تجربة كرسى لكتابتها السنوات الأخيرة من عمره . وما كتبه (راموس) عن هذه التجربة كان

دليلاً آخر على رغبته المستديمة في الشهادة ، كما كان نتيجة منطقية لسيرفته أكثر فأكثر ، وانجذابه المتسارع نحو قطب الاعتراف . والظروف ، بجانب الحدس النفسي ، هي التي نقلت (راموس) من العالم كسجن إلى السجن كعالم !

٣) جورج آمادو (J. Amado) وباهيا

(ولد ١٩١٢)

أشهر اديب برازيلي معاصر .

بل هو « مالىء الدنيا وشاغل الناس » على نطاق عالمي .

فلا يظهر له مؤلف حتى تتلففه يد الترجمة والنشر وتشره في مهب كل ريح . حتى لكأن البشرية تبغى أن تحقق في شخصه حلم فلاستها ورجالها المصلحين فتضحى ، عمليا ، أسرة واحدة يتكلم أفرادها ، لسبب ما ، لغات مختلفة .

ولد جورج آمادو سنة ١٩١٢ في جنوب ولاية « بهية » لأسرة من المزارعين تناضل لتتملك حصتها من الأرض في منطقة الكاكاو يوم جن جنون هذا « الملك الأسمر » فأضحى الأمر الناهي في زراعة الولاية ، ومشى في ركب العمران يكتسح الغابات ، ويفتح الطرق ، ويوسع المرافق .

وفي مدرسة للجزويت في بهية اكتشف أحد الرهبان في الطالب النبيه بذرة الأديب ، واكتشف هو في ذاته حب الأسفار ، والطموح والنزوع إلى الحرية .

وضاق ذرعا بجو المدرسة الخائق فراح يقوم ، بلا مقدمات ، بأول أسفاره في دروب الحياة والحرية ، وهو لم يتجاوز الثانية عشرة ، وكان جده يعيش في مزرعة له في « سيرجيبى » فقصد إليه سيرا على الأقدام ، وفي جيبه مال قليل ، واستمرت السفرة شهراً وهو يجد على الدروب الطويلة ، يأكل الثمار البرية والجنذور ، أو يلتهم ضيافة الفلاحين الكرماء ، وانثبثق له العالم في هذه المغامرة

الجهول غنيا فاتنا ، فاتصل بالطبيعة وصادقها ، وعرف مواطنيه في كفاحهم اليومي ، وحياتهم الصميمة فأحبهم ، وعرف الأسرة بمقره بعد حين فبعثت بمن يعود به إلى البيت .

وبدأ عهد آمادو بالكتابة في مدرسة داخلية أخذ يدير مجلتها وهو في الرابعة عشرة ، وقرأ في هذه الفترة كتب الأدب الفرنسي والاسباني والبرازيلي ، ثم غادر المدرسة ليحرر في « جريدة باهيا » براتب قدره ٩٠ ألف رايش .

وقصد سنة ١٩٣٢ إلى الريودي جانيرو لاكمال دروسه الثانوية . وكتب ، في نهاية السنة ، أولى قصصه « بلاد الكرنفال » وقد سجل فيها مأساة جيله في التحري عن سبله .

وأهى في السنة التالية روايته (كاكاءو) فصادرتها الشرطة لتصديها لمشاكل البرازيل الاجتماعية ، ثم أفرجت عنها بمداخلة من وزير الخارجية أوسفالدو آرانيا ، وترجمت كاكاءو سنة ١٩٣٥ إلى الإسبانية والروسية ، وكانت بداية آمادو في ميدان الأدب العالمي .

ثم ظهرت روايته « جويابا ومسرحها كزيميلتها » كاكاءو » مدينة باهيا ، ولم تكن عاصمة البرازيل القديمة موضع دراسة أدبية من قبل ، فقابلها النقد والقراء بحماسة شديدة ، وكتب له مونتيرو لوياتو : « إن ما كتبه عن باهيا يكشف فيك عن أكثر من أديب وروائي وفنان ، إنها انطلاقة الطبيعة المبدعة » .

وانهى الطالب آمادو دراسته في معهد الحقوق ، ولكن المستكبر الطامح لم يذهب لإحضار شهادته !

ويبدأ عهده بالسجن سنة ١٩٣٦ لأفكاره التقدمية ونشاطه السياسي ، إنه يريد لوطنه نظاما ديمقراطيا عادلا تناف فيه فرص العمل وثمراته للبرازيليين جميعا . وقد قام خلال هذه السنة بسفرة طويلة إلى امريكا اللاتينية والمكسيك

والولايات المتحدة .

وظهر كتابه « فارس الأمل »^(١) سنة ١٩٤١ فسجل فتحا في دنيا النشر لم يتح تجاوزه لغير آمادو نفسه . وكان هذا الكتاب تحية منه إلى (لويس كارلوس بريستس) القائد الشيوعي البرازيلي ، جعل منه أسطورة شعبية .

ويعقبه « الأراضي التي لا نهاية لها » - ويعتبره بعض النقاد أفضل مؤلفات آمادو .

وكان زواجه الأول قد انتهى بالطلاق فعقد سنة ١٩٤٥ زواجه من زيليا قطاي . وانتخب نائبا اتحاديا عن ولاية سان باولو . ثم الغيت نيابته مع إلغاء الحزب الشيوعي . واضطر إلى أن يترك البرازيل ، ويسافر سنة ١٩٤٨ إلى أوروبا مع امرأته السيدة زيليا وولديه « جوان جورج » و « بالومه » ، واستقروا في باريس ، وعقدت له هناك صداقات مع نخبة من أدباء فرنسا وفنانيها بينهم سارتر ، آراغون ، جورج سادول ، بيكاسو .

ثم غادر فرنسا إلى بولونيا كنائب الرئيس لمؤتمر الكتاب والفنانين العالمي ، في سبيل السلم .

ويستأنف آمادو سلسلة أخرى من أسفاره سجلها في كتاب « عالم السلم » وظفر سنة ١٩٥١ بجائزة ستالين ، ثم قام بجولة طويلة في أوروبا والشرق الأقصى ، وعاد بعدها إلى البرازيل .

وتظهر له سنة ١٩٥٨ ، بعد انقطاع طويل ، روايته « غبريلا - ربا القرنفل والقرفة » فتنفذ نسخها العشرين ألفا خلال أسبوعين ، وتطبع للمرة السادسة في فترة خمسة أشهر .

(١) ترجم إلى العربية سنة ١٩٧٩ وطبع في بيروت بالعنوان نفسه .

(٢) ترجم في بيروت ونشر بعنوان (دروب الجوع) مرتين آخرهما سنة ١٩٧٩ .

وظفر آمادو سنة ١٩٦٠ بعضوية الأكاديمية البرازيلية للأدب باجماع لأصوات .

وظهر كتابه « البحارة القدماء » سنة ١٩٦١ ويضم قصتين إحداهما « موت كنكس » . وتكون « غبريلا » ، في هذه الاثناء قد ترجمت ونشرت - خلال سنة واحدة - في فرنسا ، والارجنتين ، وروسيا ، والمجر ، وهولندا ، ورومانيا ، وبلغاريا ، وبولونيا ، والبرتغال ، وإيطاليا ، وتشيكوسلوفاكيا .

وبدأت في أوروبا سنة ١٩٦١ حركة لترشيح جورج آمادو لجائزة نوبل ، وقد صرح جانيو كوادروس رئيس الجمهورية البرازيلية آنذاك : « أوروبا مدينة لنا بجائزة نوبل منذ عهد بعيد ، لنواح مختلفة من نشاطنا الفكري ، وجورج آمادو هو مرشحنا « الكفء » . . . ولم ينل آمادو الجائزة لأسباب واضحة . لكن سمعته العالمية ما انفكت في ازدياد ، وانتاجه الروائي ما انفك يتوالى . فوراءه الآن قافلة منها تزيد على ٢٥ رواية . قضى في كتابتها ٥٦ سنة مع آله الكاتبة التي ينتظر اوراقها الملايين ، وفي صنع ذلك الأدب الذي ترجم إلى ٣٣ لغة حتى الآن . وقد عرف ، في لحمه ، التراب المر ، من خلال نضال أبيه ، في المزارع ، وعرف ناسه وبلاده المعرفة المباشرة الحميمة ، من خلال الطفل الذي كانه يوم هرب الأشهر الطويلة على قدميه ليصل بيت جده . ولم يكن له من الخبرة في الصحافة والكتابة أكثر من ثلاث سنوات حين أصدر أول رواية له « بلد الكرنفال » سنة ١٩٣١ ، في الوقت الذي صدرت فيه روايات أخرى لعدد من أصدقائه « التحديثيين » . وبعد ذلك . . . جاءت حياته القلقة غير المستقرة ، وجاء معها مجده الأدبي الكبير : زيارات لكل البلاد الأمريكية وللسجن ، ونقله بين الصحف ، وألوان من الكتابة ، وترجمات لعدد من قصصه وانتاج لقصص جديدة ، ومشاركة في السياسة والبرلمان . . . توضح خلالها لونه الأحمر وانتسابه للحزب الشيوعي . لكن تعمق أيضا كل التعمق ، لون الكاتب الشعبي المناضل

فيه . وفي ترحاله منذ سنة ١٩٤٨ بكل مكان ، كان يحمل بلاده في صدره وجبينه ! . . . أركان الدنيا الأربعة في أوروبا ، والاتحاد السوفياتي ، والصين ، استراليا ، الهند ، سيلان ، أوروبا ، البلاد الأمريكية . كلها كانت محطات طريق عنده . . . حتى سنة ١٩٦٠ . المؤتمرات التي حضر ، القصص التي كتب ، الألقاب والجوائز التي جمع ، الأفلام التي اقتبست عنه ، الكتب التي صدرت لاسمه بكل لسان ، شيوخه ، كانت بدورها مراحل طريق أيضا ، فالكتاب وإن استقر في البرازيل في النهاية ، وبهت لونه الأحمر جدا ، إلا أنه ما يزال إلى اليوم وهو في الرابعة والسبعين في أوج نشاطه المنتج وركضه . . . إلى أين ؟ إلى تجاوز نفسه .

إن (آما دو) ليس شيئا آخر غير (باهيا) . لتعرفه يجب أن تعرفها ، هناك في (بلد جميع القديسين) بمد جذوره وحبه وسفح شبكه . لقد جمع الدنيا كلها إلى تلك الطرق من (باهيا) التي تطأ في كل خطوة منها تاريخا ، وجمع « الانساني » كله في تلك الفئة من الزوج والخلاسين الذين يعيشون في الهامش الحياتي المداري هناك . . المنطقة في المساحة أكبر من فرنسا . جنوبها للكاكو ، وشمالها للقفار الجائعة ، ونباتها البشري للتنظيف في سيارات الشحن إلى الجنوب . . . ثلاثة ملايين إنسان هاجروا منها ومن حولها ما بين الخمسينات والستينات .

أما عاصمتها « سان سلفادور » فلا تعرف إلا باسمها الآخر : باهيا ! لقد أنشئت لتكون عاصمة البرازيل ، وظلت كذلك ثلاثة قرون . . . ولكنها الآن متحف تاريخي كلها . منها بدأ تاريخ البرازيل . كل بيت ، كل حائط ، كل حجر ، يحكي شيئا من ذلك التاريخ .

« . . . هنا تستطيع في عشر دقائق أن تعيش في عصرين أو ثلاثة أو أربعة أعصر مختلفة معا . كل عصر منها تحسبه أصيلا . القديم والحديث ، الماضي

والحاضر ، الفخم والبديهي ، كل ذلك يجتمع ليكون كلا واحدا في واحد من
أهدأ وأبدع المناظر في العالم » كذلك قال (ترفايغ) ! .

(و باهيا) بلد من طابقين : منخفض هو السوق ، ومرتفع هو المدينة . وبين
المستويين حوالي ٦٠ - ٨٠ مترا ، فهما يتصلان فيما بينهما بثلاثة من المنحدرات
الشهيرة ، ويمصعد كهربائي غريب عن الجو العام (مصعد لاسيردا) . . .

(باهيا) المنخفضة اقتطعت من البحر . هنا بدأت المدينة بحوالي ٨٠٠ من
الجنود والباعة وبعض الرهبان ، وقليل من النساء المجلوبات ^(١) والعبيد
الزنج ! وهنا أنشئت بعض الكنائس والقلاع والمباني التاريخية . وهنا يمتد في
البحر لسان ! بحر الأطفال ، « أغواس دوس مينينوس » . وهنا (ربما
دوميركادو) ^(٢) ! نزلة السوق ! . . . هذا السوق الذي هو ماشئت من خيام
مزقة وروائح واخذة ، وعفن ، وصناديق ، وعرق ، وموز ، وأسمك ، وجرار ،
وقماش ، وزبوت ، وأقذار ، وموج بشري ينعف ، وشمس تلذع ، وكثيف
ظل ، وألوان استوائية . لوزرت سوق (سانتاتا) آخر الشهر لرأيت مالا يمكن
أن تنسى ! مائة ألف بائع ومشتري يجتمعون هناك كل يوم اثنين في ضجة حيوانية
وخدر استوائي ! . . . إنه عيد ومأتم ! .

أما (باهيا) العليا فهي مدينة الكنائس والقصور العتيقة والذكريات والعالم
القديم . امح من ناظريك إلى حين زفت الطرقات الجديدة ، وأعداد العمارات
الحديثة . إن « قلب الزنجي » يرصف الطرقات هناك ^(٣) .

وهذه الأحجار الملايين المرصوفة تحت الأقدام هناك يقابلها في الواقع ملايين

(١) أنشأ المدينة القائد (توميه دي سوزا) .

(٢) مواقع كلها تمر في قصة (آمادو) وخاصة ما يجري منها في باهيا .

(٣) كذلك يدعون حجر الرصف في (باهيا) .

من الزوج العبيد الذين بيعوا في تلك المدينة . ساحة (بيلورينو) حيث تمر كل (باهيا) ، كانت سوق النخاسة الذي مرت به تلك الملايين الإنسانية . هي التي رأت الذعر الذليل في وجوهها ، وسمعت زنين القيود الأصم في الاعناق والأقدام ، ! وشهدت مزايده النخاسين « على البضاعة » البشرية الشلاء .

وتتجول في (باهيا) . الممرات والازقة التي ترفض الأساء الحديثة ، لكل منها أمجادها . « منخفض الحداثين » (باشا دوس ساباتيروس) هو الذي أعطى العالم رقصة « السامبا » . . . هناك اعتاد العبيد المحررون الذين افتكوا رقابهم يوم الكرنفال أن يرقصوا رقصة الشكر والفرح العرم : رقصة خذ وهات ! . خذ الثمن وهات العبد ! « سام - با . . . سامبا » ! وطريق العجائب الخمس عشرة ؟ « كم من مجال للتخيل من خلال هذا الأسم الذي يوحى بحب رومانتيكي أو عجائب ماسونية أو مؤامرات وأبقى عبيد . . . إن أي زقاق في (باهيا) يجتمل كل معجزات العالم . . . » (آمادو) . . . والكنائس ؟ إن السامبا مع القديس يتكلمان معا في ٣٦٥ كنيسة . . . أو هكذا يزعمون . فلم يستطع أحد أن يصل في العدد إلى أكثر من مائة . كل كنيسة منها قصة . أما (سان فرنسيسكو) فهي قصة عجب ! إن الذهب يغشي داخلها كله كمغارة سحرية ، ينعكس الضوء القليل من النوافذ الصغيرة على المعدن الوهاج فيلقى الرهبة والجوع وألف معنى في وجوه المصلين . . . من زنجية وخلصية وبيضاء على السواء .

والملاحم البايانية خليط . البرتغالي أسهم فيها مع الزنجي ومع الهندي القديم . (البايانو) هونتيجه اصطدام كل تلك الملاحم المتضاربة ، وكل ما وراءها من أفهام ! اللطف فن هناك . والضحك أساس . والحب كل شيء . . . « غابريلا » الخلاية ، إحدى بطلات (آمادو) ، لا تريد إلا « أن تعيش وأن تحب ! » . . . بكل بساطة ! . . . أما الثرثرة والقصص . . . فرجما

ورثها (آمادو) من تقاليد بلده نفسها .

على أن الإرث الأضخم في (باهيا) هو الإرث الأفريقي . هناك أفريقيا السوداء هي السيدة . أولئك العبيد الذين تكدسوا أنفاسا مخنقة في أسفل المراكب ليباعوا في (باهيا) ، حملوا من مناطق شتى في القارة الأفريقية ، من الهوسا والاشانتي وداهومي ، والكونغو وتاغو وانغولا ومن موازمبيق أيضا . . . حضارتهم كانت معهم : صلوات وعقائد ولغة عربية مكتوبة ، وفن بناء ، وألوان لعب ورقص وعيد . كانوا ، في جانب كبير منهم ، مسلمين ، وفي زرائبهم كانوا يقيمون الصلاة . وكانوا ، في جانب حسن منهم ، يتكلمون العربية أيضا ، ويتفاهمون بها تحت أنوف مالكيهم ، ويكتبون بها الرسائل لأسيادهم الأميين . وكانوا ، في جانب منهم ، صناعا . فمن صنع أيديهم بعض تلك الكنائس التي سجدوا في السقوف الخشبية الداخلية من قبابها بعض أي القرآن الكريم ! ولقد ثاروا أكثر من مرة بقيادة مشايخهم . . . وقتلوا ، أغناما أو كالأغنام ! آخر ثوراتهم كانت سنة ١٨٣٥ . أكان ممكنا أن تنجح تلك الثورات ؟

ومن بقايا تلك القرون هذا الخليط العجيب من العقائد الأفريقية في (باهيا) . إن الأرواح والسحرة وجمعا من الآلهة الوثنية والشياطين ما يزال يتجمع هناك تحت سقوف القش المليئة بالسخام . كلهم آلهة (أوريشا) . وإنك لواجد بين من تجد ، (يوغون) المحارب و (أوشالا)^(١) العجوز الطاهر بعصاه ذات الخلاخيل ، و (أوبلواي) الجميلة ذات القناع من القش التي تحول الحمى الى رقصات مرعبة شافية ! و (إيمينجا) ملكة الماء التي تفوح منها رائحة الزبد

(١) يلاحظ أن هذه الأسماء عربية الأصل وفيها الرائحة الاسلامية ولكن مرور الزمن خلط بينها وبين العقائد الأفريقية . أن (أوشالا) هي إن شاء الله ، و (بلواي) هي كلمة الشكوى من البلوى ! و (بابا لوريشا) ، حارس المعبد ، هي أبو الأوريشا . . . ومن يدري فلعل أوريشا آتية من قريش !

والبحر . . . و(إيشو) رسول هذه الالهة جميعا . وهو رسول شتام ، عربيد ،
يجب الهدايا ويسرع بالغضب ، يقطع وشائج الحب ، اذا شاء ، وان شاء
وصل !

وقد اختلطت هذه العقائد ، في مزيج عجيب مع الأفكار المسيحية . إن
القديسين الكاثوليك لهم شخصيات أخرى هناك . هم مندمجون في تلك القوى
الروحية الأفريقية . فاذا كانت (الكاندومبليه)^(٢) هي الرقص التقليدي ،
فالمعبد (التيريرو) مسرح للرقص ، فيه الكثير من رقص الزار ومن حركات
الطرق الصوفية وتهليلها وموسيقاها ، وإن كانت صورة السيد المسيح تتصدر
القاعة . . وكان إيمان سحري حار لاهو من الاسلام ولا المسيحية يعمر صدور
المصلين . . .

فإذا كانت مواسم الأعياد لهذه الالهة (١) فحدث ما شئت عن هوس
المؤمنين : إن (إينجا) حتى « لو كانت في أقصى البحار تأتي (باهيا) في مطلع
فبراير (شباط) لتتلقى هدايا الصيادين . . . إذن فالشاطيء زحف على البحر
بالناس ، وإذن فالزهور والمال والعقود والمرايا والعطر والطعام تلقى في اللجة التي
قد تذهب ببعض المهدين !

وأما « الزياح » فعيد آخر له ماله . وأما « الكابويرا » ذلك الصراع الرياضي
الديني الذي كان يخفيه عبيد (أنغولا) عن أسيادهم ، فقد أضحى من طرائف
كل عيد . آلاته الوترية البدائية ، وغناؤه الباكي ينوحان بكل مكان في
العيد . . . على العبيد . وأما (الكرنفال) فهو قمة الفرح المجنون . أليس بعيد
التحرر ؟ إنه صلاة للجسد وللفرح . ويدخر الزنجي والخلاسي ، ثم يدخر
جهد سنة كاملة ليغني كل ذلك في (السامبا) ، وفي توترها الراعش . . . ليلاي

(٢) هي طقوس العبادة الخاصة بزنج المنطقة وتسمى (ماكومبا) في (ريو) كما تسمى (شانغو)
في (رسيفه) و(بابا سوي) في ولاية (بارا) . . .

معدودات ! وليتحول في النهاية إلى ديبب حيوان ، ويتحول (الكرنفال) إلى . . . ملحمة جنسية ! إنهم يسمونها (باهيا جميع القديسين) ولكنها في الوقت نفسه (باهيا جميع الخطايا) !! .

٤ - آمادو الروائي

(آمادو) هو هذا البلد . . . ، يوم بدأ يكتب ، بدأ من ذلك التراب فما يزال فيه ينشئ إلى اليوم ، رواياته التي تزيد على الخمس والعشرين كلها منه . الذين درسوه قسموها مراحل متتابعة كالسلسلة . بعضهم يجعلها ثلاثا وبعض يصل بها إلى ثمان مراحل : حلقة الروايات الأولى كانت روايات الحوادث . بها وضع الأسس الرئيسة لكل ما سوف يكتب . ثم جاءت حلقة القصص البائية التي تحدث بها عن (باهيا) . وتلتها حلقة الكاكاو ، قصص الأرض ومآسيها ، ثم حلقة القصص السياسية التي كتبها أثناء الحرب ، يوم ارتبط بالماركسية ، وأخيرا . . . أخذ يكتب الحلقات الأخيرة : القصص ذات الأبعاد المتعددة ! . . . قبل أن تأتي في النهاية مرحلة السخر ! .

وليس في هذا التقسيم المرحلي من صعود أو هبوط . وإن كان بعضهم يحاول أن يرى فيها ذلك . إنها انعكاس السن والتجارب ، وتكامل التقنية وتطويرها . ويقولون في ايضاح هذه المرحلية : إن آمادو في خطواته الأدبية الأولى كان أكثر ارتباطا بالشعب وتراثه . ارتبط أول الأمر بتلك الحركة التحديثية التي انتشرت بعد سنة ١٩٢٢ من سان باولو في جميع أنحاء البرازيل . لكنها لم تكن عند آمادو ورفاقه في باهيا تعني الخروج من الذات البرازيلية إلى المذاهب الأوروبية والأمريكية . لقد كانت بالعكس محاولة لكشف هذه الذات والتأكيد عليها ، صارت تمسكا باللغة « البرازيلية » الخليطة مع الأفريقية والهندية ، وحياء للفولكلور الشعبي ، وللتقاليد الأفريقية الهندية ، ورفضاً « للشرط » الاجتماعي

الذي كان يسحق الناس في كل مكان في البلاد ، وبخاصة في الشمال الشرقي .
 ما أضافه آمادو إلى هذا هو أن أدبه لم يكن أدباً مجانياً . ما كان من أدب الفن
 للفن . كان الإخلاص يقتضيه أن يكون أدباً ملتزماً ، جدلياً ، مشاركاً ، أدباً
 واقعياً ، ولكن واقعية جديدة لا تكتفي بتصوير الواقع ولكنها تصر على
 تغييره . . . وهكذا اختار آمادو منذ روايته الأولى (بلاد الكرنفال) سنة ١٩٣١
 الصرخة التمردية ، والكلمة الثورية ، وإذا كانت روايته الثانية (كاكاو) وثيقة
 اجتماعية تحكي ذكريات طفولية فإن (جوبابا) سنة ١٩٣٥ تختم هذه السلسلة
 في الوقت الذي تبلغ بها القمة في التقنية الفنية .

ولكن آمادو وإن انضم مبكراً إلى الحركة الشيوعية سنة ١٩٢٦ استمر فيها إلى
 ما بعد أوائل الستينات ، إلا أن روايته لم تسقط خلال ذلك كله في الهوة
 البروليتارية والالتزام الرخيص . ظلت رواية طبيعية لا تحمل أعباء المطالب
 السياسية ولا ظلاً منها . السجن والمنفى والبعد عن باهيا جعلت آمادو يعيد
 خلقها في خياله في عملية تصعيد أعطتها البعد العالمي . ومراوحته في هذه

المراحل بين كتابة الوثيقة الموضوعية وبين الشعر الغنائي ليست ناجمة عن عدم
 الاستقرار ، أو اضطراب الخط ولكنها ناجمة عن تنازع الخط السياسي في نفسه مع
 منزع الشعر والغنائية . . رواية (البحر الميت) التي صدرت سنة ١٩٣٦ كانت
 قصيدة طويلة من الشعر المشور . بينما قائد الرمال (سنة ١٩٣٧) وثيقة مؤثرة
 حول الطفولة . أما (اراض لا نهاية لها) فتجمع الطرفين . ولهذا حياها النقد

البرازيلي في نوع من الاجماع . إنها قمة مرحلة أخرى . رواياته صارت
 روايات - قصائد ، أو روايات ملاحم ، بعد هذه « الرواية التاريخية » الاجتماعية
 التي تحكي قصة المعركة الأخيرة الكبرى لامتلاك الأرض في مناطق الكاكاو . إنها
 ملحمة ، أو هكذا على الأقل أصبحت تحت قلم آمادو . ويتدخل الشعر الغنائي

في « أراض لا نهاية لها » بصورة خاصة على طريقة الشعر الشفهي الذي يتناقله الشعراء الشعبيون في البرازيل . ولكنه ليس مضافا إلى الوثيقة الاجتماعية ، بل إن هذه الوثيقة هي التي تنتقل هنا لتصبح شعرا .

وفي أسواق الضواحي والخواضر كان الشعراء القوالون العميان - كما يقول آمادو فيها - « يغنون قصة هذه المعارك وهذه الاشتباكات بالبنادق التي كانت تروى بالدم أرض الكاكاو السوداء . . » رواياته : القديس جورج في ايلباويس (١٩٤٤) ، الحصاد الأحمر (١٩٤٦) ، خنادق الحرية (١٩٥٤) ، و « باهيا جميع القديسين » ، . . . كلها كانت ملاحم تصف الاقطاعية الزراعية ، والرأسمالية المدنية ، وحياة الفلاحين في السرتون ، أولئك الذين يهربون من جهنم الشقاء والموت جوعا في الشمال ، ويركبون سيارات الشحن ثم السفن على طول نهر سان فرانسيسكو إلى سان باولو التي يتصورونها أرض الميعاد . . . فلا يجدون فيها سوى الحمى الراجعة ، والأسمال القذرة ، وأكواخ التنك ، وسعال السل . . . وجهنم الأخيرة !

بعد الستينات ، يتغير خط آمادو قليلا باتجاه السخر . قارب الخمسين فاستوى على قمة الحياة يتأمل ويكتب (غابريلا ربا القرفة والقرنفل) ، و (البحارة المسنون) و (كنكاس صرخة الماء) ، و (قسيسو الليل) . . . وغيرها . ولم تتراجع الفاجعة الدرامية على قلمه ولكنها امتزجت بالاستخفاف . لم تعد حادة كالسيف ولكن مأسوية هادئة رغم أنها مؤلمة حتى العظم . وظل يلتقي فيها الواقعية المدهشة ، والوثيقة الاجتماعية والشعر الملحمي . ولكن الطبقة الوسطى الناجمة عن الأسر الكبيرة المنهارة فيها تأخذ الصور الكاريكاتورية . تحتفظ بمظاهر النبل القديم وتقيم بينها وبين الشعب العادي حجابا من اللفافات والملابس المنشأة والتقاليد التي تثير الابتسام !

على أن هذا التقسيم المرحلي رغم مظاهره الحقيقية ، لا يخفى ما وراءه .

(آمادو) ظلت له دائما اهتمامات واحدة . عيناه قد تشردان وتحومان ، ثم تشردان ولكنهما تظلان مرتبطتين ، كبعض النسور ، ببعض السواحات والينابيع . . . ومواقع غرامه ليس من الصعب اكتشافها . ذلك البناء القصصي الذي بناه ، والذي كان ابدا للخيال الواسع ، ولحسن القصص . وللجو الشعري ، وللمأساة الاجتماعية ، وللواقعية التي تكاد تلامس الأنامل ، ذلك البناء ليس من الصعب أن تسمع النداءات التي تتردد فيه .

ثمت أولا نداء الأرض ، أرضه . إن (آمادو) كانت له رائحة أرضه ، له رائحة ريا « القرنفل والقرفة » منها ، ونكهة الكاكاو . ثمت حس أرضي عميق في سطورهِ ، وارتباط رحي بترابه الخاص . هو عاشق (باهيا) ، مغنيها ، شاعرها . لقد سيطرت (باهيا) بواسطته ، على النموذج البرازيلي في القصة ، وفي الذهن العالمي . فحيثما ذكرت البرازيل ، كان ظل (البايانا) هو ظلها القوي ! وثمت ثانيا نداء البحر . ان وجود البحر في قصة (آمادو) يرضي غنائيه ، ويعطيها السعة الكونية والتوتر المأسوي اللانهائي . البحر والأرض معا ليسا أجواء لديه . إنها شخصيات لها دورها المرسوم ، وتفاعلها وحديثها ، ولعبها المقدور ! . . .

وثمت أخيرا نداء الإنسان ، كل إنسان . موضوع (آمادو) المفضل صلة الإنسان بالأرض . إنه لا يتحدث عن المدار ولكن عن الإنسان المداري ، عن الإنسان البرازيلي في المدار . من خلال ذلك يتخطى الواقعي إلى المثالي ، وينفذ من المحلي إلى الإنساني . إن حسا إنسانيا مكثفا لزجا يلصق بسطوره . وهو يكتب ، في تعاطف صميمي ، عن الإنسان البرازيلي في ضعفه وقوته ، في عقده وأزماته ، في محاولاته وردود فعله ، كل ما في الروح البرازيلية من تشابك وتناقض وغنى حسي مسطور في روايته . وعن هذا الطريق يصل (آمادو) ، باسم الحفاظ على الكرامة والقيم الإنسانية ، إلى الجراح الأولى في المجتمع وإلى

الفضيحة ! إنه لا يختار موقف الشهادة ولكن موقف الثوري . وليست رواياته وثائق اجتماعية أفقية ، لكنها تصب في صميم الجراح . ولقد استغل (آمادو) الزنجي خاصة في أبعاده النفسية - الاجتماعية . ولكنه لم يقدمه في مشكلته الاجتماعية ، وإنما في قلقه المصيري الصميمي . في تلك الاضطرابات الداخلية التي تظهر فيه الظهور المرضي وتعطيه قيمته الإنسانية ودراميته الممزقة !

ولقد طالما أخذوا على (آمادو) اللغة البسيطة التي لا يعني بها ، ولا تخلو من السقط النحوي . إنه يتركها أمينة « لليومي » ، للحياة الدنيوية ، وليس لسكون المعاجم وأخذوا عليه تركه السياق الروائي أحيانا في طراد جو شعري عابر . ان الشاعر فيه لم يستطع ان يتخلى تماما للروائي عن مكانه وأهوائه . وأخذوا عليه بساطة شخصياته ، كأن ليست لها أعماق ! ليست تعرف التعقيد الداخلي المتفاعل بألف نسيج وجودي ، على أن النصال اقصرت ، وحال الجهر همسا منذ ظهرت « غابريلا » ، وظهرت (البحارة المسنون) آخر روايته . في أواسط الستينات وما ظهر من روايات بعدها . . . أما أن له أن يأخذ بالناصية ؟

وقصص (آمادو) بعضها يعطف على بعض ، وبعض يوسع بعضا . حلقة قصص (باهيا) توسع لقصة (عرق) ، وحلقة الكاكاو مآس مرتبطة بالأرض والكاكاو والمالكين والمصدرين ، و(جويابا) ملأى بالغنائية الاستوائية . أما (البحر الميت) فقصيدة . . . أما ما يستحق الوقفة الطويلة فهي (غابريلا) وما تلاها ، (البحارة المسنون) ، (كينكاس) ، (الكومندان فاسكو) ، ثم دونا فلور وزوجها ، وتيريزاباتستا ، ودكان العجائب ، والبحار العجوز ، وعودة الفتاة الشاطرة ، ومعركة التريانون الصغير . . . وغيرها . فالجعبة لم تفرغ بعد ، رغم أن الرجل في الرابعة والسبعين اليوم .

(غابريلا) أول قصة كبيرة - كبيرة فعلا في ٤٤٠ صفحة - متعددة الشخصيات - ٥٢ شخصية - وأول رواية تحمل اسم بطلها عند (آمادو) . فما

اعتاد من قبل أن يغلبه البطل على الغلاف الأول . . . ولكن (غابريلا)
الخلاسية أسرة ، هي فاكهة الغابة ، زهرة المرارة . . . لعلها طفلة ولعلها
الشعب كله ! إنها تعيش ، ولحب فقط ، العيش البديء دون غد ، والحب
الذي لا يخشى الأفعى لأنه لا يعرفها . ولا التفاحة لأنها غذاؤها الدائم .
أغنيتها :

« الدوران في الطرقات ،

غناء المواويل ،

النوم مع فتى ،

والحلم مع فتى آخر . . »

وتخرج من قراءة القصة إلى الشارع فلا تشك في أنك لابد ملق ،
(الكولونيل) أو (دونا أولغا) في بعض الطريق ، وفي أنك لابد عرفت ذات يوم
« نسيباً » العربي ، صاعداً المنحدر ، نازلاً المنحدر ، أمامك وراء
الطباخة ! . . . وفي أنك لابد رأيت مرات - أولئك مشته ملء قلبك أن ترى -
عين اليقين ، هذه الطباخة (غابريلا) ، ربا القرنفل والقرفة ! لقد أضحت
شخصية برازيلية لأخلد ولا أكثر حياة . ومن حولها مشاكل مدينة كاملة :
انتقام ، ككاو ، حزن ، مزارع ، محاكمة ، قمر ، فشل ، ضحك ، جمال ،
شق قناة ، موت أحلام ، نمو دنيا . . . هناك حولها كل ما يصنع الحياة ، لقد
خرجت من الرواية لتدخل الجو الأسطوري البربري للشعب . بل دخلت الحياة
العادية للناس ، كواحد منهم . ولعلها تعيش حقاً . ولعلها مسجلة في السجل
المدني ولها اسم في دفتر الهاتف ! أغريب هذا !؟ صدقني انه اغتلت فيها ريبة
الكثيرين حتى لقد ذهب الشاعر جورج مدور يفتش عنها في مدينتها
(ايليوس) . ولقد وجدها دما ولحما : إنها لوردس مارون زوجة العربي المغترب
بشارة مارون ! ولكنه تلقى ثمنا لاكتشافه عدة رصاصات !!

وإذا كانت آلام (باسترناك) قد أعطت ثمارها لدى (اهرنبورغ) الذي استطاع أن يطبع ما يريد دون خوف من سخر (خروشوف) ونقد الشباب الحزبي ، ولدى (آرغون) الذي كتب (الأسبوع المقدس) في حرية لم تبرز لديه هذرمن ، ولدى (برخت) الذي أخذ يتنفس دون ضغط ، فقد أعطت ثمارها لدى (آمادو) الذي خلق (غابريلا) كشاعر ، وترك للأدبي فيه أن يتواءم مع الاجتماعي كما يشاء ، وللنسيج الواقعي الاشتراكي أن يختفي - دون أن يموت - وراء الريشة الفنية ! .

وفي (غابريلا) سخر كثير ، وشعر كثير ، وغنى في الاجزاء والنفض كثير ، ليس السخر الرخيص على طريقة (مارك توين) ، ولا الشعر الذي يضيع الواقعي « وراء الغيم » ، ولا الغنى الذي يبيت التيار في المستنقع المشتت . إن لكنه ذلك إنما ينتهي إلى إغناء إنسانية الرواية ، وتوترها الحي . وإذا تراءت الثورة ، (غابريلا) ؛ كإيقاع من القرف والرعب في خلفية الرواية ، فلأن (آمادو) - لعادته - لم يستخدم عينه لترى وقلمه ليكتب فقط ، ولكنه استخدم أيضا ، بكثافة ونار ذات شرر ، روحه الثورية في إطار من الجليلد !

وأما (كנקاس) فقصة أخرى ذات وجه آخر .

لقد تكرر بها ، لدى (آمادو) ، ما سبق أن جرى مع أكثر من واحد من كبار الكتاب ، إنهم يصدرون زمن النضج كتابا صغير الحجم ولكنه متين ، مبلور ، كثيف ، تجتمع فيه ، كالأشعة في المحرق . كل ما علموا من تجربة وعمق أبعاد . كذلك فعل (شتاينيك) في (اللؤلؤة) و (هيمغواي) في (الشيخ والبحر) و (آمادو) في (كנקاس) !

قصة لا فضول فيها ولكنها تركيز مكثف . لكل سكة فيها وظيفتها ومكانها لتنظيم ، الشكل ، الحديث ، المفردات ، كلها تتجه معاً في نسق ذي اتجاه وأبعاد وعمق كيان . وتمضي الرواية في مخطط متين ، بين مستويين متوازيين :

بين البديهي والعجيب . . . بين الواقع والحلم . ويعرف (آمادو) كيف ينسج بين المستويين المتباعدين شخصية (كنكاس) حتى النهاية ! والقصة كلها غريبة ، كأنما هي طرفة حبكها « سادي » ساخر . إنها تركيب رائع لإنسان عادي ، قضى حياته كلها عاديا ، ثم قادته فجأة وقائع الحياة إلى ملاشاة متتابعة لشخصيته . ولكنه يظل يحتفظ ويستخدم على طريقته ، لطفه الإنساني الذي جعله ، حتى بعد الموت ، محبوا . . .

ما صنعه (كنكاس) هو أن ينشئ عالما خاصا به ، عالما سحريا يجره من هذا العالم السوداوي الواقعي . وتسير الرواية في جو سحري كامل ، يناضل فيه (كنكاس) المشتد ليحل محل (كنكاس) المحترم القديم ، يناضل ليحقق مآربه المغلوبة وأحلامه الهضيمة المجهضة !

إن أصالة (آمادو) القصاص تظهر في اختياره بطل القصة : إنها فقط جثة ! وقد مات صاحب الجثة ميتا ثلاثا لست تدري أيها الحقيقية ؟ وأيها التي تعتبر وتصدق ؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يعبر أكثر من مرة تحت إبط الموت ؟ إن (آمادو) ، من خلال هذا الموت الريبي ، يوزع السخر الأسود في القصة . فكلها ضحك مكبوح ، بينما يدور كل شيء حول موقف محدود واحد : الموت ، (آمادو) في (غابريلا) يدرس الامتداد الحياتي ، أما في (كينكاس) فهو يدرس « اللحظة الحاسمة » ، ويستغلها الاستغلال المكثف السبري ، ولأول مرة يتلاشى لدى (آمادو) جو « الشعري » لحساب جو الأسرار ، ويطل من خلال الجو استفهام « ميتافيزيكي » أهنك ميتافيزيك حقا ومشكلة وجودية ؟ وهل ثمت تساؤل عن رجوع الزمن القهقري ؟ وهل يظهر في التحليل الأيديولوجي الأخير تيار مثالي في الرواية هو بقية من قديم (آمادو) القديم ؟ . . . هل ثمت بحث عن المطلق ؟ وهل يستطيع فان ، من نفاية الناس والكحول ، أن يجسد المطلق ؟ مامن شك في أن (آمادو) إنما يرمي إلى السخر ،

والسخر الأسود !

إن أوضح ما في القصة أنها رفض وأنها تفجير لذلك التضاد العنيف الدموي بين الحياة السكونية المنداحة على السطوح ، وحياة السبر الكياني السحيق . الجانب المأسوي فيها يبدأ بعد الموت . والعادة أن يكون الموت نفسه قمة المأساة ! وعامية الشخصيات فيها لاتذهب بكثافتهم النفسية ، ولكنها بالعكس تعطي القصة جوها الفاجع العرم . ان غلاب كينكاس المتشرد ، والرفاق التافهين معه ، لأهله ، للحياة ، للموت ، في وقت واحد ، ينمي القصة النمو الداخلي ، ويعطي توترها الوجودي رنينه العاصف . . . الذي لايتواءم معه ، في النهاية ، سوى لانهائية البحر .

ونستطيع ، على مستوى آخر من النظر ، أن نرى في كينكاس - الجثة رمز الارستقراطية البورجوازية التي ماتت أو تكاد في البرازيل . إن المستقبل للشعب البسيط العادي الذي انتصر أولاً على الحياة « المؤطرة » فانتزع منها كينكاس إلى جو البسطاء ، ثم على الموت ، فنزع عنه - وهو جثة - ثياب الاحترام ، ثم سقاه « البينكا » وأحضره الخوصومة في المشرب ، ثم ساقه في عرض البحر . . . ليضيع فيه على أنه جزء منه !

ولكن هل ضاع كينكاس حقاً ؟ من استطاع أن يعبر أكثر من مرة تحت إبط الموت ، هل تراه يموت أبداً ؟ . . . انه المطلق ! ولعله ليس في القصة البرازيلية المعاصرة من هو أكثر حياة منه !

ولقد يكون « كينكاس » فريداً في مخلوقات (آمادو) ، في بعض ملامحه ، ولكن عائلة تلك المخلوقات جميعا ليست أقل منه نبضا وحركة ، وإيقاعاً إنسانياً . ليست ظلالاً في قصة ميتافيزيكية ، ولاشخصاً من ورق المقوى لمخيلة « قرة كوزية » ، ولكنها أبعاد حياة . . . و (آمادو) لايفتش ، من خلالها ، عن

فلسفة ، أو ماورائية ، أو بكاء رومانسي ، وإن كان يفتح لي ولك ، كل هذه الآفاق وما تشاء من بين يديها ، ومن خلفها ، ومن كل فج إنهم أشخاص ، من مثلاً ، من لحم وعظم وحرارة لهاث . أشخاص يجيئون ، ومن هنا ظاهراً البسيط العادي . ومن هنا مقدار الصعوبة في النفوذ إلى ما وراء ذلك الظاهر ! في التقاط ذلك الترجيع الرحاني من أغوارهم الحية !

و (آمادو) يكتب ، في جميع مايكتب ، قصة التساند الإنساني ، في أوسع أبعادها وأنفذ الأبعاد ، هو عهد عليه ذلك التساند . ولهذا كانت مجموعة مخلوقاته واسعة متنوعة خصبة ، من (بالدوينو) إلى (كينكاس) ، (بادارو) ، (نسيب) (ديمان) ، (الكوماندانة) ، (غابريلا) . . . ألوان وأمداء ونماذج شتى . وكلها من (آمادو) ، وكلها جزء منه . وهو لا يعاملها معاملة الخالق من علٍ ، ولكنه يعيش في تجاوب معها . إنه بعكس (ديكنز) و (إيسادي كيروز) ، لا يخلق الشخصيات كاريكاتورية ، مشوهة ليضحك منها ، ولكنه ينسجم في تعاطف صميمي ، مع مخلوقاته التي أخرج من العدم المظلم ، ومع أن (آمادو) ليس بقصاص طبقة معينة ، ولكن قصاص الوجود الإنساني ، وفي أسطره وفصوله تلتقي اللقاء المعتنق ، الأخوي ، عدة طبقات معا ، إلا أنه ، في الواقع ، يميل إلى عالم الشطار والعيارين والتشرد ! إن (آمادو) القدرة التي ليست لقصاص آخر في البرازيل ، على أن يخرج البطولة من اللابطولة ! إن لديه ، في عالمه ، مجموعة ، لأطرف ولا أحب ، من « الزعران » العياريين ! و«العيار» لا بطل . والقصة « العيارية » نشأت بكل بساطة كرد فعل لابطولي ، على القصص التقليدي^(١) . ولعل شيئا من هذا الميل قد اجتذب (آمادو) إلى هذا العالم الملعون المنكور ، بالإضافة إلى أن الميل « العياري » هو موقف الروح الشعبية البرازيلية ، خاصة حين تريد التعبير عن رفضها للجو

(١) أمريكو كاسترو في كتابه : نحو سرفانتس ص ٨٥ .

الاكليريكي والمسوح الدينية المطرزة ! إن « العيار » بطولة تناقض البطولة التقليدية ، ولا تستمد قيمتها من القيم المتواضع عليها ! قيم « العيارين » والمتشردين . انما تنبع مباشرة من « اليومي » والحياة الحارة . و (آمادو) لا يحاول ، اقل المحاولة ، ان يسبغ « المثالية » أو « العقلانية » على هذه المخلوقات المنسية . لامن تصعيد في قيمها ولا من تثقيف حضاري . الحس الواقعي الحي ، الوجود نفسه ، هو الذي يوجد قلمه . ومن هنا ذلك التوافق العميق بين (آمادو) والذوق الشعبي . وكم اعانت آمادو على ذلك لغته الحريفة العارية ! وكم اعانته على ذلك غنائته الشعرية التي ترتبط بكل اخلاص بحقيقة الحياة والحب والموت !

ولقد يذهب ذات يوم كل مافي باهيا من صراع ، وخلصيين ، وصوفية وثنية ، وخليط إفريقي سحري ، وتاريخ ، وكاكاو ، ولكن باهيا أخرى سوف تبقى معلقة بأسطر (آمادو) . وسواء أكانت صحيحة أم مزيفة شائبة ، فإنها هي التي سوف تبقى . ثمت بجانب المجتمع الحقيقي الذي ينمو ويتقلب في كل بلد ، المجتمع بكل حيوانيته ونبله ، وبجانب الزمن العادي الراكض ، الزمن الذي يملاً ويفرغ حياة الناس ، ثمت مجتمع آخر ومدى زمني ثان يشيان بجانب المجتمع والزمن الحقيقيين . وذلك هو المجتمع الذي يقدمه الفنان ، من خلال رؤيته ومدى ظنه ، وهو الزمن الذي يطلقه للناس عالماً آخر ! أقليلون هم أولئك الاسبان وغير الاسبان الذين يزورون الأماكن التي عاش فيها أو مر أو نام (دون كيشوت) ؟ إن آمادو هو أحد مبدعي العوالم الأخرى والزمن الآخر ! إنه قصاص الشعب . وإن له لرائحة أرضه ، وريا القرنفل والقرفة والنهم الذي التهمت به الجماهير (في البرازيل وخارج البرازيل) ذلك الخبز الفكري الذي يقدمه (آمادو) دليل على اتصاله بمنابع الإنسان ! إنه عملية ارتداد إلى الذات في صميم التكوين - الباياني - البرازيلي ! ليقولن

احيانا بعض النقاد : « إن الأسلوب في (ماشادو دي اسيس) أكثر من الانسان » . إنا نعرف بالعكس أن الإنسان في (آمادو) أكثر من الأسلوب ، وأكثر بكثير .

إن (آمادو) هو الذي ألقى على الشاشة العالمية ظلال البرازيل الغامقة ، نحت النموذج البرازيلي للعيش والنضال اليومي المأسوي ، من خلال أولئك المتواضعين البسطاء في باهيا . أضاف للظلال الإنسانية التي اعطاها أمثال (بلزاك) و (ديكسنز) و (غوركي) ظلاً برازيلياً مميزاً . ولعله يكفيه من (العملاقة) أن ينظر العالم بكل مكان إلى البرازيل ، من خلال شخصوه وعالمه ، ومن خلال (البايانا) الخلاسية التي جرد وخلق !

وتساءلون كيف نجح آمادو في نقل (المحلى) إلى العالمي ، وفي تحويل إقليمية محدودة في فرديتها إلى مقولة كونية شاملة ، وفي جعل أدهبه يترجم إلى ٣٣ لغة ؟ أهى شيوعيته الأولى أم ثمت عناصر أخرى دفعت إلى هذه العالمية ، أو أسهمت على الأقل في ابرازها ؟ يبدو أن خليطاً من البواعث قد فعل فعله . وإذا كانت « شيوعيته » التي هتت الآن كثيراً كانت هي الأقوى أول الأمر ، وهي التي جعلت اسمه عالمياً ، بينما ظل اسم غيمارايش دي روزا أوجوزيه لويس دوريجو محليين ، رغم انها ليسا أقل روعة منه ، فإن ما أعطاه التفرد والاستمرار في السمعة هما أمران : أسلوبه الخليط من الواقعية الاجتماعية ، والشعر الملحمي من جهة ، والطبيعة الفريدة ، من جهة أخرى ، لهذه المنطقة التي يستقي منها رواياته : باهيا ! . . . هذا الاسم أضحى ، لافي البرازيل فحسب ، ولكن في كل مكان ، يثير أجواء خلاسية ملونة يختلط فيها الصوفي بالشهواني ، والتنصير بالبدائية الافريقية ، والليالي الاستوائية على قرع الطبول بقرع أجراس الكنائس ، وأقصى القحط مع المد اللانهائي من نصب السكر والقطن والككاو . ويلتقي فيها « جميع القديسين بجميع الخطايا » ، والفولكلور الزنجي

بطقوس الكنيسة ، وأطياف الإسلام ومسيحة الناسك العجوز بالخلاسية التي تتلوى على الشاطئ !

٥ (كارلوس دروموند آندارد) (ولد في سنة ١٩٠٢)

أشهر شاعر برازيلي حي . وأكثر شعراء البرازيل المعاصرين صفاء . وأهم الثلاثة في الثالث اندراده (كارلوس واوزوالدو وماريو) . ولد كارلوس دي اندراده في ولاية ميناس جيراييس ، منطقة المناجم القديمة في مطلع هذا القرن . وقد عشق العلم مبكراً وعشق الصحافة . كان ما يزال في التاسعة عشرة من العمر حين بدأت أولى مقالاته تنزل في الصحف وماتزال إلى اليوم تنزل ، وثلاث مرات في الأسبوع . يرفده في ذلك ثقافة واسعة ، وعين لمحة متنوعة الاهتمام كل النوع ، ومعرفة حسنة جيدة بالفرنسية والاسبانية وبعض الانكليزية .

حين بدأت معركة التحديث سنة ١٩٢٢ كان في العشرين من العمر ، وقد خاضها بكل حماسة الشباب وكل حيويته . انضم إلى الأصوات التي أطلقها ازوالدو وماريو اندراده (وليس بينهم من قرابة) . أدرك بحدسه الفني أن المدرسة التي بزغت هي مدرسة المستقبل فانضم إليها . وحين أعلن بيان اوزوالدو عن شعر البالو - برازيل سنة ١٩٢٤ ، ثم بيانه الآخر عن أكل لحوم البشر سنة ١٩٢٨ ، كان كارلوس أيضا معه يحمل اللواء . . .

وفي هذه الفترة عرف كارلوس بأنه شاعر ، ومن شعراء الطليعة الثائرة . فقد كانت قصائده تحمل أحيانا محل مقالاته في الصحف . وتتميز بالايقاع العميق ، وبالبحث عن الشكل الجديد في التعبير ، والغوص في أعماق الذات . ويقول عن شعره : « في الأساس كان الشعر بالنسبة إلى وسيلة لتسوية مشاكل

الوجودية . إن قول الشعر هو طريقي الخاصة للاسترخاء على الموضع ، وإجراء تحليل نفسي » !

وشعر دروموند متحرر من كل قيد في اللغة أو القافية ، وحتى في الاخلاق او الجمال ! إنه لا يبتذل في القصيدة إلا ذلك التوازن الصنمى بين الحالة الغنائية الداخلية والتعبير . التعبير اللغوي الدارج . لهذا كانت موضوعاته الشعرية متفرقة شتى ، وتتناول كل شىء حتى ما نتصوره تافهاً ومبتذلاً : الآلة ! العمل ، الطريق المرقوش بالزيت ، مذن علب السردين ، موسيقى الجاز . . . عالم اللاشعور . . . كل همه أن يصل عن طريق الشعر بين الحياة الحديثة والإنسان . وقد تصعب قصيدته وتصعب حتى تنغلغ على الفهم . ولكنها تظل تحمل من دعابته المراهقة ، ورقة شعوره ، ولغته الأسرة ، ما يجعلها شعراً من الشعر ! وفي حفلة تكريمه بمناسبة عيد ميلاده الثمانين كتب قصيدة بعنوان آبالافرا

(Apalavra) (الكلمة) قال فيها :

كل ما أبحث عنه هو الكلمة !

التي لن تكون موجودة في المعجم

ولا يمكن اختراعها !

وبقدر ما برز دروموند كشاعر وكاتب برز كمترجم رائع . ترجم عدداً من أعمال مولير ، ويلزك وبروست عن الفرنسية ، كما ترجم غارسيا لوركا عن الاسبانية . ولقد أفاد من تحليلية بروست (في البحث عن الزمن الضائع) ، ومن شاعرية لوركا ومسرحياته الكثيرة .

وهو إلى هذا وذاك موسيقى أيضاً . وله ألحان معروفة وصداقات عميقة مع الموسيقيين . وقد قال أنطونيو كارلوس حويم مؤلف لحن « البوسانوف » (الموجة الجديدة) المعروفة . « لا أعرف كيف كان ممكناً أن تكون حياتي بدون دروموند . إنه أعظم شعرائنا ولكنه فوق ذلك صديقي . . . »

ودروموند إلى هذا كله قصاص فنان ، لكنه اقتصر على القصص القصيرة المركزة . وحكاياته تنتهي قبل أن تبدأ ، لأنها تتجه رأساً ودون مواربة إلى الهدف . إنه بارع في مقاومة الرغبة في ارضاء الناس في هذه النواذر السهلة المباشرة التي يرونها ، والتي يتخفف فيها من هالته القدسية ، ويهجر المسافة التي يخلقها العمل الروائي المكتمل بين الفنان وجمهوره ، ويعرض نفسه دون قناع أمام الناس متحاوراً مع قارئه ، ومداعباً إياه في تحبب نافذ يقول : « لست إلا إنساناً . . . ولكنه ينجح في جعل المشكلات التي تناوئها تعكس بشفافية كالبلور صورة شعب كامل . صحيح انه ليس اكثر من « انسان » عادي ، ولكنه إنسان مشارك ببؤس معاصريه حتى العظم . ومن هنا كان ذلك التجاوب الحميمي بينه وبين قرائه الذين غالباً مايفتحون جريدة الصباح وهم يتساءلون : عن أي شيء سوف يتكلم دروموند اليوم ؟

وأخيراً فإنه كاتب يوميات ومؤرخ اليومية بالمعنى الحديث للكلمة ، صارها حرفها النبيل منذ عاناها معلم الابداع النثري ماشادو دو أسيس في القرن الماضي ، في دون كازمورو (Don Casmurro) هذا النوع الأدبي صار من ميزات وتقاليد النثر البرازيلي ، ومن أشدها حيوية . وقد يكون ذلك من تأثير النثر الفرنسي وفرانسوا مورياك في « دفتر تعليقاته » ، وجيد في « صحائفه » ولكن اندارده خطأ بهذه اليوميات خطوة أخرى فجعلها تاريخياً لكل شيء ، لا على الطريقة التقليدية للمؤرخين وطرائقهم القديمة في علك الأحداث ولكنها يوميات اشبه بالمقالات الكاملة ، تحوي عرضاً حراً لمختلف المواضيع ، واشدها تباعداً وتنوعاً . إنها في مجموعها سجل يومي تاريخي لا أطرف ولا أعظم . ودروموند يقدمها ثلاث مرات أسبوعياً منذ سنة ١٩٤٥ . كان حتى سنة ١٩٦٨ يكتبها في كوريودو مانيا (Correo de manha) (بريد الغد) وهو منذ ذلك الوقت الى اليوم وقد جاوز الثمانين بسنوات . يكتبها بانتظام في (Journal do Brasil) في

ريودي جانيرو . ويختار منها مرة بعد مرة بعض النصوص فيطبعها في مجموعات وتقرأ هذه التأملات فلا تجد من رابطة تربطها سوى صفاء النظرة والإصرار على رفض شقاء الناس . وهي تارة مسلية ، وطوراً ساخرة ، وأحياناً مؤثرة لكنها ليست حيادية ابداً . إنها موقف . وسواء أروى دروموند تاريخاً حقيقياً أم قصة متخيلة ، أم كتب تحليلاً ، أم علق على قضية هامة ، أم حتى صاغ قصيدة لإحدى المناسبات ، أم كتب بعض ذكرياته عن ميناس جيرائيس القديمة باحثاً - كما يقول - في ادراج حاجات قديمة ضائعة ، فإن أوراقه اليومية تحفر في الذات أمام ابتذال الأخبار وجفافها . إنه يكتب في التحليل الذاتي الباطني كما يكتب في الشقاء الأسود لأطفال الشارع ، أو في خروج البرازيل من مباريات التصفية لبطولة كرة القدم عام ١٩٨٢ ويقول : « إن البرازيليين يعيشون سكارى بأوهام كرة القدم والكرنفالات »

لكنه يظل يثير اهتمام الناس ويأسر الانتباه .

إن الملايين من البرازيليين حين لا تكون لديهم حيلة للخروج من مأزق يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون بصورة عفوية رتيبة :

- والآن ياجوزيه ؟ (? Y agora Jose)

إنهم لا يعرفون أنهم يرددون كلمة الشاعر دروموند نفسها التي جعلها عنواناً لقصيدة تحكي موقف اللامبالاة ، واليأس الكسيح اللذين يتميز بهما الناس من حوله . تقول القصيدة :

والآن ياجوزيه !

ماذا ستفعل ؟

الحفلة انتهت

والأنوار قد اطفئت

والناس قد ذهبوا

والليل أخذ يبرد

والآن ياجوزيه . . . ماذا ستفعل ؟

ومع أن دروموند رجل منغلق ، متحفظ أمام هجمات الشهرة فقد اقيم له في عيد ميلاده الثمانين سنة ١٩٨٢ في البرازيل مهرجان تكريمي . وأصدرت المكتبة الوطنية كتيباً حول ماسمته « بالحدث السعيد » هو بمثابة الفهرس لأشعار هذا الشاعر ، وقصصه القصيرة ، ومقالاته الصحفية ، وترجماته ، وألحانه . وخرجت الصحف ومحطات التلفزيون ، والإذاعات بالمقالات الوثائقية المطولة عن دروموند ، تسلط الأضواء على مواهبه وتخلدها ، وقد رشح لجائزة نوبل سنة ١٩٦٣ ولم ينلها . إلا أن الناس ينظرون إليه في البرازيل وكأنه نالها . لكنه يكره الحديث في هذا الموضوع . وقد قال في إحدى المناسبات النادرة التي ظهر فيها خارج شقته المكتظة بالكتب أثناء احتفال المكتبة الوطنية به ، وعرضها بعض نتاجه الشعري والنثري : « إنني لست شهيراً للدرجة التي تذكرون . . . إن شعبي لم تبلغ ولن تبلغ أبداً مستوى بعض نجوم كرة القدم أو الغناء » .

وقد أراد محافظ ريودي جانيرو : خوليو كوتينيوكريم دروموند بإطلاق اسمه على أحد الشوارع ، لكن القانون البرازيلي يمنع تقديم هذا التكريم للأحياء ، فما كان من المحافظ إلا أن اطلق على الشارع اسم (روزا دروبوفو) (Rosa do povo) (وردة الشعب) وهو عنوان إحدى قصائد دروموند ! وقد قال عنه الكاتب البرازيلي الفونسورومانودي سانتانا الذي قدم اطروحة عنه في جامعة كاليفورنيا : « إن دروموند هو صاحب أعظم مجموعة شعرية في الأدب البرازيلي . وهذه المجموعة هي من أهم الأعمال المماثلة في العالم » . وقد يكون في هذه الكلمة بعض المبالغة ، ولكن مامن شك في أن فيها الكثير من الصحة . وبالرغم من أن البرتغالية التي يكتب بها دروموند لغة غير منتشرة عن سعة ،

ولا يتكلمها عدا البرازيل إلا البرتغال ، وبعض مستعمراتها السابقة في افريقيا والهند ، فإن دروموند معروف في أوساط المثقفين وطلاب الأدب في أوروبا . فقد ظهرت ترجمات العديد من أشعاره بالإنكليزية في مجلة نيويورك الأمريكية وغيرها . كما ظهرت في اللغات الإسبانية والفرنسية والألمانية والهولندية والتشيكية والسويدية . ولا شك في أن الفهرس الذي اصدرته المكتبة الوطنية في الربو سيكون مصدراً لأبحاث كثيرة تكتب عنه في البرازيل وفي الخارج .

٦ (اوزوالدو دي اندارده ١٨٩٠ - ١٩٦٩)

كان ، رغم وداعته مع الأصدقاء ، رجلاً من نار ودخان . كتلة أعصاب قابلة للالتها ب كل لحظة ، وعقلية صدام مستعدة على الدوام للهجوم وإنشباب المخالب ، ولكنه في الوقت نفسه كان يؤمن بالبرازيل حتى آخر نقطة في دمه ، وهذا ما جره إلى العودة للجدور الأولى لها : إلى الغابة والهندي . ومع أنه ارستقراطي التربية والنشأة إلا أن هوسه بالفنون جره إلى أقصى اليسار . وكان الإخلاص المطلق للذات سبيله الدائم حتى عندما يتحول بفكره من النقيض إلى النقيض !

كان الحدث الذي دفع بأوزوالدو إلى واجهة الأحداث الأدبية في البرازيل هو « أسبوع الفن الحديث » الذي جرى في المسرح البلدي بسان باولو بين ١ - ١٨ شباط (فبراير) ١٩٢٢ . كانت هناك محاضرات نظرية ، وقراءة نصوص ، وحفلات موسيقية ، ومعارض فنية فيها جميعا الكثير من الجرأة ، والكثير مما يصفع الذوق العام . الجمهور الذي شهد تظاهرات الأسبوع كان في مجمله من الطبقة البورجوازية التي كانت تسخر مما تشهد في مرح لا يخلو من اللامبالاة . كذلك - على الأقل - قالوا عن الاسبوع .

وكان هذا هو الحدث الذي أطلق حركة التحديث في البرازيل . بين المشجعين على هذه التظاهرات الفاضحة كان اوزوالدو دي اندارده الشاعر المشاغب^(١) . وكان ذا مزاج وافر الحيوية ، مولع بالجديد ، وعقلية جدلية . كما كان مهياً لأن يصبح أبرز الشخصيات وأكثرها جدلاً في الحركة التي قاد أفكارها حتى أبعد مدى ممكن .

كان سليل أسرة غنية وتلقى تربية نموذجية لسيد شاب يعده أهله للمستقبل . في سنة ١٩١٢ ، وكان في الثانية والعشرين ، قام بأول جولة له في أوروبا حيث تلقى المعلومات عن المستقبلية ، والدادائية . . . حين عاد للبرازيل سنة ١٩١٧ تعرف على الكاتب ماريو دي اندارده (ولا علاقة قرابة تربطه معه) والرسام ، دي كافالكانتي اللذين اقتنع معهما بفكرة الأسبوع .

بين ١٩٢٢ - ١٩٢٥ قام اوزوالدو بعدة سفرات إلى باريس حيث عقد علاقات مع لاربو ، كوكتو ، ساتي ، راديفيه ، جول رومان ، سندراس ، سوبريفيل . وفي مرسوم زوجته المقبلة تاسيلادو آمارال التقى مع الرسامين ليجيه ، كلايز ، بيكابيا ، وخاصة بيكاسو . وفي سنة ١٩٢٣ قدم في السوربون محاضرة حول (الجهد الفكري للبرازيل المعاصرة) .

وفي سنة ١٩٢٤ اقترح اوزوالدو أن يطلق ما خيل إليه أنه الفكرة الرئيسة لأسبوع الفن الحديث : الدفاع عن الفن الوطني الذي هو في وقت واحد بدائي وجديد . فنشر بيان بالو - برازيل (خشب غابة البرازيل) وقد وصفه في ديوان شعري : (قصائد) هي مقاطع من الشعر الحر ، مستوحاة من المؤرخين البرتغاليين الأولين الذين وصفوا الأرض التي اكتشفوها يومذاك .

(١) اخذنا بعض القسم التالي من ترجمة اوزوالدو دي اندارده عن مقال (تاريخ التهام) المنشور في المجلة الأدبية الفرنسية (Magasine Littéraire) العدد ١٨٧ لسنة ١٩٨٢ .

كانت حركة (خشب البرازيل) (مثلها كممثل الحركة الكبيرة للأسبوع)
تقترح عودة إلى المنابع الوطنية . وكان يهددها خطر انحرافي هو أن يتجه المفهوم
إلى الوطنية اليمينية . ولكن اوزوالدو اتخذ رأساً أبعاده الكافية عن الحركات
الفاشية ، تماماً كما سوف ينفصل فيما بعد عن أولئك الذين سيندمجون مع
الروحانية الكاثوليكية .

وفي مايس سنة ١٩٢٨ ظهر أول عدد من مجلة الانثروبوفاجيا (أكل لحوم
البشر) التي أضحي اوزوالدو محركها الأول . وهذه المجلة وجهان يدعيان
(بالأسنان) :

الأول : في شكل مجلة (من عشرة أعداد) والثاني : بشكل صفحات خاصة
من الجريدة اليومية (دياريو دو سان باولو) (٦ أعداد) .

منذ العدد الخامس ظهر على المجلة الشعار : « لسان حال الانثروبوفاجيا
البرازيلية للأدب » .

لكن الوجه الثاني كان بوضوح أكثر جذرية من الأول . واوزوالدو هو الذي
اعطاه هذه اللهجة الهجومية . وكان يتدخل فيه تحت مختلف الاسماء المستعارة .
ماريودي إندراده مؤلف الرواية « الانثروبوفاجية » (ماكونيا) ساهم في العمل
ولكن في أوقات متفرقة . كما ساهمت فيه شخصيات أخرى من العاملين بالفن ،
ولكنهم انتهوا بأن اصطدموا مع اوزوالدو . . .

وليس يعرف بالضبط كيف تمت تسمية الحركة باسمها « الحركة
الانثروبوفاجية » : ثمت نكتة تقول إن اندراده ارتحل أثناء عشاء محاضرة كان
يدافع فيها عن بعض النظريات التي تقول : بأن الإنسان تندر من الضفدع ، وأن
زوجه تارسيلا دو آمارال علقته بأن أكل الضفادع هو إذن ممارسة لأكل لحوم
البشر . واستخرجت من ذلك لوحة عنوانها آبابورو (Abaporu) أو

« الانثروبوفاج » وكانت هذه اللوحة أول عمل في الحركة . وعلى أي حال فإن حركة « الانثروبوفاج » كانت نتيجة بعض المقترحات المتجهة الى « البدائية » وإلى « الوحشي » في العصور السابقة . (الأسبوع ، البيان ، خشب البرازيل) كلها كانت مظاهرات في الاتجاه نفسه . بعد ذلك تبلورت الفكرة النواة ، وتطورت بسرعة ، وفي قوة مدهشة ، في المجلة ومن حولها ، لتنتهي بأن تصبح شبه نظرية متماسكة طموح ، ولتنتج بعض الاعمال الأساسية في الأدب وفي الفن البرازيلي . لكن المناهضة لهذه الحركة كانت تزداد وتعلن في الوقت نفسه حتى أغلقت المجلة . أما المجموعة نفسها فبعد أن سقطت السقوط المريع ، في معسكر الأعداء ، اتجهت نحو الانحلال الذاتي .

وتأتي سنة ١٩٣٠ فتشكل انعطافاً نهائياً في « الانثروبوفاجية » . فالحركة الليبرالية حملت جوتوليو فارغاس إلى الحكم . أما اوزوالدو وباتريسيا كالفان فدخلا الحزب الشيوعي ! وأعلن اوزوالدو أنه كان في حركته « مهرجان البورجوازية » وألعبتها . وبدأ مرحلة من التطهير لم يتخلص منها طول حياته

على أنه في سنة ١٩٤٥ قطع صلاته مع الحزب الشيوعي ، واتجه بأنظاره إلى الجامعة ، حيث عاود تأملاته حول الانثروبوفاجية من جديد . ولاحظ أنها لم تكن مجرد مرض « الحميراء » التي تصيب اليافعين ، كما كان يقول هو نفسه أيام انخراطه في الحزب الشيوعي ، ولكنها قد تكون أكثر الأعمال أصالة وحياة وحيوية في الحركة التحديثية . وغذى نظرياته بتأملات اقتبسها من الفرويدية والماركسية دون أن يتخلل عن دعاياته وعن موهبته ككاتب .

وفي نهاية حياته ، قُبِل اوزوالدو من الناس ولكن لم يعترف به على أنه مبدع . قالوا إنه « ذكاء كبير مبدد » وجهة النظر هذه هي الآن قيد التغير نتيجة عدد من الدراسات قام بها نقاد أكثر عمقاً واتزاناً . وقد اعترفوا له بمكانه في الأدب

البرازيلي . قيمة نظريته تبدو خاصة ، وقبل كل شيء ، في الأعمال الفنية التي ظهرت تحت شعارها . ماکوناييا : رواية ماريو اندراد هي أكثر الأعمال تمثيلاً « للانثروبوفاجية » . وقد بقيت قوتها ناشطة كما تشهد بذلك الاقتباسات السينمائية والمسرحية التي أخذت عنها . ويجب أن نسجل أن كثيراً من ملامح ماکوناييا قد أوحيت إلى المؤلف من شخصية وسلوك أوزوالد اندراد نفسه الذي كان بهذا الشكل وبمختلف المستويات بطل حركة الانثروبوفاجية .

أما أعمال أوزوالدو نفسها : المذكرات العاطفية لجوان ميرامار : (*Memorias sentimentais de Joao Miramar*) (وسيرافيم مونته غرانده) (*Serafim Monte Grande*) فهي قصص انثروبوفاجية لافي الموضوعات ولكن في الكتابة نفسها التي تلتهم الواقع المعاش الحي المعقد لتجعله يتحول في محاضرة متقطعة ، إلى نقاط تلغرافية وتكوينات خاطفة ، تعكس تعددية وجهات النظر وحركيتها ، مع الاستخدام الخاص للتهكم والمحاكاة الهازقة . إن ميرامار وسيرافيم هما أحسن الأعمال الممثلة لما قد يكتب من قصص في الأدب البرازيلي المطبوع بطابع الكرنفال وتراث أوزوالدو اليوم موزع في أماكن عديدة . في الخمسينات التقطته حركة الشعر المجسد ، وأقامت له الصلة بما كانت تعمل ، بوصفه من الطليعة في جميع البلاد . وأما إخراج مسرحية (ملك القنديل) سنة ١٩٦٧ من قبل جوزيه سيلسو مارتينز كوريا (J. Selso) (*Martinez Correa*) فقد أعطت المسرح البرازيلي دفعة تجديدية جديدة . كما أن الوحي الانثروبوفاجي واضح أيضاً في « السينما الجديدة » وخاصة لدى غلوبير روشا (*Glauber Rocha*) وفي الموسيقى الشعبية في حركة التروبيكاليا التي يقوم عليها : (*Gilberto Gil*) و (*Caetano Veloso*) .

وأخيراً فإن التقاء الموسيقيين الشعبيين مع الشعراء التجسديين (هارولدو وأوغستو دو كامبوس) إنما كانت تحت شعار أوزوالدو . إن هذه الحركة تؤكد

دون تردد أن القصيدة البرازيلية الآن إنما توجد في كلمات كايتا نوفيلورزو الموسيقي الشعبي الذي يحقق الأعجوبة بأن يكون الإنسان شاعراً رائع الابتكار ، مرهف الحس ، وأن يكون في الوقت نفسه أكثر شعبية مما كانه أي شاعر ينشر شعره في الكتب .

لقد تحققت نبوءة أوزوالدو إذن : « الشعب سيأكل ذات يوم الكاتو الرهيف الذي أصنع » . تحققت ولكن بعد أن مات سنة ١٩٦٩ .

(٧) جوان غيمارايش روزا

(١٩٠٨ - ١٩٦٧)

هو أكبر روائي في اللغة البرتغالية في هذا العصر . . . هذا على الأقل ما يقوله النقاد !

أحدث انقلاباً في النثر الأدبي البرازيلي ، وفي الرواية ، وفي اللغة ، في الوقت الذي رفع فيه « الإقليمي » المحلي ليجعله في مستوى العالمي .

ولد غيمارايش روزا سنة ١٩٠٨ في منطقة السرتون ، منطقة الأرض المتشققة من الجفاف والقحط المتصل . وأسرته ميسورة الحال . وقد درس الطب وعمل في مجاله طبيباً في ميناش جيرائش وغيرها . لكن منطقتة كانت تعيش في ذاته وتتنفس ، الطب لم يشغله عنها . كما لم يوجه أنظاره إلى المواضيع التي تثيرها معالجة المرضى ومعاناة الأدوية . كان حيثما ذهب يحمل من السرتون أمرين : واقعها المأسوي ، ولغتها المتفردة الخليط ، وقد نسج من الاثنين نسيجه الفريد في الأدب الروائي .

كان واقع ذلك العالم الريفي المرهف قائماً موجوداً يفرض نفسه على السياسي والثوري ، كما يفرضه على الفرد العادي ، فلم يكن بإمكان الفنان أن يتجاهل

مافيه من التحدي والإثارة . ولهذا جعل غيمارايش من هذا الواقع وسيلة لرؤية روائية متعددة الأبعاد تذهب إلى ما وراء المعطيات والأحداث . . .

ولما كانت منطقته إحدى المعازل الأخيرة التي يلتقي فيها الالتقاء العنيف لغة الهندي بلغة الزنجي وبالبرتغالية أكثر من أي منطقة أخرى في البرازيل ، فقد تركت هذه التركيبة اللغوية بصماتها القوية في طرق تعبيره ، ودفعته إلى الايغال في جيولوجية اللغة ، وتكويناتها الأولى لا بوصفه لغوياً ، ولكن بوصفه أديباً وروائياً . ومن صورة إقليمه في عينيه ، ومن صيغه اللغوية في صدره ، صاغ غيمارايش أدبه المثير . تزواج العنصر الاجتماعي المحسوس لديه مع العنصر اللغوي العتيق . ومن التحليل العميق لللاثنين ، والايغال الخالص فيهما ، كان يصنع روائعه الخاصة به .

في سنة ١٩٤٦ طبع مجموعة من أقاصيصه الإقليمية اسمها (Sagarana) وقد تلقاه النقاد بالضجة البالغة . لكنهم أجمعوا على اعتباره قصصياً مختلفاً عن الآخرين سواء في تكوين القصة أم في بناء الجملة ، أم في استخدام اللغة . وقد ظل غيمارايش يطور مسيرته على مدى السنين ، ويعمق خطوطه في سلسلة من القصص الطويلة التي تنتهي بأن تجتمع في روايات مثل :

جوقة الرقص Corpo de baile

- السرتون الكبير (دروب)^(١) Grand - Sertao (veredas)

اللتين طبعهما سنة ١٩٥٦ فكان صدورهما حدثاً أدبياً هاماً . وطبع قبل ذلك عدة روايات أخرى مثل : بوريتي (Buriti) ، وديادوريم (Diadorim) ،

(١) ترجمت روايات غيمارايش جميعاً إلى الفرنسية ، وقد أخذت هذه الرواية فيها اسم ليالي

السرتون ١٩٦٢ (Ed . le Seuil) كما ترجمت بوريتي وديادوريم (Ed Albin Michel 1965)

والسهول العليا (Ed.le Seuil 1969)

ريو بالدو (Rio baldo) ، السهول العالية (Altos planos) ، وحين نشر مجموعة قصصه : (Os primeros historias) في سنة ١٩٦٢ أثارت المجموعة ردود فعل عديدة هامة ، وشهد عدد من النقاد بأن محاولات غيمارايش في الكتابة ليس لها شبيه بالبرتغالية ، ولا بالاسبانية ، ولا بالفرنسية ، فقد كان يبحث باستمرار عن طريقة في التعبير تروى حكاياته رواية أفضل ، وتعطي المزيد من الحقيقة والدقة إلى أبطاله ، وإلى المشروع الأدبي الذي يحتضنه . إنه يحاول أن يصل إلى المعاني الأولى لكلمات القبيلة في الوقت الذي يجعل فيه كائناته التي يصور تتكلم دون صوت . كان يريد كالآخرين من الكتاب أن يخرج شخصيات مألوفة لديه ، ولكن على طريقته . ويريد خاصة أن يجعلهم يتكلمون ليفسر صمتهم الأبدى المسحوق بسيطرة من يملكون السلطة ، وبالتالي بسيطرة من يملكون اللغة المتعارف عليها .

وروايته السرتون الكبير تعتبر أعظم رواياته وأكثرها عمقاً وتمثيلاً لأدبه . وهي تقوم على أساس من الحكاية الشعبية . التقط غيمارايش المادة الأولية لها من شفاه عمال المناجم أيام عمله طبيباً ريفياً في ولاية ميناش جيرايش . كانوا يروون على اللون والتعب حكايات شعبية يقطعون بها الأمسيات الطويلة ، وقد التقطها غيمارايش سعياً إلى انقاذها وتجديدها . هذه المنولوجات الغنائية للرواة الشفهيين كانت كنز ، وكانت نموذجاً في السرتون الكبير . وهو يركز اهتمامه فيها على حكاية شاب يبحث عن هويته من خلال هوية أبيه المجهول . وقيم الرواية ابتداء من رؤية دينية في الأساس حين يعتقد ياغونزو فاوستو (Yagunso) (Fausto) (وهذا هو اسمه) أنه عقد حلفاً مع الشيطان فهو يضطرب بين الرب والشيطان ، وأن له علاقة جنسية مع شاب آخر هو بمثابة ملاكه الحارس ، فثمت صدامات لهذا الحب الشاذ في ذاته (وقد كرر غيمارايش ذلك في ريو بالدو الذي توقظ فيه دياودورين ، المرأة المتخفية في زي رجل ، عاطفة لا يستطيع

الاعتراف بها) ومن خلال هذه الشخصية الرئيسة الشاذة الخارجة عن المألوف تقدم الرواية بالرغم من مؤلفها صورة مشوهة لمجتمع في حالة غليان ، مجتمع يشكل ويشوه نفسه باستمرار .

وتبدأ رواية السرتون بمونولوج البطل الشفهي مما يسمح لغيما رايش باعطائها طابع الحديث الشخصي . وهو يضيف إلى الاعتراف الداخلي ، التدفق الحر للرواية كي يروي ما رأى وما سمع . وهذا ما يقرب الرواية بدورها من البنية الشعرية ، وتدفعها الإيحائي . وهذا بالضبط ما يميز قصة ريوبالدو المونولوجية الطويلة التي « تسمع أكثر مما تقرأ » .

وموضوعات غيما رايش في مجلتها موضوعات إقليمية ، استمدتها من السرتون المعشش في ذاته . ولكن ما يعطي محاولة غيما رايش طابعها الخاص ، وما يميزها عن محاولات معظم الكتاب الآخرين الذين ندعوهم بالإقليميين هو نوعية كتابته ، ودقتها الصارمة ، والابداع الثير في عمله اللغوي .

لقد تنكب غيما رايش دروب الواقعية الاجتماعية والوثائقية ، لم يكتب صوراً دقيقة مثيرة للواقع المأسوي الذي يرى ، ولكنه كتب هذا الواقع في أشكال من التعبير حديثة ، وإن تكن مألوفة موجودة ، وذلك بتركيب الكلمات وتفكيكها وإعادة تحميلها من جديد بالمعاني . الوسائل التعبيرية التي اهترأت بالاستعمال ، والتي أضحت عتيقة أثرية أعاد شحنها بالروح عن طريق بعض السوابق واللواحق والصيغ . واستعمل عدداً من الوسائل المبدعة لاستدعاء الخصب في الكلمات ، ولإعادة تشكيلها ، أو ابتكارها الخالص ، وجعلها تنطق بما يريد . . . كل ذلك دون أن يسيء إلى أمانة اللغة التقليدية . كان يخلق لغته الخاصة . لقد وصل الغاية في الغنائية الاستبطانية عن طريق ابتكاره المستمر للالفاظ ، وسماته التجديدية في تركيب الجمل والتهجين في النص الذي يمضي من التعبيرات العتيقة إلى التعبيرات المستحدثة ، وإلى تقطيع الكلمات . إنها لغة

غيمارايش وحده ! وإحدى المهام الأساسية للكاتب هي أن يخلق لغته ، وأن يعيد تكوينها أو اكتشافها .

حتى على المستوى الشعري - وغيمارايش شاعراً أيضاً - استخدم نسيجاً من القوافي الداخلية ، والاصداء ، واللوازم ، والترابطات الحرفية بحيث يصبح تأثيرها الأخاذ على القارئ كافياً بشكل حاسم لتثبيت الصور الشعرية التي يريد ويصور . وإن كانت هذه الصور في معظمها صوراً مادية مألوفة .

في الوقت نفسه أوغل غيمارايش بعيداً في الماضي السيكولوجي لمنطقته ، وفي زمنها الذهني ، وفي التوافقات الروحية بينها وبين مناظرها لدرجة الوصول إلى النموذج البدائي للإنسان . لقد تجاوز الواقعية ليعطي كثافة جديدة لمعنى الواقع ، معبراً عن حس أصيل بالحقيقي ، من خلال الصورة المتخيلة . وبدلاً من أن يدور حول المآسي يصورها تصويراً غنائياً تسجيلياً ، مثل جورج أمادو ، اندفع قلباً وروحاً في الرائع الإقليمي يغرق في أبعاده المثيرة ، الشورية حتى النهاية ، ويجد فيها عناصر تصلح مادة لاهتمام عالمي . وبذلك نجح في أن يلغي الواقع الإقليمي لينقله إلى مستوى القيمة العالمية . في أن يفجر المحدود ، ويعطيه قيمة اللامحدود . في أن يمنح الضيق الشديد الضيق معنى واسعاً مختلفاً كل الاختلاف . وبهذا الشكل صار الإقليمي عالمياً بأوسع معاني الكلمة . . . وذلك أيضاً دون أن يشوه الصورة الإقليمية الفساجة ، أو يحورها ، أو يسيء إلى مواصفاتها .

ماشادو دو اسيس سبقه في هذا المجال ، وأوضح كيف أن بلاداً دون ثقافة كالبرازيل تستطيع أن تخلق أدباً عالمياً بتحاشي اغراءات البلاغة السائدة في عصره ، وكانت اغراءات من الصعب أن تقاوم . غمارايش تجاوزه بخلق لغته الخاصة به

وبذلك أصبح أكبر روائي معاصر في اللغة البرتغالية .

وإذا كان أدب غيمارايش يستقي من منبعي الواقع واللغة ، وتشغله مشكلتنا الموضوع والشكل ، فإنه بدوره أيضا يتميز بميزتين :

الأولى :-

أن قارئ غمارايش مدعو باستمرار إلى أن يسهم معه في صنع الرواية . مدعو باستمرار لأن يترك دور المنفعل السلبي الذي يعيش خارج الحدث يراقبه ، وهو مضطر إلى المشاركة في الرواية ، وإلى لعب دوره في استباق الحدث أو مرافقته أو ملاحقته .

الثانية :

أن غيمارايش ينطلق من مفهوم روحي ديني . السرتون الميتافيزيكي عنده مسيطر في خلفية السرتون المادي . العقيدة الكاثوليكية وإن كانت غير ملموسة وكانت تخفي لديه وراء عدد من الاستار ، فإنها مبثوثة في الجو العام لقصصه ، وذات جذور عميقة فيه كل العمق، ومن خلالها يجب أن يفهم .

ويبقى بعد هذا أن أدب غيمارايش عصى على الترجمة حتى إلى الإسبانية ، وهي أخت البرتغالية ، بسبب من لغته ، ولعبه بالتراكيب والجذور ، وتلاعبه الدقيق بالمعاني ، وطرق تركيبه للصيغ . روايته (السرتون الكبير) رغم أنها نشرت في البرازيل سنة ١٩٥٦ ، وأخذت حظها من الشهرة فيها ، إلا أنها لم تعرف الشهرة في أمريكا اللاتينية إلا بعد سنة ١٩٦٧ ، وبعد أن ترجمها إلى الإسبانية أنخل كرسيو . لم يكن العائق هو صعوبة النص الروائي ، ولكن حاجز اللغة العنيد . وقد ترجم . بعد ذلك عدد من رواياته إلى الإسبانية ولكن ماترجم منها إلى الإنكليزية أو الفرنسية مثل : (Buriti) ، والسرتون ، وديادوريم ، والسهول العالية ، تظل تفتقر إلى الإيضاح ، ولا يتذوقها بعمق إلا من يعرف البرتغالية أو يلم بها .

وبالرغم من حاجز اللغة العنيد فقد استطاع غمارايش أن يؤلف تركيباً روائياً يرضى الفكرة المسيطرة في الأدب البرازيلي ، والتي تحمله من أمره رهقاً ، وهي أن يحتفظ بطابعه الذاتي وبتفاصيل واقعه الخاص بوصف ذلك كله مبرراً له وتعريفاً به ، وأن يتطلع في الوقت نفسه ، ويصل الى عالم القيم التي يمكن أن يفهمها المجتمع العالمي . هذه النقلة إلى العالمية هي التي وضعت غيمارايش روزا في مصاف ماشادو دو أسيس ، وجورج أمادو في الأدب البرازيلي وفي مصاف كبار الأدباء في الأدب العالمي .



الفصل السادس

كتاب معاصرون

(١) كلاريس ليسبكتور (١٩٢٤ - ١٩٧٧)

النقاد يقولون إنها كانت صوتاً إنسانياً مميزاً ، وكاتبة روائية مميزة . وإن لها بصماتها على كتاب الثمانينات . هي بنت ريودي جانيرو المدينة المرحية القلقة ، ولكنها لاتعكس مرحها ، وإنما تعكس قلقها المصيري . وكان ذلك منذ نشأتها الأولى . يوم نشرت سنة ١٩٤٤ أول رواياتها (Perto de Coracao Salvagen) (بالقرب من القلب الوحشي) كانت فتاة صغيرة جداً على الأدب والنشر . ومع ذلك فقد لفتت الأنظار إليها بوصفها كاتبة مجدة ، وبأنها ممتلئة ثقافة ، وبأن لما تكتب مذاقه التأمل الخالص . ففي هذه الرواية يحى الموضوع بمعنى من المعاني أمام الكتابة نفسها لدرجة أن إعادة تركيب النص وتطويره من جانب القارئ هو الذي يحدد الموضوع . إن الكاتبة الصغيرة تكشف ، في ذلك الوقت المبكر ، عن مهارة خاصة في العرض الروائي وعن معرفة قوية بميكانيكية صياغة الرواية . وهذا مادفع بها ، بسرعة ، إلى الصفوف الأولى من الأدباء في الخمسينات والستينات .

وتبعت تلك الرواية الأولى حتى سنة ١٩٤٩ روايتان اثنتان ثم توقف صوت ليسبكتور حتى سنة ١٩٦١ . هذا الصمت أثنتا عشرة سنة إنما كان بسبب زواجها وإقامتها الطويلة خارج البرازيل مع زوجها الدبلوماسي بين امريكا اللاتينية وأوروبا ، وولادة ابنتها في هذه الفترة . ولكن الطلاق أعادها إلى البلاد وإلى الكتابة من جديد . كانت خلال هذا الصمت تمتلئ تجربة وثقافة متنوعة ، وخبرات بالأدب الأخرى والأدباء الآخرين .

عادت فسكنت بلدها ريودي جانيرو منذ سنة ١٩٦١ ، وبدأت مرحلة النشر الثانية التي استمرت حتى وفاتها سنة ١٩٧٧ . وكتبت خلال ذلك تسعة عشر عملاً أدبياً بين رواية وقصة وكتب أطفال تميز منها رواية (Aqua Viva) (وهو اسم بلد في البرازيل وتعني الكلمة الماء الدافق الحي) ورواية (A Passiao segundo G.H.) العاطفة ، أو الهوى حسب رأي ج . هـ .) وباني الخرائب : (O Construtor de ruinas) وخدعة في الظلام A maco no escuro . (١)

ليسبكتور كانت امرأة مغلقة السر ، منكشمة رغم أن دفاعها عن قضية المرأة كان يقتضي الانغماس في المجتمع . ومجموع أبطالها كلهم من النساء فيما عدا رواية (باني الخرائب) ، فالبطل فيها هو الرجل الذي قد يكون هو القاتل ، في الروايات الأخرى تسيطر المرأة . ولكن نساء ليسبكتور نساء عاديات ليست له حياة خصبة أو جو مغامرة ، وليست لديهن أمزجة للقيام بالمآثر والانتصارات . والمعاناة التي يعانيتها تعكس مشاعر امرأة مرهقة الحس ، مشغولة بمشاكل ميتافيزيكية أساسية ، أو بمشاكل التعبير الكتابي ، ولكنها تعالج هذه أو تلك من منظور أدبي ، وفي مواقف كان التساؤل فيها أكثر من الاجابات . وطريقة ليسبكتور هي التعمق في نقطة صغيرة ، واندياح جميع المشكلة من خلالها ومن حولها ، لا كما تنداح الدوائر على سطح الماء دائرة بعد دائرة ، ولكن كما تنداح الكرات كرة من قلب أخرى . انها تقبض على اللحظة ذات المعنى فتنبش فيها ثم تنبش حتى الأعماق . وتجذ في الرواية سبيلا لوصف هذه العوالم القاحلة المتوترة ذات الطابع الكابوسي (وان تكن كوابيس ميتافيزيكية) والتي لاخرج منها إلا من خلال شخصياتها نفسها .

(١) ترجمت كلها وطبعت بالانكليزية والفرنسية بعد سنة ١٩٧٠

ففي رواية ليسبكتور الأولى « بالقرب من القلب الوحشي » - ولعلها أهم ما كتبت . . . هناك وقفة عند مشكلة الموت ، التي ترهق البشرية كلها ، ولكنها تستخرجها من ملاحظة تافهة لفضول انثوي ملحاح . بطلة الرواية (Joana) جوانا فتاة مراهقة صارت يتيمة ، تزوجت ، وطلقت ، ولكن الأحداث في سيرة حياتها مقتضبة ، محدودة وتنتهي بسرعة . ويبقى منها أهم شيء في هذه الحياة - وهو في الوقت نفسه أمر تافه - وهو أن جوانا منذ البدء تراقب باحة الجار ، وترى عدد الدجاجات الكبير جدا . وهي تدور وتتخاصم وتأكّل لكنها لاتعرف أنها سوف تموت . وجوانا لاتجهد أن هناك في الأرض أيضا دودا كثيرا ، يلتقط ويؤكل من الدجاج الذي سوف يؤكل بدوره كذلك . . . وتدور الدودة بهذا الشكل : آكل ومأكول ، والكل إلى الموت . . . ففي البدء إذن كان الموت !! إنه القدر المشترك للناس وللحيوان (وللنبات أيضا !) سوى أن الحيوانات لاتشعر به والناس يشعرون. وها هنا الفارق الذي لا يهتمل .

وقضية الإله عاودتها أكثر من مرة ، وتشعر أنها قضية مركزية عندها ، اعتبارا من ظهور روايتها باني الخرائب سنة ١٩٦١ وهو تاريخ طلاقها وعودتها إلى البرازيل . أهى صدفة يا ترى أم لذلك علاقة بهذا الحادث الشخصي ؟ على أي حال فإن الإله وجود مهيم يبدأ انفجاره في تلك الرواية ، ويستمر في رواياتها الأخرى بعد ذلك . « أهو أمل » ؟ أهو صيحة الفرح التي لا يمكن أن يطلقها إلا ألم لا يوصف ؟ لست تدري ولكن مامن رواية عكست هذا الاهتمام ، وظهر فيها وجود الإله أشد قوة منه في رواية (الهوى حسب رأي ج. هـ .) . فيها نقرأ . . . نحن نعرف الإله وما نريده منه نأخذه . ولا ادري ما هذا الذي اسميه إلهاً ولكنه يمكن أن يسمى كذلك . « ليسبكتور تعطينا فقط الأحرف الأولى من اسم هذه المرأة التي تقبع في أعالي شقتها الموجودة في عمارة كبيرة في الريودي جانيرو ، وتسال العالم ثم تسأله . . . وتنقل خلال ذلك من صخب

الحديث العنيف إلى همسة الصوت المخنوق لتصل في النهاية إلى ما تسميه بالصوت الحيادي . هذا الحياد الذي يحتوي البعدين الأقصىين ، وقد يناقضهما وقد يصل إلى الرفض . . . لكن هذا الجوع للإله الذي تعانيه ج . هـ . يبقى علمانياً لادينيا . وحفلة تناول القربان (الكومونيون) فيه غريبة وقليلة النصرانية جداً - محل محل خبز القربان فيها المادة البيضاء الداخلية من حشرة مسحوقة نصف السحق » (١) أهذا يعكس موقف الكاتبة نفسها ؟

ولست تدري فيما إذا كانت مشكلات التعبير الكتابي ناجمة عن هذه الشطحات الميتافيزيكية لدى ليسبكتور أو العكس . فالواقع أنها تغرق في المشكلة التعبيرية اللغوية على الطريقة نفسها من المعالجة والتفكير المركز ، والمنداح بعضه من قلب بعض . على أنها هنا تنطلق من مركز أساسي هو حبها للغة البرتغالية ، لغة بلادها ، تقول : « أحب هذه اللغة . إنها ليست سهلة . إنها تحد حقيقي لمن يريد أن يكتب . وخاصة لذلك الذي يكتب وهو يريد أن ينزع عن الأشياء والناس الطبقة الأولى السطحية منها . إنها لغة تقوم أحياناً برد فعل ضد الفكر المعقد . وقد يخيفها ما هو غير منتظر في الجملة المكتوبة . » ولكني أحب التعامل معها كما كنت أحب مداعبة حصان لأفوده بالللجام تارة في هدوء وتارة خبياً . . . هذا الحب للغة يبدو أنه هو الذي كان في خلفية ذاتها حين أخذت في الكتابة . ولهذا نراها منذ روايتها الأولى ، وفي ذلك الوقت المبكر ، تطرح سؤالاً نجده في المركز من عدة اهتمامات أدبية متعاصرة : كيف نفعل لنقول ما نريد ؟ هذا السؤال نفسه يحتل فيها بعد مكاناً أساسياً في روايتها اغوايفيا ولكن في شكل جديد . الكتابة ، هذا الفعل ، كيف يجري ؟

(١) من مقال كتبه كليلا بيزا عن ليسبكتور في المجلة الأدبية العدد ١٨٧ . وثبت بالفرنسية كتاب كتبه (Helene Sixous) بعنوان : (Vivre L'orange) نشرت في (Ed. des Femmes, 1976) تتحدث فيه حديثاً رائعاً عن ليسبكتور الكاتبة وموهبتها وتجديدها .

وإذا كانت جوانا بطلّة « بالقرب من القلب الوحشي » تخشى الكلام لأنه غير معبر وتقول : حين أحاول الكلام فأنا لست فحسب لأعبر عما أشعر به ، ولكن أحسن أن ما أشعر به يتحول بهدوء ليصبح هذا الذي أتكلّمه » ، فإن بطلّة آغوافيفا تمشي خطوة أخرى في كشف الزيف في هذه العملية الانتقالية بين الشعور والكلمة المعبرّة عنه . وتكتب رسالة طويلة توجهها إلى الحبيب وتؤكد فيها : « . . . ان الكتابة هي طريقة من تكون له الكلمة كالطعم للسّمكة ، الكلمة التي تصطاده ليست هي الكلمة التي يريد . وحين تعلق السّارة بهذه اللا - كلمة . يكتب الكاتب شيئا . » لكن على الكاتب أن يغامر ويكتب لأن الكتابة تستحق منه المغامرة حتى لو بلغت حدود الجزع .

وليسبكتور تحب هذه المغامرة لأنها تعرف كيف تكتب . وكيف تلتقط وتسجل لحظات الامتلاء والخصب . إنها لاتسأل عن ذلك ، ولكنها تصنع الكتابة أوتبدعها ، إن شئت ، في أمانة مطلقة جارحة . ولقد تكون أبرع من كتب تلك اللحظات التي تنفتح فيها فجأة في نفوسنا الحجب ، وتغزر المشاعر وتنكسب ، وترسم الأجوبة عن أسئلة كانت حتى ذلك الحين مغلقة مستبهمة لاتفك رموزها . لكن هذه اللحظات غمر كلمح البرق الخاطف ولكي نقدمها للقراءة يجب أن نفتحها ، وأن نضع تسلسلا يقابلها من الكلمات ، وأن نكون أمناء فلا نقع في مصيدة الكلمة الفارغة أو اللا - كلمة . وهذا بالضبط ما تفعله ليسبكتور . إنها منذ روايتها الأولى تصدم القارئ بحداثة فكرها وأسلوبها . ولاتقدم في الرواية حقيقة معينة ولكنها « تترك للموضوعية الاجتماعية والشخصية ، ولوسيلة التعبير اللغوي مهمة خلق وتبرير الحقيقة الخاصة التي يراها القارئ في الرواية . وبهذا الشكل يكف النص عن أن يكون القاطرة التي تحمل إلى القارئ صورة العالم ، والكائنات التي يخلقها الكاتب كما يشتبه ، ليصبح في مستوى أداة خلق العالم ، أو على الأقل أداة خلق عالم من العوالم » يصور القارئ نفسه كائناته

وأبعاده كما يشاء^(١) .

حرية القارئ وإيجابيته البناء وهو يقرأ ليسبكتور بالإضافة إلى جدة موضوعاتها الهادئة المثيرة معا ، وطريقتها المبتكرة في المعالجة والكتابة .، اجتمعت كلها بعضها مع بعض لتضعها في قائمة كبار أدباء البرازيل وأمريكا اللاتينية .

(٢) عثمان لينز (Osman Linz)

(توفي سنة ١٩٨٠)

هو نموذج خاص من الأدباء . كاتب مناضل حتى اللحظة الأخيرة من حياته .
وإحرفي معزول صارم الدقة كان أدبه يحمل في ذاته مبدؤه ومنتهاه . وروائي كان القلق الوجودي يرهقه ، ومع ذلك ما انفك يجدد في هذا الطريق ويجدد حتى موته .

ولد في سان باولو قبل وصول جوتوليو فارغاس إلى الحكم سنة ١٩٣٠ بقليل .
وبدأ الكتابة قبل فترة حكمه الثانية سنة ١٩٥٠ بقليل . ومات قبل انهيار الدكتاتورية العسكرية في بلاده سنة ١٩٨٥ بقليل . فكانه نشأ وكتب ونضج ليكون « شاهد عصره » ضد الظلم والاستبداد والقهر . وضد الاحتقار الأخرس الماكر للإنسان .

وقد حارب لينز على جبهتين معا : السياسة والأدب ، لكنه حارب وحيدا تماما . لاسلح له سوى الكلمة . وليس معه أحد ، وليس يرفده أحد . ترك مكانه في الجامعة واستقال من كل عمل آخر ليتفرغ للقلم قائلا : « أريد أن أكون

(١) رأي للناقد البرازيلي أنطونيو كانديدو في محاضراته بمجلس الأدب الجديد الأمريكي اللاتيني الذي عقد برعاية مركز ولسن العالمي في واشنطن ، ونشر بعضها في المجلة الأدبية ص ١٨ من العدد ١٨٧ بالفرنسية .

مقاتلا أعزل تماما » . بالرغم من أنه كان يعلم : إننا نعيش في (سوبر
مركادو)^(١) . وأي مكان يمكن أن تحتله القيم الروحية في سوبر مركادو ؟ » ومع
ذلك فعلى هذه الأرض الصعبة كان يقف وحده ، ويكافح دافعا الثمن الذي
يقتضيه ذلك كله . آخر كلماته في غرفة مستشفى بعيد في (برنامبوكو) كانت ،
وقد قلص الموت جلد وجهه وغشى تألقت عينيه الزرقاوين ، « لن أستسلم ! »

لم تكن الجبهة السياسية التي حارب عليها لينز جبهة حزب معين ، أو عقيدة
سياسية محددة . لكنها كانت جبهة عريضة معزولة تسع البرازيل بمشاكلها وما
وراء البرازيل أيضا . ولقد كتب الكثير جدا . لكن ثمت محورا أساسيا واحدا
كانت تدور حوله جميع كتاباته ، في السياسة ، أم في الأدب على السواء . هذا
المحور هو الإنسان المقهور في بلاده . كتب مرة : « إني ، بوصفي كاتباً ، أهتم
اهتماما طبيعيا عميقا بواقع زمني ، باليومي من حياة شعبي . وقد يكون هذا على
حساب كتابتي يؤذيها ويسيء إلى وحدتها ، ولكن قلما يهمني ذلك . أقبل هذه
المخاطرة . مالا أريده هو أن انفصل عن مشاكله . أن أكون بعيدا عن درامة
الإنسان البرازيلي اليوم » . « فالعالم الذي نحن فيه - كما يقول - والذي يزداد
رأسمالية ، هو عالم مخيف » .

في كتبه مثل كتاب (Problemas inculturales) ، وفي مئات المقالات التي
كتب ، وفي أبحاثه الهامة العديدة لم يكن ثمت اهتمام آخر يشغله . ولكنه كان
يأتيه من زوايا شتى : فتارة يناقش أو يدافع عن ثقافة شعبه ، وتارة يعلن حق
الإنسان في أن يفكر ويحلم ويؤيد حرية الرأي ويدين الرقابة دون انقطاع ، وتارة
ثالثة يفضح الظلم والقهر والفقر ، في مقالات استنكار واحتجاج صارخة ! وهو
يصبر في جميع الأحوال على أن ما نكتبه ينبع من الشعب الذي ننتمي إليه ، ويتوجه

(١) هي كلمة سوبر ماركت الإنكليزية وسوبر مارشييه الفرنسية وتعني السوق الكبيرة .

إلى الشعب الذي يتكلم لغتنا نفسها . إنها أصواته هذه التي نسمعها حين نصوغ نصا من النصوص وهو ليس منا ولنا بشكل كامل إلا في لغتنا نفسها » .

ولم تكن جبهة لينز الأدبية بأقل عنفا ولا عرضا من جبهة السياسة . بل كانت مكملة لها على الجانب الفني . وتحمل اهتماماته ذاتها إلى ميدان الأدب . في بلاد أرفقتها الدكتاتورية ، وفي فترات خنق فيها الفكر الحر ، وكبلت الكلمة . لم يكن أمامه سوى خيار وحيد : أن يحارب بالكلمة المكبلة ذاتها . أن يخلق واقعا من الخيال للمشاركة في الواقع القاسي لعصره . وهكذا أوجد شخصيات قصصه من تراكيب غريبة خرافية أسقط عليها مآسي هذا الواقع ومشكلاته : قذف بشخصية رجل مسكين من برنامبوكو في وجه المنظومة الفلكية . وخلق امرأة مصنوعة من مدن لكي يمثل الثقافة الأوروبية التي تحاول الشخصية البرازيلية عبثا امتصاصها ، أو صاغ شخصية من « السرتون » البرازيلي الفقير المتخلف فأخرج من جسدها كائنات أخرى عديدة . . . وقد كتب ذات يوم : « إن مدى الإبداع الفني هو الأرض الوحيدة الديمقراطية تماما . يستطيع أي كان أن يدخلها في أي وقت دون إذن دخول ، ودون أن تكون لديه وسيلة عمل سوى الكلمة . وهو حر في أن يعمل أو لا يعمل . . . ولكي يخرج لاجواز ولا تأشيرة خروج ولا مباحث ! . . . إن الأدب يسعدني لأنه حقيل الحرية بامتياز . حرية الكتابة . . . حرية اختيار جانب القارئ » . هذه الأرض المكتشفة كانت ميدان حربه بامتياز . إنها لم تكن الوحيدة . لكنها الرئيسة يقول : « أقوم بأعمال أخرى ولكني لا أفكر إلا في التخيل » ! .

وفي هذا الميدان ، بدوره كتب لينز الكثير من الروايات منها : (O Fiele a pedra) (إبرة الميزان والحجر) وهي الرواية الرائعة التي تنهي القسم الأول من أعماله . وغالبا ما يوصي الأساتذة بقراءتها للمرشحين إلى دخول الجامعات . ومنها (رواية A Valovara) وكل شيء فيها شفاف جدا ، مباشر ويكاد

بضيء . وقد ترجمت إلى لغات عديدة كالإنكليزية والفرنسية) ومنها
(Reina de carceles de grecia) (ملكة سجون اليونان) ومنها مجموعة
قصصه (Nove Novena) (تسع قصص) وقد نشرت بالفرنسية باسم إحدى
قصصها : التي قد تكون أجمل ما كتب ، ومع أنها ذات روح دينية إلا أنها صريحة
حاددة ضد القهر والعسف ، وضد سحق الإنسان وهو في أبشع حالات الإملاق ،
كما هو الحال في السرتون شمال شرقي البرازيل .

هذه الأعمال وأمثالها كان لينز يجيب بتحد واعتزاز على تحدي زمنه واحتقاره .
ولكن الكتابة كانت على ما يبدو ترهقه عسرا ومعاناة عنيفة . كانت صراعاً يجند
فيه لينز - كما كان يطلب دائماً من الكتاب أن يجندوا - أشد الطبقات عمقا في
عقله . يقول : « رواية القصص بالنسبة إلى هي : (Cosmogonie) نزاع
ضد الكون . أفكر كما يلي : ثمت العالم الموجود ، وثمت الكلمات . تجربة العالم
وتجربة الكلمات . وكل هذا منظم . إنه عالم . ولكن في اللحظة التي يضع فيها
الكتاب نفسه أمام الصحيفة البيضاء فإن العالم ينفجر ، والكلمات تنفجر ، ويجد
الكتاب نفسه أمام فوضى العالم وفوضى الكلمات . وعليه أن يعيد ترتيب ذلك
كله من جديد . . » .

هذا الصراع الفكري المتعب الذي يكاد يكون جسدياً أيضاً جعل أدب لينز
يتسم بصفتين معا : الغموض والدقة .

فأما الغموض فصفة يلحقه بها النقاد وإن كان لينز يرفضها ، ويصر بالعكس
على الوضوح ، وضرورة الوضوح للفنان . ولا يقبل الاتهام إلا « في الحالات
الخاصة التي يكون فيها الغموض وسيلة للتعبير . . . ويجب أن يفهم على أنه
غموض متعمد » . غير أنه يصر على أن يكون التعبير الفني ممزاً مكتوباً بأسلوب
خاص . لا يهب نفسه بشكل سطحي ، ولا ينكشف من النظرة الأولى ويقول :
« إن التعبير الفني متعدد القيم على الدوام ، لا يقول شيئا على التحديد » « إن

السطحي » يستنفد وينضب مثل مقال في جريدة . وليس من الضروري كي يقول المرء امراً محدداً أن يكتب رواية أو أثراً فنيا يكفي أن يتكلم . إن ما يمكن أن يقال بشكل نهائي ثابت ينفي الرواية وينفي القصيدة . . .

. . . ان النص الأدبي مفجر لا ينضب للرؤى وللمعاني « هذا الاصرار على التميز في التعبير الفني جعل لينز ينصب في تلمسه ، وينصب في إبرازه . ومن هنا جاءت تهمة بالغموض .

وأما الدقة فقد حاولها لينز على الدوام ، وأصر عليها كامتياز للفنان . كانت وسيلته الأدبية هي الصرامة الرياضية التي تحسب الألفاظ والفواصل والتراكيب حساب المهندس لمواد البناء ، وفي دقة ، تحسبها دقة الساعة ، للانفعالات والعواطف والأحداث . لكنه وصل في ذلك إلى حد اعطاء الرواية أبعاد القصيدة ، في الموسيقى والتوازن . إنها صنعة الصائغ هذه الصناعة الأدبية الدقيقة المجهدة . لكن من ذا الذي قال إن الأدب ليس صياغة فكرية مجهدة ؟ « إن الفنان يقول : انظروا إني أعرض خلقاً متخيلاً . شخصيات مصنوعة من كلمات . إنها ليست صوراً حقيقية . ولكنه من خلال هذه التخيلات يصل إلى قلب القارئ ويتجذبه . . . » .

ومع كل هذا الجهد في التميز وفي الصرامة ، يقدم لينز رواياته على أنها مجرد نصوص بسيطة مصنوعة من العنصر الروحي للكلمات . وهو لا يطالب بأن يحمل صفة الطليعي بين الأدياء ، ولا يأبه للشهرة التي جاءت دون أن يطلبها ، ولا يريد في عزلة أي عون من أحد . . . متفرداً عاش ، ومتفرداً مات وهو يردد : لن أستسلم !

(٣) دارسي ريبير و (Darcy Ribeiro)

هو سياسي وصاحب حياة حافلة في السياسة وفي المنافي ! وعالم أنثروبولوجي

معروف لاهلاقة له بالأدب إلا هواية وغبوة .

لكنه مع ذلك يعتبر في بلاده من كبار الكتاب الأدباء . وإذا كانت سمعة بعض المشهورين أوسع منهم بكثير كالرداء الواسع جدا على شخص نجيل . فإن ريبيرو يستحق شهرته ، وإن كان مكشوف السريرة ، أكثر مما يجب لسياسي مثله . إنه نموذج للكاريوكا (هم أهالي الريو) الذين تكفيهم حركة واحدة ليتعروا .

على أنه ليس من الريو . فقد ولد في ميناش جيرایش ، وفيها درس ، وتخصص لكنه انتقل إلى الريو ، وكان أستاذا جامعا في الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، ثم كان الرئيس المؤسس لجامعة برازيليا ، ثم صار وزيرا للتربية ، والشخص الثاني في الدولة أيام الرئيس غولارد أوائل الستينات . وحين قامت الدكتاتورية العسكرية سنة ١٩٦٤ نفته من البلاد . فلما حاول الرجوع إلى البرازيل سجن ، ثم نفي مرة أخرى . وتقلب في بلاد أمريكا اللاتينية المختلفة إلى أن استقر في البيرو سنة ١٩٧٠ .

هناك في سنة ١٩٧٤ دامه المرض . فكان مرور الأيام يرهبه . غيره من العلماء كانوا قد يفكرون في إنهاء سيرتهم العلمية ليأخذوا قسطهم من الصحة ، أما ريبيرو فكان بالعكس يشتهي إخراج مآلديه من مشاريع فكرية ليضمها إلى إنتاجه الحبيب السابق . وله فيه كتب شتى تكشف اهتماماته الفكرية بالحضارة ، وبأمريكا اللاتينية والبرازيل . لقد كتب كتابا عن (مراحل التطور في الثقافة الاجتماعية لأمريكا اللاتينية) ، وآخر عن (أمريكا اللاتينية والحضارة) شرح فيه أسباب التطور غير المتوازن فيها . وثالثا عن (مشكلة أمريكا اللاتينية) في تكوينات السلطة وقوى الضغط فيها . ورابعا بعنوان (البرازيليون : نظرية البرازيل) وأما الخامس فكان عن (الهند والحضارة) . والهند موضوع اختصاصه ، وهم من أكبر همومه . على أنه كان منذ زمن يتشهى بينه وبين نفسه أن يدخل عالم الأدب . وهكذا فعل في البيرو . وفي سباق يائس مع الزمن ومع

الموت كتب رواية (Maira) ثم كتب بعد ذلك بزمن رواية اخرى (O Mulo)
(البغل) .

وفي مايو سنة ١٩٧٩ منحتة جامعة السوربون في باريس درجة الدكتوراه
الفخرية . وفي الخطاب الذي ألقاه هناك اعترف بكل بساطة بفشله المتكرر في
بلاده قال إنه : « في أوائل الخمسينات أردت تخليص الهنود من شقاء حياتهم
وفشلت . إن ثمانين شعبا من أصل مائتين وثلاثين منهم انقراضوا بسبب جفاف
الأرض وتلوث المياه ، وتدمير الحياة النباتية . صاروا الأحياء الأموات . لم
استطع تخليصهم من المرارة واليأس اللذين يخيما على قراهم ، ومن تصرف
المبشرين والموظفين الذين يفترض أن ينقذوهم ، ولا من العلماء ، من كل نوع ،
الذين يعاملونهم كأنهم عينات بشرية . وخاصة من ملاك الأراضي الذين
ينسجون ألف حيلة لحرمانهم من حقهم الطبيعي في أن يبقوا حيث هم في أماكنهم
وأراضيهم »

وقال : « كنت وزيرا للتربية الوطنية ، وفشلت أيضا في البرنامج الذي وضعت
لإدخال جميع الأطفال البرازيليين في المدارس . وثمت اليوم خمسمائة ألف شاب
يصلون كل سنة سن الثامنة عشرة وهم أميون أو شبه أميين . . .

» وحاولت أيضا تنفيذ الاصلاح الزراعي ، واخضاع رأس المال الأجنبي
لسيطرة الدولة ففشلت . حاولت توزيع الـ ٨ ملايين كم (وهي البرازيل) على
أكثر من ١٢٠ مليون ساكن (هم البرازيل) ، ولكن العكس جرى أيام الحكم
العسكري . فبينما زادت الملكيات الزراعية الكبيرة إلى ما بين نصف المليون إلى
مليون ونصف المليون من الهكتارات ، وقامت الاقطاعات الضخمة ، يعيش
العمال الزراعيون هناك عيشة الأفتان . إن الحكومة البرازيلية هي في يد
الشركات المتعددة الجنسيات . وإذا كانت هذه الشركات في منطقة الكاريبي
تقطف الموز وتعطى الدولارات للاغنياء والبؤس للفقراء ، فهي لاتزرع في

البرازيل سوى الشقاء والقمع وتبني الدكتاتورية العسكرية . . . » .

لكن هذا الذي اعترف بفشله المتكرر في ميدان السياسة نجح تكرارا في ميدان الكتابة ، وأدخله البرازيليون في حلقة الأدباء ، تماما ، كما فعلوا بزميله أيضا جيلبرتو فريري . الاثنان دخلا الأدب عن طريق كتبهما الأنثروبولوجية ، وإن اختلفا في كثير . فالأول جنوبي المولد والهوى ، والثاني شمالي . والأول رجعي في المذهب السياسي ، والثاني حر الفكر جدا . والأول يكره السياسة ، والثاني غارق فيها إلى الأذقان . والأول غامر واستوزر وحاول الإصلاح ونفى ، أما الآخر فقابع في منزله باقصى الشمال البرازيلي يعضغ شهرته ، لكن الاثنان يشتركان في حب البرازيل ، ويشتركان في معاناة مشاكلها . ريبيرو تناول المشكل الهندي خاصة وفريري المشكل الزنجي . والاثنان كتبا بجراحة وصراحة جارحة كل شىء .

على أن فريري إذا كان في كتابه : (البيت الكبير والكوخ أو الخوص) أقرب للأدب ، والأسلوب المشرق ، فإن ريبيرو دخل الأدب من باب الواسع حين أضاف إلى مجموعة مؤلفاته معاناة الرواية الأدبية برائعته الممتازة مائيرا (Maira) وهي أول رواية نسمع فيها صوت الهندي الأمازوني ونقرأ حقا أفكاره . وفيها «غوص لا سابقة له في العالم الهندي المهمل على مستويات ثلاثة : مستوى الآلهة ، ومستوى الهنود ، ومستوى البيض» . ريبيرو يعالج فيها «عمليات الاستغلال والتزييف والتعذيب التي تحمل عنوان ادخال الهنود في الحضارة» . خلاصة الرواية أن هنديا هو قسيس فاشل يعود إلى قريته بصحبة مخبولة من المدينة ، تحسب نفسها قد عاشت كثيرا ، وقد جاءت تحمل إلى الهنود طمأنينة صوفيتها . ثم يجدونها قتيلة مبقورة البطن على شاطئ النهر ، وقد تخلصت أسوأ التخلص من توأمين ميتين أيضا معها . الرواية تمضي بعد ذاك كأنها رواية بوليسية ، ولكنها تتطور إلى لوحة كبيرة لا ترسم عليها الأحداث والعادات الهندية فحسب ، ولكن

ترسم أيضا تصرفات الموظفين والعسكريين - وهم محدودو الفكر في العادة - وأعمال التجار ذوي الجشع المرضي ، والخلاسيين الضائعين ، والمبشرين بكل أنواع العقائد ، ومدعي النبوة اليائسين الذين يرهقون هذه الأطراف من العالم ...

والرواية كلها حقائق عنيفة الصور ، ووثيقة اثنولوجية حية ، وإدانة صارخة للواقع . لكنها ليست بهذا وحده تجد مبرر كتابتها . إن الفكرة الضخمة التي تجعلها تحفة أدبية هي تحليلها لذلك التشابك الغريب بين الميثولوجيا الهندية والطقوس المسيحية ...

رواية ريبيرو الأخرى O Mulo تجري في ميناش جيرایش ، المنطقة التي ولد فيها . وهي بدورها مرآة أدبية للواقع الاجتماعي في هذه المنطقة ، بكل ما فيه من بؤس وقوالب فارغة . إنه يقدمها للإنسان البرازيلي كي يتأمل العظمة الرخيصة لأصوله العرقية ، ويرضى بالسخرية من حاضره الصعب . على أن سمعة ريبيرو وإن استندت إلى اسهامه الأدبي إلا أنها تستمد معظم جذورها من كتبه الفكرية ومن مواقفه السياسية الجذرية .

٤ (أدباء من سان باولو والريو

* جوان انطونيو (Joao Antonio) :

أحد رواد « الواقعية المفترسة » في الأدب البرازيلي اليوم . هو ابن شوارع سان باولو المملوءة حفرا ووحلا وجراحا وجرائم . ولد فيها لأبوين من الطبقة العاملة ، لكنه قضى طفولته في هذه الشوارع التي يصفها في قصصه الكثيرة ، بشكل حي جدا ومفزع جدا . بدأ كتابة القصص منذ كان في التاسعة من العمر . وقد أورثه ذلك بعض المصائب والكرب من أبيه وأمه ومن الناس . ولكنه لم يستطع الامتناع عنها . حين كبر لم يكن أمامه إلا أن يعمل في الاشغال

البسيطة للعمال في قاع المجتمع المدني في سان باولو . ولهذا المجتمع حياته الذاتية « ولغته » الخاصة من المصطلحات وله انغلاقه وألغابه ودهاليزه وغضبه الكييت المسموم .

وبالرغم من أن أحوال أنطونيو قد تحسنت بعد أن عمل في بعض أعمال الطبقة المتوسطة ، وبعد أن أصبح صحفياً وناقداً أدبياً فإن حياته الأولى مازال تتنفس في أسطوره . حبه للعبة « Snooker » الشعبية كان منبعاً لبعض من أهم قصصه وأحلاها . ومعرفته بدخائل أبناء الشوارع كانت منجماً يأخذ منه ما شاء ، ويصور العنف والانحطاط والجرائم التي تسكن تلك الشوارع ، كما كانت مادة تلك القصص المثيرة والشخصيات الشاذة والمسحوقة والعلاقات المتناقضة التضامنية - العدوانية معا لتلك الطبقات . بالإضافة إلى أن تمرسه بلغاتها الخاصة منذ الصغر سمح له باستغلال تلك اللغات في قصصه ، وأعطاهها طابع الصحة والصدق والواقعية المطلقة . وأنطونيو يقتصر في منابع استلهامه على هذا القطاع الشعبي من المجتمع : قطاع القاع في مدينتي سان باولو وريودي جانيرو ، لا يغادره لأنه قطاعه ، ولأنه يجد فيه ما يكفي من الغنى المأسوي الفاجع .

كتب أنطونيو عدداً من الروايات ، ومن القصص الصغيرة منها : مجموعة (Malaquetta) ومجموعة (Peros e Becanaco) ، ورواية (Paulinha) (perna torta) القصة الطويلة الصادرة سنة ١٩٦٥ ، (Malhao de) (Judas carioca) سنة ١٩٧٥ ، وليون دوشاكارا (Leoao de Chacara) سنة ١٩٧٤ ، و (Lambos de Cacerola) سنة ١٩٧٨ ، وديلوداروا (Dedo daro) سنة ١٩٨٢ .

هذه الأعمال كانت كلها تصورياً أميناً ومفزعاً لشوارع سان باولو والريودي جانيرو ، ولعلمها الخاص الذي يُنظر فيه إلى أهل الطبقة العليا والمتوسطة على أنهم دخلاء ، ويستوجبون الحذر . ومجتمع القاع هذا ، رغم مآسيه وعدوانيته وثورته

المختنفة لا يبذل أي جهد لردم الهوة بينه وبين الطبقات التي تعلوه . إنه يشكل ضدها طبقة كريمة مغلفة بقدر ما هي رافضة . ولقد زاد هذه الجماعات العمالية المسحوقة ألماً ورفضاً أنها عاشت السنوات العشرين الأخيرة منذ سنة ١٩٦٤ في ظل دكتاتورية عسكرية كانت تعمل لمصلحة الطبقات المميزة ، والشركات الأجنبية ويوحي منها . وهذه الفترة هي بالضبط الفترة التي أخذ أنطونيو يكتب فيها وينشر أعماله . فقصصه القصيرة التي تطفح بالحقد غير المعلن ، وبالصور المرعبة ، والشذوذ ، سجل حافل بالهموم الاجتماعية لهؤلاء الذين يعيشون على هامش المجتمع ، ولرطانتهم الخاصة ، ومصطلحاتهم الغريبة ، وغلهم الحبيس خلف الأعين . وأنطونيو يعالج سلوكهم الاجتماعي معالجة مباشرة طبيعية جارحة ، وبأمانة لا مكان فيها لهوادة أو رحمة ، فهو لا يقبل أي تحوير في التعبير ، أو تغليب للمؤذي والجرح من السلوك مسaire للتهذيب الاجتماعي الذي يخفي الحقيقة . « ونخيل إليك - كما يقول الناقد أنطونيو كانديدو - أنه يحقق بشكل مميز تطلعه لنثر تندمج فيه كل مستويات الواقع نتيجة تدفق المونولوج فيه ، واللغة العادية ، والغاء الفروق مع اللغة المحكية مع ركض الكلام الذي يجر الفكر ويضعه في مواجهة مباشرة مع عالم الجريمة والعهر . . . » .

وقد أضحى أنطونيو بذلك مدرسة من مدارس القصة البرازيلية اليوم يتأثر بها ويتبعها العديد من الكتاب الناشئين . أضحى الطلاق بين البلاغة الأدبية ، ولغة التعبير اليومي « المفصوحة » تقليداً من تقاليد الأدب البرازيلي الحالي لدرجة لم يعد أبناء الطبقات الوسطى والمميزة يفهمون بعض قصص أنطونيو لأنهم أقاموا بينهم وبين أهلها سدوداً من الطبقة الصارمة في العمارات الاسمنتية ذات عشرات الطوابق ، والأحياء الخاصة النظيفة ، ومن التهذيب الاجتماعي الذي يحرم التصرف العفوي الحر ، ومن اللغة المشدبة المغلقة . . . إن لغة جورج آمادو - وهو يعتبر من الجيل الماضي - اصبحت رغم ما تحوي من عبارات الجنس

واللهجات العامية الفاضحة ، لغة مهذبة جدا أنيقة جدا بالنسبة للغة الجيل الحالي من القصاصين . إن هذه اللغة لاتعكس حقيقة من حقائق المجتمع البرازيلي اليوم فحسب ، ولكنها في الوقت نفسه استكشاف لمكونات اللغة « العامية المحرمة » ، وتُحد من التحديات الصامتة للمجتمع العالي المتحكم في الناس .

* جوزيه روبيم فونسيكا (Jose Rubem Fonseca)

هو المعلم الثاني لما وراء الواقعية . أو للواقعية المفترسة مع جوان أنطونيو في أدب البرازيل الحالي ، وثاني اثنين (مع أنطونيو) جعلوا القصة القصيرة تصبح هي اللون المسيطر في هذا الأدب . هو من الكاريوكا ، أهل الريودي جانيرو ، عاصمة البرازيل السابقة ، ولكنه لا يشاركهم اللهو ولا المرح واللامبالاة التي عرفت بها هذه المدينة فهو قطعة من ناسك منعزل لا يسمح بالمقابلات معه ، ولا يسهم في حلقات الكتاب السياسيين المألوفة في الريو ، ولو أنه خالف ذلك سنة ١٩٨١ . فأقام مقابلة مع ذاته فسر فيها طبيعة أعماله وذلك في قصة اللاموصي الكبير (Intestino grosso) التي خلق فيها من نفسه « ذاتا عليا » ، وكشف فيها أمام صحفي ساذج فلسفته الخاصة في الأدب والحياة . وهذا الروائي المعتزل للناس لا يعيش على قلمه . إنه يكتفي من الرزق والناس بأنه رجل أعمال ناجح . ويفضي ما يتبقى من أوقات الفراغ في القراءة وكتابة القصص . وقد كتب منذ بدأ ، مع بداية عهد الدكتاتورية العسكرية سنة ١٩٦٤ ، الكثير من الأعمال . فيها مجموعات القصص وفيها الروايات . ومنها : مجموعة قصص (Os prisioneiros) (السجناء) سنة ١٩٦٤ ، (A Coleira de cão) (O Caso) سنة ١٩٦٥ ، (Lucia Mc Carthay) سنة ١٩٦٩ ، ورواية (moral) (قضية أخلاقية) سنة ١٩٧٣ ، ومجموعة قصص (Felix ano) (novo) (سنة جديدة وسعيدة) سنة ١٩٧٣ ، (O cobrador) (الجاني) سنة

١٩٧٩ ، ورواية (Agrande Arte) (فن عظيم) سنة ١٩٨٣ .

وأدب فونسيكا يهاجم القارئ بعنف . موضوعاته ، وبتقنياته المقامة على الكائن والحدث ، في حديث ذاتي ، وبطرحه للحلول المتناوبة حسب أهواء الرواية لأنه يرفض حدود الأدب التي تصل بك إلى نوع من الحصيلة ، أو التقرير الثابت عن الحياة .

وعالم فونسيكا لوحة واسعة من النماذج البشرية ، ومزيج غير متجانس من المواضيع المتفرقة ، وإن كانت تشترك جميعا في خطة كبرى هي: تصوير المجتمع البرازيلي في المدينة ، والتعبير عن « سيكولوجيته الشاملة وهو يقوم بتدمير ذاته » . غير أن شخصيات فونسيكا نماذج للأمراض الاجتماعية ، ومخلوقات انطوائية . تأخذ من مزاج فونسيكا نفسه أحيانا ، كما أنها تحب ذاتها ولكنها عاجزة عن إقامة العلاقات الإنسانية عجّزها عن التعبير عن عواطفها الحقيقية ، أو حتى البغضاء للآخرين . ويتركز كل اهتمامها حول الجنس الذي يدفع بها حتى حافة العنف ! ... وفي حين يصور فونسيكا أبطاله من الطبقات الدنيا سلبين مرضى ، نجد أن شخصياته من الطبقات المتوسطة والعليا أكثر قسوة ، بحكم تملكهم للقوة ، وأكثر عنفا في تعذيب الآخرين ، وأكثر براعة في التصرف ، وأهمهم من القتل المجرمين ، أو منتهكي الأعراض . أو للصيغ ! ... إن تعفن المجتمع من الداخل لديه هو الأساس . وعليه يركز أنواره . وقصته القديمة (سنة جديدة وسعيدة ، أو كل عام وأنتم بخير) منعت الرقابة نشرها سنة ١٩٦٤ ، لأنها في الواقع « قصة وحشية تصور مجتمعا لا يمكن لأي مقدار من التوسطية أن يجنبه الكارثة » . وخلفيتها تكشف عن طبقة في القاع بلغت درجة الاتقان في الانقضاض على المجتمع الذي أهملها وعاملها بكل وحشية . وتبين ان الانحطاط والتآكل اللذين يسودان حياة المدينة هما قدر المدينة ومصيرها المحتوم .

وبراعة فونسيكا القصصية تتجل في اختياره صيغة المتكلم في سرد القصة بما

يجعل القارئ مرغماً على تبني وجهات النظر التي يعبر عنها بطلها ، وعلى مشاركته في أعمال الانتقام الاجتماعي ، (من سلب وقتل وهتك أعراض) ونبريها . أما لغته فهي لغة الشارع نفسه . وقد صاغ فوسبكا دفاعاً نظرياً علمياً عنها وعن بذاعتها الضرورية ، وإن أغلق المجتمع « المهذب » آذانه دونها .

✽ فينيتيوس مورالس (Venitius Morales) (١٩١٣ - ١٩٨٠)^(١) :

شاعر الحياة كما يسميه زميله الشاعر كارلوس دروموند دو اندارده جامعاً بذلك كل الوجوه المختلفة لشخصيته . إنه دبلوماسي وبوهيمي وشاعر حسب المفهوم النبيل للكلمة . ومؤلف أغان وملحن مغن أيضاً .

ألف فيلم (Orfeu negro) أورفيو الزنجي . الذي أخرجه (Marcel Camus) أواخر الخمسينات . فتح في الوقت نفسه طريقاً جديدة للأغنية البرازيلية بخلقه ، وإطلاقه الموجة الجديدة (Bossa Nova) وهو نمط جديد من السامبا . كان مورالس محباً للحياة وللنساء . يقدس الصداقة كما لو كانت فضيلة مقدسة أو طقساً من الطقوس الدينية . وكان القاسم المشترك بين عدة أجيال برازيلية .

شعره رقيق وإسهامه الموسيقي يعدل إسهامه الشعري . ولعله الوحيد الذي جمع بين ففي الشعر والموسيقى ، وغنى الاثنين معاً .

✽ اغناسيو دي ليولا براندون (Ignacio de Lyola Brandao)

هو من الكتاب الرافضيين ، والذين يعلنون رفضهم باصرار .

(١) غالباً ما نرى الأسماء في أمريكا اللاتينية مؤلفة من ثلاث كلمات . ويجب أن يكون واضحاً أن الكلمة الأولى هي دوماً الاسم الصغير ، أما الثانية فهي لقب عائلة الأب ، وأما الثالثة فهي لقب عائلة الأم . فإذا افتقد أحد اللقبين دل اللقب الباقي على الشهرة وهو الأكثر شيوعاً . وقد يدل على أسرة الأم فقط لأن أسرة الأب مجهولة . وهو أمر عادي في أمريكا اللاتينية .

ولد في سان باولو أوائل الاربعينات ، وفيها نشأ وتخرج والتحق بالصحافة عاملاً كمحرر في عدد من الصحف . لكنه لقي الكثير من المضايقات والتحجيم نتيجة مواقفه السياسية الجذرية . وكان لا يفرق بين موقفه السياسي والأدبي . ثم انقطع عن الصحافة في أوائل الثمانينات محاولاً أن يعيش على قلمه . وندر في الأدب البرازيلي من يعيش على أدبه فقط وكتابته . سافر كثيراً إلى الولايات المتحدة وإلى أوروبا ، كما تجول في البرازيل . وكسب من ذلك خبرات هامة . وعرف بمسيره مع انطونيو توريز وجوان أنطونيو في الطريق الصعب طريق المعارضة ، والرفض للحكم الدكتاتوري العسكري ، في أسوأ أيام القمع الحكومي البرازيلي . وكان يتحدث إلى الشعب والشباب حول وضع الأدب البرازيلي يوم كان القليل منه يطبع ، والرقابة تخنق الكثير .

تتضمن أعمال دي ليولا عدداً واسعاً من الأعمال بدأت الظهور سنة ١٩٦٥ بمجموعته القصصية (Depoes do sol) (بعد الشمس) ، ثم تلتها رواية (Babel que e cidade comese) (بابل المدينة التي تأكل) سنة ١٩٦٨ ، ثم نشر (Pega ele, silencio) سنة ١٩٦٩ ، (اضربه ، اسكت) ، ثم جاءت رواية (Zero) (صفر) سنة ١٩٧٤ ، ثم (Caldera Proibidas) (الكراسي المنوعة) سنة ١٩٧٦ ، ثم نشر (Dentes ao sol) (اسنان للشمس) سنة ١٩٧٧ ، ونشر سنة ١٩٧٨ قصصاً للأطفال بعنوان (Caes danados) ، ونشر سنة ١٩٨١ رواية : (Nao havera pais nenhum) (لن تكون ثمت بلاد أبداً) .

ولا يلتزم دي ليولا بأسلوب واحد أو بموضوع واحد . فكتاباته الأولى كانت ضمن نطاق الأدب الطبعي الجديد . ولكنه تبنى في الروايات الأخيرة أسلوب الكتابات الخيالية ، والمجازية الكرنفالية . ونجح فيها . « فمجموعته الكراسي المنوعة ، مجموعة من القصص السياسي ، يمثل الخيال (الفتازيا) العنصر

الرئيسي فيها ، وروايته صفر (Zero) تعتبر مثلاً لما يسميه النقاد البرازيليون (بالكرنفالية) في الأدب البرازيلي ، والكرنفالية هي الصيغة المجنونة لوجهة نظر يائسة غريبة تصور المجتمع بشكل يثير الهزء والسخرية ، ويمثل الخيال العنصر الغالب فيها . وهي على أي حال طريقة من الطرق للمقاومة ، وسبيل رحب للرفض لانتطوله قبضة الإرهاب ولا مقص الرقيب .

والمناظر الذي ينطلق منه دي ليولا منظور تشاؤمي ينظر من خلال النظارة السوداء إلى حياة المدينة المعاصرة وإلى طبيعة الإنسان المعاصر ، ويكشف عزلة المرء ووحدته في المدينة ، وسخف هذه الحياة ، وتفاهة القوانين العامة التي تحكمها . فقصّة الكراسي الممنوعة وهي لاتزيد عن صفحتين تحكي عن بلد تقرر الحكومة فيه أن الكراسي خطريتههد الأمن الوطني . فترسل فرقاً من شرطة مكافحة التخريب إلى بيوت الناس لمصادرتها وتحطيمها . وقصته الأخرى (وهي بدورها أقل من صفحتين) بعنوان (الرجل الذي رأى العظاية تأكل طفلة) خرافة تحكي بشكل مآكر قدرة الطبقة المتوسطة على تبني الحياة المعاصرة . وأما روايته (لن تكون ثمت بلاد أبداً) فترسم مستقبلاً للبرازيل أشبه بالليل والأحلام الكابوسية ، إذ تباع أراضيها لسداد الديون الدولية، ويتقلص حجمه فلايزيد على مدينة سان باولو التي يعم التلوث فيها ، ويعيش أهلها على الأغذية الكيماوية المقتنة ، ويخضعون لاستغلال تعسفي لامنطق فيه من حكومة قوية .

كان دي ليولا بذلك يكافح على طريقته قوى أكثر سيطرة بكثير من قدرته على الكلام .

*** هارولد دي كامبوس (H. de Campos) :**

هو ثاني أخوين اثنين أسسا مدرسة الشعر المجسد (Poesia concreta) في البرازيل . وأحد الشعراء والكتاب المرموقين في البرازيل .

ولد في سان باولو سنة ١٩٢٩ لأسرة من الطبقة المتوسطة . ونشأ مع أخيه اوغوستو في جو من الثقافة الحسنة . بدأ الكتابة مبكراً ، ونشر وهو في الحادية والعشرين سنة ١٩٥٠ أول كتبه : (Auto de possessao) (امتلاك الذات) . ثم نشر بعد اثنتي عشرة سنة كتاباً آخر هو بعنوان (Servidao de passagem) غير أن عمله الأساسي إنما كان سنة ١٩٦٥ حين أصدر مع أخيه الشاعر مثله اوغوستو وزميلهما الشاعر دايسيو بكناتاري (Dicio Pignatari) (نظرية الشعر المجسد) (Theoria de poesia concreta) . كان صدوره ثورة صامتة في دنيا الشعر . لأنه كان نصوصاً نقدياً يتوجها « بيان » على طريقة « البيان » الشيوعي ، أوبيان أكلة لحوم البشر البرازيلي . وقد جاء نتيجة تأملات نظرية سابقة استمرت في سان باولو منذ السنوات الأولى للخمسينات قامت بها الجماعة الشعرية التي أطلقت على نفسها اسم (Noigandres) والتي أصبحت تدعى بعد سنة ١٩٦٠ (ابتكار) . (Invancao) .

ومع أن هارولد أصدر بعد هذا الكتاب الأساسي عدة كتب أخرى منها : كتابه (ما وراء اللغة) (Metalinguagem) وهو كما كتب تحت عنوان دراسات في النظرية الأدبية والنقد (Estudios de theoria e critica literaria) .

وقد نشر في بتروبوليس سنة ١٩٦٧ كما نشر كتاب فن في أفق التجربة : (A arte no horizonte de provave) الذي صدر سنة ١٩٦٩ في سان باولو . إلا إن هذين الكتائين كانا إلى حد ما نوعاً من الايضاح والتدليل على نظرية الشعر التجسدي .

وقد قامت هذه النظرية على أساس التجديد في الشكل لافي الموضوع ، وفي طريقة التعبير الشعري لا في الرواية الشعرية نفسها ، وفي مفهوم البنية الشعرية أي النص لا في مفهوم الأسلوب الأدبي الفني . إنها محاولة لنقل الشعر ، نقلة مكانية - زمانية ، ونقلة لفظية - صوتية - بصرية ليكون منسجماً مع منطق العصر

وأدواته في التعبير . وإسقاط الحواجز الفاصلة بين الفنون لأنها مصطنعة ، ودمج أدواتها بعضها ببعض باعتبار العملية الفنية عملية واحدة موحدة . وهكذا فيجب إعادة النظر في وسائل التعبير جملة ، كما يجب إعادة تقويم الشعراء والكتاب في الماضي الأدبي جملة ، وإستخدام الموسيقى والصورة والنحت كما تستخدم الكلمة والحرف في الأداء الشعري . إن الأزمة الفنية المعاصرة إنما هي ناجمة عن العجز في تجاوز اللغات الخاصة للفنون والوصول بها إلى اللغة الواحدة .

٥ (أدباء من البرازيل الوسطى والجنوبية

* فلافيو موريرا داكوستا (Flavio Morira da Costa)

هذا الكاتب هو ابن أقصى الجنوب البرازيلي ، ابن ريو غرانده دل سول . ولد في عاصمتها بورتو الليفرة (Proto alegre = الميناء المرح) آخر الاربعينات ، ولكنه قضى طفولته على حدود الأوروغواي ، في أقصى الجنوب . ثم تخصص في السينما ، وعمل عليها لدرجة أنه يمكن أن نخرجه من صف الكتاب تماماً إليها . وهو يكسب عيشه من العمل في الصحافة والنقد . لكن هوايته للقصص دفعته بعيداً في هذا الميدان ، وأبرزته كاتباً روائياً بين كتاب الرواية المرموقين . وقد ساح طويلاً في أمريكا اللاتينية وأوروبا . وقضى ما بين سنتي ١٩٧٣ - ١٩٧٤ في الولايات المتحدة بوصفه من مجموعة (برنامج الكتاب العالمي) في جامعة إياوا .

وتتضمن أعماله عدداً لا بأس به من الروايات استهلها عند النشر ، برواية (O desastronauta) (رجل الفضاء الكارثة) سنة ١٩٧١ ، ثم مالبت أن أكمل هذه الرواية بأخرى تحمل عنوان (Cosa Nostra) (قضيتنا) ، Eu ve a mafia de perto سنة ١٩٧٤ ، ثم أتم الاثنين بثلاثة هي نهاية الثلاثية عنوانها : السلاح والرجال ، (As armase os ba rones) سنة ١٩٧٥ .

تابع النشر بعد ذلك فله مجموعة قصص قصيرة بعنوان : (Os espectadores) (المراقبون) سنة ١٩٧٦ ورواية (As margens placidas) سنة ١٩٧٨ ، ومجموعة قصص صدرت بعد ذلك بعنوان (Glutón da silva) وأخيراً صدرت له مجموعة قصص (Malvadeza duro)

(وهو اسم أحد شخصياتها) سنة ١٩٨١ . وآخر أعماله الروائية كانت عن بطلة نسائية برازيلية معاصرة وإن لم تكن واسعة الشهرة (باتريشيا غالفا) .
Galvao

يستقى موريرا أدبه من الواقع لكنه يقدمه بشكل رمزي . فثلاثيته الأولى تحاول تصوير جيل بأكمله ضحى من أجل ثورة سنة ١٩٦٤ . على أنه لا يعرض هذا الجيل كواقع ولكن من خلال شاشة أخرى ترمز إليه . وهو يمزج أدبه هذا أحياناً كثيرة بثقافته السينمائية كل المزج حتى لا يكاد يفهمه إلا من يملكون هواية متابعة الأفلام والسينما والنجوم . « ففي مجموعته (غلوتون داسيلفا) تنطلق الأفلام البرازيلية والأمريكية والأوروبية والأمريكية اللاتينية من عقلاها ، ونجوم السينما والنصوص ، كل ذلك في فيلم سحري خليط دون أي اعتبار للصدق والحقيقة وقصته الأخرى (المراقبون) التي تحمل المجموعة اسمها ، لها جاذبية خاصة ، ومذاق طريف عند أولئك القراء الذين تربوا ، مثلهم مثل موريرا ، على استهلاك الأفلام . والذين يعتبر الممثلون من أمثال آفاغاردنر ، وبيترلور وبوجي من أصدقائهم القدامى .

يدرس موريرا في رواياته وقصصه الأحوال البرازيلية المعاصرة دراسة وجودية من خلال منظوره ، ويحارب من وراء حجاب رمزي - سينمائي معاً الكبت والنفي . ويعالج أزمة الهوية الوطنية الضائعة . وتبرز بين أعماله ثلاثيته ومجموعته القصصية (مالفاديزا دورون) لا بوصفها أكثر الأعمال تعبيراً عن براعته الفنية فحسب ، ولكن بوصفها أيضاً من الأعمال التي أعطته مكانته البارزة في الأدب البرازيلي المعاصر .

* لويس فيليلا (Luiz Velela) :

كاتب روائي خصب له شهرته في البرازيل . ولد أوائل الاربعينات في بلدة صغيرة تدعى ايتويوتابا داخل الولاية الهامة ميناش جيرايش في وسط البرازيل . ودرس الفنون ونال شهادة الفنون الحرة من جامعة ميناش في بيلو اوريزونته . قضى أوائل سنة ١٩٦٨ في سان باولو كناشر ومحرر في جريدة (Journal de tarde) (جريدة بعد الظهر) ، وهي تجربة أفادته فيما بعد في عمله الروائي ، وخاصة في روايته (الجحيم هنا كذلك) . وفي أواخر سنة ١٩٦٨ ساهم في برنامج الكتاب الأمريكيين العالمي بجامعة اياوا . وفي سنة ١٩٦٩ ذهب إلى أوروبا .

منذ سنة ١٩٦٧ ظهر بوصفه واحدا من أكثر الكتاب الشباب في البرازيل بروزاً وشأناً ومستقبلاً . وصار له بسرعة نقاد عالميون يشيدون باسمه ، وله شعبيته وله سمعته الواسعة ، ولم يكن قد نشر سوى رواية واحدة : (Tremor de terra) سنة ١٩٦٧ ، ونشر سنة ١٩٦٨ (في البار No bar) . وتتضمن أعماله بعد ذلك مجموعة حسنة من الروايات والمجموعات القصصية : نشر مجموعة (Tarde de noite) (في هزيع متأخر من الليل) سنة ١٩٧٠ ، ثم نشر رواية (Os novos = الجدد) سنة ١٩٧١ ، ثم مجموعة (O fim de tudo) (نهاية الجميع) سنة ١٩٧٣ ، وصمت فترة لينشر بعد ذلك سنة ١٩٧٨ مجموعة (Contos escolhidos) (قصص مختارة وهي انطولوجيا قصصية) ثم أعقبها سنة ١٩٧٩ بمجموعة (Lindos pernas) ، ثم برواية (O inferno e aqui) سنة ١٩٧٩ . ورواية (O choro no travesseira) (الكورس على الخشبة) في السنة نفسها . وفي سنة ١٩٨٢ نشر رواية (Entre amigos) (بين الأصدقاء) .

» اشتهر فيليلا بتصوير الحياة الحميمة الخبيثة للبرازيليين العاديين . وقد أظهر

خلال رواياته الأربع ، ومجموعاته القصصية الخمس اهتماما خاصا بالأطفال .
ولعله أفضل كتاب البرازيل في استخدام الحوار ونقد كرس بعض أعماله
لاستكشاف المآزق الوجودي للبرازيل المعاصرة . بالإضافة إلى اهتمامه بالإنسان
العادي . ومن خلال هذا المنظور الشامل شارك في الحوار الدائم حول الشخصية
الوطنية التي تبرز بكل وضوح في أعمال جيله من الكتاب » .

* إلياس جوزيه (Elias Jose) :

هو من الكتاب الروائيين الذين دخلوا الأدب عن طريق الدراسة المنظمة
والتخصص . ولد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بقليل . ونشأ في ميناش
جيرایش ، منطقة الجبال والوديان والمعادن في داخلية البرازيل . وظل يفضل
العيش في الداخل إلى اليوم . تخصص في الأدب فهو أستاذ نظرية الأدب ،
والأدب البرازيلي والبرتغالي واللغة المقارنة في كلية الفلسفة في غواشوبه
(guaxupe) هناك . الرزاة والعمق والتنظيم والتحليل منحت كتبه الكثير من
التقدير والسمعة .

بدأ منذ سنة ١٩٧٠ في نشر أعماله الأدبية التي تتضمن عددا من الروايات :
(Amal - amada) التي نشرت سنة ١٩٧٠ ثم (O tempo camila) سنة
١٩٧١ ، ثم نشر في سنة ١٩٧٤ (Inquieta viagem ao fundo de poco)
(رحلة مقلقة في قاع البئر) ثم نشر بعد ذلك (Un Passaro en panico)
(عصفور في حالة هلع) سنة ١٩٧٧ ، ثم جاءت روايته البارزة : (Inventar -
io do inutil) (قائمة بالأمور اللامجدية) سنة ١٩٧٨ وتلتها في سنة ١٩٧٩
(Fantasma no parao) .

وعالم جوزيه الروائي هوريفه ، الريف البرازيلي الداخلي في المنطقة
الوسطى . ولكنه بدوره عالم قائم إن لم يكن أسود . التشاؤم فيه هو الذي يميزه ،

لكنه ليس أسود كله لأنه يضم على الأغلب خيطا من الخيال ينسجه معه ليسمح ببعض الأمل المسكين . فروايته (قائمة بالأُمور اللاعجدية) تقوم على الواقعية السيكولوجية ، ولكنها ذات بعد وثائقي يظهر في أطوارها الربيفي الإقليمي الراكذ ، وفي الاشارات المحددة للانقلاب العسكري (سنة ١٩٦٤) . ويطلها يستعيد حياته الياثسة ليتعافى من انهيار عصبي أصابه .

وأسلوب جوزيه متنوع ، وإن كانت الواقعية السيكولوجية هي التي تسيطر فيه . كما تسيطر الصنعة الكتابية ، والمسارات التقليدية التي سادت منذ الخمسينات في الكتابة .

٦) كتاب من الشمال الشرقي البرازيلي

✽ انطونيو توريز Antonio Torres :

هو من الشمال الشرقي للبرازيل ، من المنطقة الداخلية لباهيا وسان سلفادور . وهذا يعني أنه من أبناء مناطق السرتون ، الأرض المشققة بالجفاف ، والزنجي راقص الكاندومبيله ، وريا « القرنفل » والقرقة . تخرس أولا بالكتابة هواية ، ثم صار صحفيا في ولاية سان سلفادور ، قبل أن ينتقل إلى الريودي جانيرو ليكسب رزقه بوصفه كاتب دعاية إعلانية .

نشرت أول أعماله سنة ١٩٧٢ وكانت (Um cao uivando para a lune) (كلب ينبح على القمر) ، ثم أعقبها سنة ١٩٧٣ (Os homens de pesr edondo) (الرجال ذوو الأقدام المستديرة) ، ثم نشر سنة ١٩٦٧ هذه الأرض (Essa terra) وفي سنة ١٩٧٩ نشر رسالة إلى الأسقف (Carta ao Obispo) ، وأخيرا نشر سنة ١٩٨١ وداعا أيها العجوز (Adeus velho) . وأعمال توريز كلها تصوير للباهاينيين المطرودين إلى الجنوب في سان باولو وريودي جانيرو . ولكننا نجد كذلك تصورا لهم في باهيا نفسها أيضا سواء في

العاصمة سلفادور أو في قرية جنكو . « وهكذا نراه قد أكمل الدائرة ما بين الحياة في الأقاليم الخلفية في البلاد ، وفي العاصمة السابقة للبلاد ، ودار أبطال رواياته دورة كاملة . . . » .

وليس بالغريب أن تصطدم روح هذا الباهياني بالمدينة ، ومط الحياة السائد فيها . وأن يكون رد فعله المباشر هو النفور منها ، واعتبار تلك الحياة نوعاً من الجنون . فمنذ الرواية الأولى توصل بطله إلى أن المدينة هي جهنم . إن بطل (كلب ينبع على القمر) يدخل مستشفى المجانين في الربوطائع مختاراً . وكان ينطلق في الأيام التي يسمح فيها بمغادرة المستشفى في رحلات طويلة على الأقدام يواجه بها اشخاصاً ، ومواقف ترمز إلى الأمراض المتنوعة في المدينة البرازيلية .

وكان قبل ذلك قد استقل طائرة مروحية في رحلة بالحلم في سان باولو ، فقابل عدداً من الأشخاص في ماضيه ، في مواقف مختلفة . وقد انتهى من كل ذلك إلى أن العالم مجنون مجنون ، سواء أعاش الإنسان داخل مستشفى الأمراض العقلية أم خارجه . ولهذا نراه ، في آخر الرواية ، يترك الجنون المنظم في المستشفى لينغمر في الفوضى التي تضرب في الشوارع ! وقد تطور هذا الموقف لدى توريز بعد ذلك ، فأضحى نوعاً من العدمية في روايته (هذه الأرض) ، ورسالة إلى الأسقف) . وقد قدم فيها الانتحار على أنه مأزق وجودي . ثم عاد في روايته الأخيرة (وداعاً أيها العجوز) إلى حالة جهنم والجنون . . . ولكن بطله لا يحس بها في المدينة هذه المرة ، وإنما في قرية في ريف باهيا : يقول بطلها : « إن جهنم قد امتدت إلى هنا أيضاً » . كأنما زحف الجنون وزحفت النار معه إلى الريف البعيد . هذا الموقف التشاؤمي المطلق الذي يقفه توريز لا يشبه في حال موقف التشاؤم الرومانسي الذي كان يقفه الرومانتيكيون في القديم ، والقائم على الاشفاق . إنه تشاؤم مطلق يأس له أسبابه . فلن توريز إنما يسجل فيه في الواقع هذه الفترة الأخيرة من حياة المجتمع البرازيلي التي ساد فيها القهر والتعسف في

الريف في ظل اليمينية العسكرية بعد سنة ١٩٦٤ ، وتوالي الهجرة إلى المدن ، وتفاسم التراكم السكاني فيها ، واتساع الهامشية الاقتصادية والاجتماعية للجماعات الدنيا . وكان ثقل التحالف بين الطبقات الحاكمة العسكرية ، والطبقات المستقلة من اقطاعية في الريف ، ورأسمالية في المدن أقسى من أن تحتمله الطبقات القابعة في قاع المجتمع . في حين كانت الثقافة والنشر والإعلام في قبضة الرقابة الصارمة ، والاختلال الوظيفي في المدن وفي خدماتها الاجتماعية وأسواقها يزداد ، وفرص العمل تنقص ، وأحياء من الأكواخ والاحصاص تنتشر حول المدن . والعلاقات الإنسانية تتدهور بانتشار عصابات الجريمة والعهر والقمار والسلب . وتحول الفقر المزمن إلى أمراض مزمنة . في الوقت الذي كانت الديون القومية فيه ترتفع إلى ٤٠ و ٦٠ ثم ٨٠ ثم تصل إلى ١٠٠ مليار دولار . وكانت النتيجة الطبيعية لكل ذلك شعور الأدباء والشعراء وأهل الفكر المكبوت بانهايار المدن لافي سان باولو وريودي جانيرو فقط ، ولكن في بلو أورزونت ، وسلفادور وبورتو أليغرة كلها، بل وفي الريف أيضا بعد أن أصبحت يوما بعد يوم حلبة للحروب الاجتماعية المندرة بالزلازل الثورية ، والانفجارات المفاجئة كالبراكين . . . إن هذه الموجة من الروايات والقصص إنما هي ضرب من الاحتجاج والغضب وصرخة الانذار ضد الغرق .

والواقع أن فكرة البرازيل المغلوبة على أمرها « فكرة تسري » كالنشيد الحزين لا في أعمال توريزوحده ، ولكن في أعمال معظم الكتاب البرازيليين . وثمت في رواية (وداعا أيها العجوز) موقف معبر جدا عن هذه الفكرة يقول بطلها زوليمرو لشقيقه أنطونيو :

« . . . ألا تشعر أننا جميعا مغلوبون على أمرنا ، مغلوبون إلى أن نقول وداعا للحياة) .

- ويجب توني : مؤكد . ولكنه ليس أمرا جديدا يا كيد . . . إنه يحدث منذ زمن

طويل ، منذ ٢٢ أبريل سنة ١٥٠٠ ، يوم اكتشفت البرازيل ! » .

وبعد قليل ، في الرواية نفسها يقول الأخ لأخيه :

- نعم هذا صحيح . الغضب هو ما أشعر به !

ويجيب الأخ :

- ومن منا ليس لديه سبب للغضب ؟ أنت وأنا والشعب كله . بل الجميع
نين أنهم على خطأ يا ولد ! كل شيء خاطيء . ما عليك ألا أن تنظر حولك .
فماذا ترى ؟ عالم بأكمله من شعب مهان . حياته لا قيمة لها . لا معنى . ومشاكل
تافهة . وجيش من الجبهة يقرع بابك كل صباح . وأما الكبار الكبار فيعيشون
هناك في عليائهم أجمل العيش ، ونحن ندفع ثمن ذلك ديونا وضرائب . هل
تقول الغضب ؟ لا تحدثني عن الغضب ، إن مالا استطيع تفسيره هو لماذا لم
تُحرق هذه البلاد بعد ؟

والواقع أن عوامل عدة تجتمع لتغرق معظم كتاب البرازيل في هذا التيار
الأسود ، تيار اليأس من المستقبل . إنه الطوفان ، رغم أنهم يناضلون جميعا
للخلاص منه .

* ايدلبرتو كوتينيو (Edilberto Coutinho) :

هو بدوره من الشمال ، من برنامجكو ، من شمالها الشرقي حيث أخذ شهادة
الحقوق ثم عمل في الصحافة ، فصارت مورد رزقه ، محررا سياسيا وناقدا أدبيا .
معرفته باللغة الفرنسية والإنكليزية سمحت له بأن يذهب مراسلا صحفيا إلى
أوروبا لجريدة (Journal de Brasil) ومجلة (Manchete) ، وهكذا أمضى
سنوات عديدة متجولا في أوروبا ، متصلا بآدابها وفنونها الاتصال المباشر ،
مخالط تياراتها ورجالها بحكم عمله . وقد ساهم سنة ١٩٧٨ في برنامج الكتاب

العالمي ، وطاف الولايات المتحدة محاضرا عن الأدب البرازيلي . كسبت مجموعة قصصه : وداعا ياماراكانا (Maracana Adeus) جائزة بيت الأمريكيتين المعروفة سنة ١٩٨٠ ، ومن أعماله الأخرى : (Um negro vaia forra) التي نشرت سنة ١٩٧٧ ، (Sangue no praça) دم في الساحة (نشر سنة ١٩٧٩) اللعبة المنتهية (O jogo terminado) (سنة ١٩٨١) .

يظهر في أدب كوتينيو أثر ثقافته المتنوعة ، كما يظهر فيه موقف فكري ربيي ناجم عن تأثره بالتيار الأدبي الوجودي الفرنسي ، فثمت خطان محوريان اثنان يجمعان أبطال قصصه . أولهما : الحيرة الوجودية ، والتي تصل حتى الشلل في مجابهة خيارات الحياة ، وهي ليست في حقيقتها خيارات على الإطلاق ، ولكنها أقدار مقدورة . والثاني هو النظر إلى الحياة على أنها لعبة رياضية ، والنظر إلى السلوك الإنساني فيها ضمن شروط اللعبة . وإذا كان الخط الأول ينتهي بالآ يتخذ أبطاله أي خطوة عملية ردا على قوانين الحياة الاستبدادية ، ولعبتها التي يلعبون بمحض اختيارهم ، فان نهاية الخط الثاني هو أن يقوموا بعمل سخيف ، أولا معنى له جوابا على اللعبة العبثية . وتصل الشخصية في الحالين إلى المأزق الوجودي !

وعالم كوتينيو شديد السعة . ليس محصورا في المدينة أو الريف ، ولكنه ينظم سلسلة واسعة من النماذج البشرية . ففيه المزارعون الريفيون ، وصيادو الأسماك ، والجواسيس ، ولاعبو كرة القدم ، وبائعو الخضار المتجولون ، وفيه لاعبو القمار ، والبিশو الشعبي ، والطبقات الهامشية ، كما أن فيه جماعات من الطبقة المتوسطة . وقد أخذ النقاد على كوتينيو هذا التنوع . وبعضهم اعتبره نوعا من (البرازيلية Brasileira) . أليس التنوع (العرقي والجغرافي والاجتماعي والثقافي وعدم الوحدة من خصائص الشخصية البرازيلية ؟

٧ (أدبيات من النساء

* الدا فان ستين (Elda Va Steen) :

كاتبة من ولاية سانتاكاترينا ، الولاية الممتدة بين أرض الغاووشو والبارانا جنوب سان باولو ، ومعظم أهل هذه الولاية من الألمان في الأصل . واللغة الألمانية هي السائدة بينهم حتى في السجلات الرسمية . ولدا ، ألمانية العرق بدورها ، لكنها تجيد لغتها البرتغالية كل الإجابة ، وقد انخرطت في الصحافة منذ سنة ١٩٥٤ ، واستقرت في سان باولو ، وساهمت بنشاط واسع في السينما البرازيلية ، كممثلة ، وكاتبة أيضا ، كما ساهمت في النشاطات النسائية . وفي هذا المجال طبعت مجموعة من أعمال النساء البرازيليات بعنوان قصة المرأة البرازيلية (O conto de Mulher Brasileira) سنة ١٩٧٨ ، ثم ارتبطت بدار نشر جريدة في سان باولو وطبعت مجلدين من الكتابات والمقابلات بعنوان : العيش والكتابة (Vivere e escrever) . ومن أعمالها الأخرى : (Cio) التي نشرت سنة ١٩٦٥ ، ورواية مذكرات الخوف (Memória de Mado) سنة ١٩٧٤ ، و (Antes de Amanhecer) قبل طلوع الفجر التي نشرت في سنة ١٩٧٧ ، وروايتها (Coracoes Mordidas) (قلوب معضوضة) سنة ١٩٨٣ . والاطار العام لأعمال فان ستين هو الاطار المدني لسان باولو . وبطلاتها هن في معظمهن من النساء . وتكشف في أدبها عن إدراك دقيق لسلوك الناس في المدن . وعن تعاطف مع ضحايا الحياة ليس بغريب عن امرأة . والكثير من قصصها يتناول القضايا المعاصرة الخاصة بالسياسات الجنسية ، أو بقضايا النساء في مختلف مراحل الحياة .

* ماريا كولا سانتني (Mariana Colasanti) :

من أهل الريو ، وثقافتها متنوعة فهي رسامة وطابعة وتعمل في الصحافة وقد

كتبت عدة أعمال للتلفزيون ، وانخرطت أخيرا في الحركة النسائية في بلادها
ناشرة إثنين من أكثر الكتب مبيعا في البرازيل وهما : المرأة الجديدة (A nova
mulher) سنة ١٩٨٠ ، والمرأة من هنا وإلى الأمام (Mulher daqui para
frente) سنة ١٩٨٠ ، ومن أعمالها الأدبية قبل ذلك : أنا وحدي (Eu
soshya) الذي نشر سنة ١٩٦٨ ، ولا شيء في الـ (Nada na manga) سنة
١٩٧٥ ، ومسكن للروح (Amorada de ser) سنة ١٩٧٨، وكتاب : فكرة كلها
زرقاء (Una: idela toda azul) سنة ١٩٧٩ .

وأدب كولاسانتي الذي يظهر في هذه الأعمال الثلاثة الأخيرة أدب خيالي
(فنتازي) خالص . ومجموعتها القصصية (مسكن الروح) جاء اسمها من
كلمة هيدغر الماثورة : (اللغة مسكن الروح) . وهي في الوقت نفسه عنوان
إحدى القصص التي تتحدث كولاسانتي فيها عن سكان عمارة واحدة لكل منهم
أوضاع مختلفة عن أوضاع الآخرين . ويمجد المرء تصويرا بالغ الدقة للأحوال
الإنسانية المختلفة . ففي كل شقة من هذا المسكن ثمت حقيقة شعرية وتعسفية
بارزة ، والقارئ ينظر من خلال ثقب المفتاح ، كما لو أنه « أليس في بلاد
العجائب »، إلى عالم بالغ الغرابة ، يشبه عالمنا من أوجه عدة ، ولكنه يستخدم
إدراكنا لما هو مألوف كنقطة انطلاق إلى عالم اللامعقول . وطريقة العرض التي
تبدو ساذجة في الظاهر إنما تستخدم كغشاء شفاف يخفي التصوير العميق لسخف
الإنسان ولحكيمته أيضا .

✽ أنا ماريما مارتينز (Ana Maria Martins) :

كاتبة برزت في السنوات العشر الأخيرة . ولدت في مدينة سان باولو ولكنها من
طبقة الملاكين القديمة فيها . وقد اتاحت لها حالة أهلها الحسنة سبيل التنوع في
الدراسة والتحصيل . فقد نشأت على الدراسات الإنكليزية الألمانية في الكلية
التي تحمل هذا الاسم ، وعلى الدراسات الفرنسية في الأليانس الفرنسي

الإنكليزي ، وعلى الإنكليزية في مدرسة الثقافة الإنكليزية . واهتمامها بدراسة اللغات لميوسع ثقافتها فحسب ، ولكن جعلها أيضا تعمل في الترجمة . وهي ترضي نفسها كامرأة بالعمل في القضية النسائية ، وترضي ذوقها الفني بالعمل الأدبي . وقد نشرت في هذا المجال عدة أعمال :

(Atrilogia de empedrado e outros contos) (ثنائية وقصص أخرى) التي ظهرت سنة ١٩٧٣ ، و (Sala de espera قاعة الانتظار) سنة ١٩٧٨ ، و (Katamando كاتاماندو وهو اسم مدينة في البرازيل) سنة ١٩٨٣ .

وتستخدم آنا ماري في تصويرها القصص الواقعية السيكلوجية على الدوام ، كما تستخدم الاطار المديني في سان باولو لرسم بطلات رواياتها وهي كالعادة من النساء في الغالب .

زيلييا كاتاني (Zelia gattai) :

كاتبة جدية . تعيش بجانب جورج آمادو منذ أكثر من أربعين سنة . تواجه عواصف الحياة بتصميم حازم ، وبقوة المراكب في أعالي البحار .

ولدت لأبوين مهاجرين من إيطاليا . وقضت طفولتها ومراهقتها حيث ولدت في سان باولو ، وفي حي عمالي مسكين تختلط فيه الاجناس واللغات ، وتزدون انقطاع مواكب الجنائز مشتقة « البسطات » التي يعيد تنظيمها الباعة ، والعربات الفارغة ، والحمبر حاملي الحليب

كتبت الكثير . ومن أهم ما كتبت : (مذكرات تعاون زوجي طويل) تذكر حياتها مع جورج آمادو . وكتابها الأخير يحمل عنوان (فوضوي من فضل الله) وهي عبارة كانت اللازمة الدائمة لأبويها . وقد روت فيه أحداث طفولتها وصورتها مع صور حيها القديم في سان باولو .

٨ (كتاب آخرون

ونقصد بالآخرين جميع أولئك الذين ضاق عنهم الكتاب واقصر الذكر والتعداد .

فقد كان من الصعب أن نتابع الترجمة ، ونستوفي إحصاء الأدباء والكتاب في شعب يصل إلى مائة مليون . وما قصدنا في الأصل إلا إلى ذكر الملامح . وثمت بين من أغفلنا عامدين أو ناسين أو جاهلين أعداد بعد أعداد من المبدعين . وكان يجب أن نستوفيهم قدر الطاقة . وبينهم الكثير ممن لا يقل عن ذكرنا قدرا وشأنا ، وجمل قافية ، وتحليق خيال . من هؤلاء :

* موريو روبيان (Murillo Rubiao) :

الذي أدخل إلى البرازيل في أوائل الخمسينات ، الرواية العبثية والخيالية (الفتازيا) واللامعقول . زرع ذلك في قصصه باندفاع خاص عنيف ، وفتح بذلك طريقا ندر في الناس من لاحظته في وقته . ولكنه مالبت أن صار مدرسة فيما بعد . ومن مؤلفاته مجموعته القصصية (O ex- magico) (الساحر السابق) التي نشرت سنة ١٩٤٧ ، ثم اتبعها ، على فترات متفاوتة ، بنشر سبع مجموعات قصصية أخرى .

* جوزيه ج . فيغا (J. J. Veiga) :

وهو زميل روبيان في الرواية ذات الخيال العبثي . وقد نشر مجموعته الأولى من القصص (Os cavalinhos de platiplanto) سنة ١٩٥٩ ، والتي تتميز بنوع من السكون الفاجع المدمر . وأكمل منذ ذلك الوقت مجموعتين أخريين ، وروايتين طويلتين ؛ وقد ترجمت إحدى مجموعاته ، ورواية من رواياته إلى الإنكليزية .

* روبرت دروموند (R. Drummond) :

وهو من الكتاب الكرنفاليين البارزين . قطع الصلة مع تقاليد الرواية ، وادخل عليها الرسوم والنصوص حتى أصبحت قطعة عضوية من مشروع الكتابة . وهكذا أصدر مجموعته القصصية سنة ١٩٧٥ (موت د. ج. في باريس) (Amorte de D.J. em Paris) ، ثم أصدر روايته (ارنست هيمغواي مات مصلوبا) (E. Hemengway morreu crueifiado) سنة ١٩٧٨ وهي الرواية الشاذة في كل شيء ، سواء في النص أم في الإخراج .

* جوان أوبالدورييرو : Joao Obaldo Ribeiro

الروائي الباياني الكبير الذي لا يقل شأنًا عن الكبار الآخرين في منطقة باهيا وفي البرازيل . وهو صاحب الرواية المعروفة (السرجان جيتوليو) (Segent getulio) التي تحكي حكاية فرد واحد ، ولكنها تحكي من خلاله قصة عهد بأسره ، ومنطقة بكاملها . والرجل هو السرجان جيتوليو الرقيب في الشرطة العسكرية ، والشرير الذي يبعث على التفرز ، والذي لا يعرف كم رجلا قتل من السجناء السياسيين ، وهو يقودهم في فيافي السرتون . حياته تأهلها الجماع المتفجرة ، والجثث المتعفنة التي يأكلها النمل . إنه رجل واجب ، يد القدر ، محترف موت . ويعجب بقاطع الطريق المشهور (لامبيون) لأنه فحل بكل معنى الكلمة ، ولأنه شاعر على طريقته . ويصف أوبالدو هذه العقلية الشيطانية في رواية كاملة هي صورة لعهد مضى ، أويكاد يمضي في منطقة السرتون . ويتذكر هذا الجلال ، وهو عجوز ، عهده الماضي ويعلم أنه انتهى ، ولكنه مستمر في أن يعيش ملحمة الخاصة . وحين تحاصره ذكرى ضحاياه تنتابه لحظة تصوف ونشوة ، ويرى ان باستطاعته شرب مياه النهر جميعا ، أو منع الشمس من الشروق ! . . . إن (السرجان جيتوليو) رواية إقليمية الإطار ولكنها قصة كل القتل الظلام بكل مكان . وهي ملحمة العدم (السرتون) في جحيمه وغباره

الرمادي ، ولكن بطلها المأسوي يذكرنا بالجبابرة العالمين وهم في الانهيار الأخير !

* سيرجيو سانت انا (Sergio Sant Anna) :

الكاتب الخيالي (الفانتازي) الكرنفالي الذي أخفي دون انقطاع تحليله للوجود البرازيلي المعاصر وراء ستار من الخيال البشع المبالغ فيه . ومجموعته القصصية الثانية التي تحمل عنوان (Kramer) نشرت سنة ١٩٧٣ ، وفيها يواصل انشغاله بالعنف الذي كان أول سمة دخل بها عالم الأدب . حيويته في رسم شخصياته جعلت المجموعة عملا وثائقيا . وكرمر سياسي شعبي تورط في لعبة لا يفهمها ، ولا يستطيع السيطرة عليها . . . لأنه ككل زعماء العالم الثالث ليس أكثر من بهلوان ، وليس أكثر من ممثل يدعي الديمقراطية رداءا للتمثيل . والصحفي الذي يحاول اختراق قناع كرمير يهزم في النهاية ، لأنه لم يكن ثمت شيء يخفي خلف القناع ! إن مرور الأيام على حكايات سانتانا الرمزية لم يؤد إلا إلى جعلها أكثر شأنا وأهمية .

* دومينغو بليغريني (Domingo Pelligrini) :

الروائي المولود في ولاية البارانا جنوبي سان باولو . والذي يعمل استادا أو صحفيا هناك ، والذي كتب منذ سنة ١٩٧٧ عدة أعمال منها : (Os meninos) (الأطفال) ، و (A homem vermelho) (الرجل الأحمر) سنة ١٩٧٧ ، و (A sete pragas) (السبعة) سنة ١٩٧٩ . وعالمه القصصي يشمل البرازيل كلها فيما عدا روايته : (أكبر جسر في العالم) فهي تجري في اليرودي جانيرو . ولكن الغالبية العظمى من قصصه تجري في البارانا حيث يعيش . وهو إلى هذا كاتب وثائقي واقعي . لكنه يتميز بحيويته المفرطة ، وبحماسه ، وبالإصالة التي يصور بها شخصياته . « وليس في الأدب البرازيلي ما هو أكثر اقناعا منها » . وهو يعتمد على الرواية بضمير المتكلم مما يجعل روايته أقرب إلى النفس لاسيما وهو ينقل الرواية بلغة حية حماسية تدعو للدهشة .

* صاموئيل راويت (Samuel Rawit) :

الكاتب الصعب المجدد الذي يلتقي في قصصه المقتضبة والمتماسكة البنية مختلف الموضوعات والمواقف . مجموعته القصصية (Osete sonhos) (الأحلام السبعة) سنة ١٩٧٤ ترسم شخصيات تدرك العذاب المفروض عليها ، أو تلجأ إليه كنوع من التطهر . والبطل الأثوذج لدى راويت هو الشخصية التي تضطر في فترة المحنة إلى الكشف عن مكنون صدرها ، محاولة الهرب من الشلل في مواجهة المستقبل .

* أنطونيو هويس (A. Huice) :

ولد في ريودي جانيروسنة ١٩١٥ ودرس وعاش فيها . قام بعدة سفرات إلى خارج البرازيل ، ويعتبر في الأوساط الأدبية كاتباً برازيلياً من البارزين . عمل طويلاً في الكتابة الفنية والنقد الأدبي . وترجم إلى البرتغالية رواية جيمس جويس (١٨٨٢ - ١٩٤١) أوليس Ulysse . ودراساته في الشعر البرازيلي أبرزها كتابه : « ستة شعراء ومشكلة واحدة » . نشر في ريودي جانيروسنة ١٩٦٠ (Seis poetas e uma problema) ، كما نشر في تلك السنة نفسها كتاباً آخر يبنى عنه عنوانه : إحياءات لسياسة لغوية (Suggestao para uma politica de Linguagem) وفيه اقتراحات لسياسة في اللغة .

* جوزيه غيرمو ماركيور (J.guillermo Merquior) :

هو ابن الريودي جانيرو . ولد بها سنة ١٩٤١ وكان ذا ميل دائم للشعر ونقده . درس الأدب وأصدر سنة ١٩٦٣ بالاشتراك مع زميله مانويل بانديرا كتاب : (شعر البرازيل) (Poesia do Brasil) ، وبعد ذلك بستتين اتبعه بكتاب : (Razao de poema) (العامل الشعري) ، ثم أصدر كتباً أخرى كان منها سنة ١٩٦٩ كتاب : (Arte e socedad em Mareus, Adorno e)

Bengamin (الفن والمجتمع لدى ماركوس ، ادورنو وبنيامين) وهم أبرز أدباء أمريكا اللاتينية .

وهناك كذلك الكاتبان :

* ماريا باروسا (Maria Barrosa) .

* نيليدا بينون (Nelida Pinon) .

اللتان اتبعتا طريقة كلاريس ليسبكتور في الرواية .

وهناك أخيرا كذلك :

* ايريكو فيريسيمو (Erico Verissimo) :

الكاتب العريق الذي نشر سنة ١٩٧١ رواية سياسية بعنوان (Incidente in Antares) جعلها بشكل خرافة .

* ريناتو تاباغوس (Renato Tapagos)

صاحب رواية (Em camera lanta) التي نشرت سنة ١٩٧٧ وهي تحليل الإرهاب . وقد صادرها الرقابة سنتين ثم سمحت بها .

هذا بالإضافة إلى روبيم مركادو (Rubem Mercado) ، وكايو فرناندو آبريو (caio Fernando Abreu) ، وردوليو غوميز (Dullui Gomez) وفيتور جيوديسة (Vitor guidice) ، ويوليوس قيصر مونتيرو مارتينيز . ألم نقل إنهم كثيرون ، هؤلاء الآخرون ؟



الفصل السابع الوجه الآخر للأدب المهجري

١ (قصيدة الدم

يا بلاد العرب ! إنك في ذاتي . على صورة صحراواتك
يصاغ شعري . إنه لانهائي متقد
إني صورة منك أخرى
ففي مأساة جسدي وروحي
ثمت دوماً أسد يزأر ، ونخلة تمنح الفء
وساعة أتأمل في ذاتي
أسمع أصوات الأجداد
تصاعد في داخلي
مبهمة بعيدة رائعة
لقد شهدت جميع فترات الألق من قومي ،
قومي الذين أتوا العالم
بمصير لا يحور . مصير كالْفَجْر^(١)

هذه الأبيات هي بعض من قصيدة الدم التي تحمل مأساة الأدب المهجري
الآخر ، ذلك الأدب الذي ينتجه أبناؤنا في المهجر ، ولكن . . . بالحرف
الأجنبي . لأنهم لا يملكون التعبير عنه بالعربية .

(١) المقطع الأول من قصيدة بالبرتغالية لجميل منصور حداد (من سان باولو) سوف يرد ذكرها
وذكره فيما بعد ، وتحمل عنوان : قصيدة الدم .

ما قرأ هذه الأبيات من العرب أحد ، رغم عروبتها العنيفة ، ورغم أن صاحبا عربي الأب والام . ذلك أنها صبت في الحرف الغريب الغريب ، فكانت كالمنبت ، لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى . فلا هي عرفها العرب الذين أنشدت لهم ، ولا هي قبلها ، أو اهتم بها أصحاب اللسان البرتغالي . .

وهذا هو الوجه الآخر للأدب المهجري . إن له في الواقع وجهين منفصلين كل الانفصال كأنما هما عالمان :

وجه انتجه الآباء بالعربية . فهو بعض منا . وقد عرفناه وزوقناه بسمات الحنين والتأمل والغنائية . وجعلناه مدرسة أدبية ، ووجه انتجه الأبناء ولكن بالإسبانية أو البرتغالية أو الانكليزية أيضا - كما انتج بعض المغاربة بالفرنسية - فهو العالم الآخر الذي نجهل عنه - وخاصة بالإسبانية والبرتغالية - كل شيء . الذين كتبوه عروبتهم تصرخ في دمائهم والعروق ، ولكن لسانهم ملجوم بالعجمة . وها هنا المأساة . أديهم صراخ . من وراء حجاب عازل ، في غرفة معزولة مغلقة . وهم منا كعزف أوركسترا كاملة أمام شهود من الطرشان .

لقد اعتدنا الحديث عن أخبار الرزق ، ورنين الثروة التي جمعها ويجمعها العرب المهاجرون في الأمريكيتين ، وهي وهم كبير مزوق . وسمعنا وكتبنا الكثير عن المدرسة المهجرية وشعراء المهجر ، وما صدر إلينا من شعر القروي وفرحات والمعلوف في المراكب العائدة . وغنينا جوقة واحدة لجبران وأبي ماضي والآخرين . هؤلاء هم الآباء . ولكن أحداً منا لم يتحدث عن الوجه الآخر للقمر . لم يسأل أحد عن « الأبناء » وما أبدعوا من العواطف والخيال . نحن نجهل - أو نكاد - أن « المدرسة المهجرية » التي نعلم وندرس في الشعر والأدب ليست كل ما قلناه هناك في الشعر والأدب ، وأن ثمت أدباً عربياً آخر غير عربي اللغة أخذ يرفد البحار الغربية . نجومه ، أنساغ ، ملحمة الأرض معه ، سبق الكرم والخمر عليه ، رنين دهورنا العتيقة فيه ، كل ذلك قد يبدو لك غريباً مفاجئاً

كأنخبار كنوز السندباد ، ولكنه واقع حي يدرج بين الناس ، ذلك الأدب العربي الآخر .

إخوتنا وأبناؤنا في المهاجر هم الذين يصوغونه ، ولكنهم إنما يصوغونه لغيرنا وبغير لغتنا . لقد يحملون ترابنا في شرايينهم وفي العظام ، وراء « صورة اللحم والدم » ، ولكنهم للحرف الأعجمي الغريب ! أسمعت مرة بـ (ميرادلماز) شاعرة كولومبيا ؟ أقرأت شيئاً عن (سيسيليوكارنيرو) ، و (سلمون جورج) في البرازيل ؟ عن (اندره سابيا) في شيلي ؟ عن (ماريو العجي) في الباراغواي ؟ عن ... ؟ عن ... ؟

آباء هؤلاء ، الآباء المباشرون ، انطلقوا اضلاعاً فارغة ، ممزقة ، الى « أمالكا » . و « أمالكا » . يومئذ « عجل ذهبي له خوار » ، وقد تقيأهم أسفل البواخر ، هم وحظهم ، بكل مرفأ ، فكان كل ما فعلوا أنهم ضربوا الأوتاد ، وزرعوا الذراري وعادوا ، بعد جمع شيء من النشب ، إلى التراب الأخرس .

قصة الوحل والقمل ، وأصداغ الموتى ، والازدراء المفترس ، واليأس الأسود ، وعواء الجوع ، وبكاء الميجانا ، ومغازلة (الرايش)^(١) في الليل ، كل تلك القصة - الملحمة ماتت معهم ، لم يبق منها الآن سوى راسب لزج في التراث المهجري ، فيه الكثير من العقد المرضية ، ومن الحبز المر ، ومن مركبات النقص ، وأحماض الذكريات ! ولقد غنى أولئك الآباء جراحهم وأوطانهم ، والأفراح والأحداث شعراً وأدباً عربياً . ولكنهم غنوا معنا ، وبلسان الخليل الفراهيدي ، والمنهبي القديم ، ماخفت نسمة من أجواء المهجر في الغناء . وكيف تحفق والعيون والألسنة والأفئدة كانت وما تزال معلقة بالتراب البعيد ؟ لنعترف - ولو أبينا - أنها « بضاعتنا ردت إلينا » ، تلك البضاعة التي أتتنا

(١) أصغر وحدة في النقد البرازيلي القديم وقد انقرضت الآن .

من جبران ، وأبى ماضي ، حتى القروي ، وفرحات . فما أميركا فيها ، بأجوائها
الآلاف ، سوى بلد « الضرب » بجانب الطغراء لا المعدن الثمين ، إنها مكان
النسيج ، عند التوقيع لا النسيج الحي العميق !

الأبناء الذين ولدوا ونشأوا هناك في المغرب ، على الأتداء الغربية ، هم الوجه
الأخر المجهول لهذه المدرسة المهاجرة الأدبية . لعلهم الجيل الثاني منها ولكنهم
الجيل الغريب . هم الذين تفاعلوا مع البيئة الجديدة ، ولكنهم لم يكتبوا لنا
نحن . يكاد لا يعرف أحد منهم حرفاً من حروفنا ، ولا يدرك بعضاً من دنيانا
البعيدة ، ولكننا حاضرون مقيمون ، مع ذلك ، فيما بين الشفاف والقلب منهم ،
في السرائر السرائر . أليسوا أولاد « الماسكاته »^(١) القديم ؟ لقد تعلموا جميعاً
جمع الثروة . فما فيهم الآن من « يمسكت » ، أو يزحف على رصيف السوق .
واندثر « التوركو »^(٢) فيهم لأنه لم يكن له وجود ، وبرز من ورائه وجه العربي
المنتج الخلاق . وتجاوزوا عقدة « التوركو » وما جرت ، ليكونوا بين الطلائع التي
تصوغ أمريكا الأخرى و البرازيل الأخرى ، هم الآن برازيليون بامتياز . وهم
دنيامن الإمكان في الفكر والشعر والفقه والطب والاقتصاد والعمل والسياسة .
وهم يحملون إلى حضارة الأمازون الجديدة - وعوا أم لم يعوا - كل ما اختزنت
الأجيال العربية في كيانه من تراث . أليسوا ورثة الحضارات العربية التي تذهب
صعداً في التاريخ حتى أكثر من خمسة آلاف سنة ؟

لهذا ، ورغم غشاء الحرف ، وقيود العجمة ، تراهم يحملون من الشرق ،
شرقنا العربي ، روحانيته ، قيمه الخلقية ، غنائيه الأصيلة ، حبه للحرف

(١) البائع المتجول ، ومعظم المغتربين عملوا - وما يزال بعضهم يعمل - باعة متجولين ليجمعوا
ثرواتهم الأولى . وقد اشتقوا من الكلمة فعلاً عربياً يستعملونه .

(٢) لقب يرمي به كل مغترب عربي ، لأن أوائل المغتربين سافروا بأوراق عثمانية تركية ، وقد
بدأ ينقرض اللقب مع ما يحمل من معنى التحقير .

الجميل ، للكلمة ، يحملون فوق ذلك ، وقبل ذلك ميزة الخلق والابداع . إن تراثهم الأول الذي مارأوا ولا عرفوا ، هو لهم ينبوع حنان وتعلق ، وأما ذلك التراب العربي العميق فكنز من المجد والعطاء ، أي كنز .

وإذا كنا نجهل حتى وجود هذا الأدب المهجري الآخر ، فطبيعي أن نجهل بالتالي ما يحمل من معاناة للأقصى والأعنف والأفجع . وأن نجهل ذلك التوتر الكياني الذي يفجره لقاء ذاتين غريبتين وراء حدود اليومي ، والاجترار العابر ، وأن نجهل أخيراً التجربة المعاشة للغربة الكاملة ، جسداً ولغة وثقافة . ومجتمعا . لقد انصب كل ذلك في الحرف الأجنبي فماله من معاد .

هؤلاء الآخرون انتهى المغترب عندهم وبدأ المواطن . انتهى الوطن الاصلي وبدأ الوطن نفسه . وهم ليسوا في البرازيل فحسب ، ولكنك تجد آلافاً مؤلفة منهم بكل مكان . أمريكا اللاتينية مملوءة بهم ما بين ريوغرانده في شمال المكسيك إلى جزر النار في أقصى الأرجنتين . وتجددهم يعملون مختلف الأعمال . ففهم التاجر والبائع المتجول وراعي الابقار ، والمهندس والصناعي والطبيب وجامع القمامة والاستاذ الجامعي ، وبائع الأفاعي ، والمزارع ، والكاتب والمتشرد ، والصحفي والمضارب في الأسهم والمهرب وزارع البن أو قصب السكر . . . كل ألوان الحياة دخلوها . لكن قصيدة الدم تجري فواصل وقوافي وأناشيد في شرايينهم، وإن كانت تنسكب حيناً حروفاً وأسطراً وشعراً ، وتكتب أحياناً أخرى فهي ذكرى بعيدة ، وغمغمة مبهمة ، وبعض من قول قليل !

(٢) أفراد ضمن التيار

إذا كان المغتربون الآباء إنما اغتربوا « لمغنم » يطلبونه ، أو ثروة يجمعونها ، فالأبناء تحولوا إلى الحياة العادية للناس . لا ترهقهم « الغربة » ، ولا نداء الأهل في الوطن ، ولا حلم « بالعودة » التي تأتي ولا تأتي . . . اندماجهم في الحياة

أدخلهم في مسارها ، وسقاها قيمها والطموح . وإذا كان الآباء قد عاشوا وماتوا وهم لا يتقنون اللغة البرتغالية (أو الإسبانية) . وكانت لهم دوماً لكنتهم فيها ، وعقدتهم منها عند البيان المبين ، فإن البرتغالية (أو الإسبانية) هي لغة الأبناء الأساسية في الحياة . هي لغة الأم والمدرسة والثقافة وقد تسموهم ويسمون بها ، فهي لغة الأدب والشعر !

نقول « الأبناء » ونحن نقصد في الواقع الأحفاد ، وأحياناً أبناء الأحفاد . فقد مضت الأجيال بالمغتربين ، في البرازيل وفي غيرها ، فملاينهم الموزعة هناك بدأ بعضها ينسى تماماً أمسه البعيد ، لأن أمسه القريب قد نسيه قبله أو تناساه . ومع ذلك فإنك واجد ذبالة القنديل تشع تارة في الاسم أو اللقب ، وتارة أخرى في العادات والسلوك . وثالثة في لفظة الطرب والغناء ، أو صحن الطعام . . . لكن القنديل لم ينطفئ بعد . إن « قصيدة الدم » طويلة الفصول ، وفي البرازيل منها أناشيد بعد أناشيد . من هؤلاء :

* داوود (دافيد) نصر :

لبناني الأصل يسكن الريودي جانيرو ، كان زعيم المقالة الصحفية في البرازيل أواخر الخمسينات وفي الستينات . بالأحرف الضخمة العريضة تطبع مقالاته التي تبشها اثنتان وثلاثون محطة إذاعية . ثم يجمع المتشابه منها كتاب يباع كالحبز للناس . إنه قلم حديد كالسيف ، فيه رعشة وتوتر ينسابان إلى القارئ كالكهرباء . إذا تبني قضية فمعنى ذلك أنها أضحت لديه لهباً ينير ويحرق معا . بين دفتي كتاب من كتبه يحمل عنوان « عائدة » تقرأ قصة (عائدة خوري) الفتاة العربية التي حاولها بعض الفتية المفسودين من أبناء الملايين والساسة والنفوذ في ريودي جانيرو . فلما أعييتهم احتالوا فأدخلوها باب عمارة ، ودفعوها في مصعد إلى شقة في الطابق الثالث عشر . ودافعتهم عن نفسها عبثاً إلى أن تمكنت من اللجوء إلى الشرفة . ورمت عائدة بنفسها من الشرفة . وسجل الحادث انتحاراً

عادياً . وانصرف الفتية آمينين إلى قصور ذويهم .

كان ذلك في سنة ١٩٥٩ . ولكن الفتية كانوا في سنة ١٩٦٤ كلهم في السجن يقضون الأحكام القضائية التي صدرت عليهم . لقد دخل قلم دايفد نصر في القضية وجرحهم واحداً واحداً إلى السلاسل . آخرهم لاحقه وهو هارب في القطار إلى شيلي وأوقعه في يد العدالة . وفي مقدمة كتابه خاطبهم قائلاً : من البديهي ألا تفهموا قيمة الشرف الذي دفعت عائدة حياتها ثمناً له . هذه القيمة التي حملتها من بلادي أنا ، من بلاد العرب . ولكن ثمت قيماً أخرى من بلادي هذه سأعلمكم إياها ، هي قيم الحق والعدل . إن « التوركو » سيدافع عن قيمه !

وقد فاجأ دايفد نصر الناس ذات يوم بتحقيق تسلسل في مجلته ، حتى صار كتاباً آخر ، يحكي قصة مثيرة لمهندس برازيلي ومعاونه السوري العربي . كانا وحيدين في طائرة صغيرة يقودها طيار ومعاونه فوق الأمازون ، وسقطت الطائرة في الأدغال ، والدغل هناك مفترس لاتكاد تمر أيام على ما يسقط فيه حتى يغطيه النبت والأغصان وتعفو المعالم ! وكذلك كان . وضاع كل أثر للطائرة المنكودة . الطائرات التي أرسلت لتقصي آثارها عادت مخففة . كانوا يعرفون أنهم يبحثون فوق « جهنم الخضراء » التي لا تبقى على شيء ولا تذر . وذات يوم وقع بعض المولغين في الغابات على بعض حطام الطائرة وعلى مقربة منها . جمجمتان مع بعض العظام ، هي بقايا من سقط . . . وعلى دفتر صغير مع أوراق صغيرة تحوي يوميات كتبها المهندس قبل أن يلفظ النفس الأخير . ذكر المهندس أنه وقع مكسور الساقين لا يقوى على الحركة . وأنهم طالما لوحوا للطائرات التي تبحث عنهم فلم ترهم . وأنهم بعد أن استنفذوا مامعهم من الطعام اختلفوا وأصر الطيار وصاحبه على ترك الكسيح والبحث عن مخرج . وقد ذهب كل منهما في اتجاه . ولم يعودوا بعد ذلك أبداً . (وجدت بعض عظامهما في الغابة) . وأما

المعاون العربي فأبى مفارقة صاحبه ، وأصر على البقاء معه في انتظار الفرج . في اليوم الثامن والأربعين وكان يموء من الضعف والجوع جاءه الفرج بالموت . أما المهندس فجاءه (فرجه) في اليوم الرابع والخمسين

قمة المسألة أنهم جميعاً كانوا على بعد ستة كيلومترات فقط من الطريق العامة في الغابة ، لكنهم لم يسيروا في الاتجاه الصحيح ! واستغل دافيد نصر القصة لا لكي يسقطها على السياسة فحسب ، ولكن ليعطي الناس درساً آخر في قيم « التوركو » العربي : الوفاء ! - في مجتمع كانت - وماتزال - الأنانية المفرطة فيه هي القيمة السائدة .

سلمون جورج :

هو ابن سلامة إحدى الأسر في جنوب الجبل العلوي في سورية . دخل السياسة من بابها الأوسع فصار زعيم الأكثرية في مجلس النواب الاتحادي في الخمسينات . مارس الخطابة فله الدلاقة واللسن ، والبلاغة الأسيرة التي استخدمها في ألف محاضرة للدفاع عن سورية ، وعن القضايا العربية . وغرق في الشعر فهو بيان وقافية ودعوة عميقة لحب الحياة . من قصائده مانقش في أصقاع البرازيل في صدور الدور . ديوانه تزيينات عربية (Arabescos) فيه كل التلوينات الفكرية الممتدة من الغزل حتى الموت . وفيه لهيب الصحراء وظلال النخيل البعيد .

***رضوان نصار :**

كاتب برز منذ عشر سنوات . ولكنه برز بطريقة خاصة في التعبير هي إحدى الطرائق التي يحاول الكتاب البرازيليون المعاصرون بها فتح المغاليق لأدب جديد . إنها أكثر اختصاراً من الجملة البرقية ، وأكثر تركيزاً وكثافة . جملته في توتر غناء « البوب » وصخبه الموسيقي ، لكن فيها أيضاً نحتاً بالأعصاب والأظافر للأحرف والكلمة .

الأثر الأول الذي طبعه نصار سماه : (Lavoura Aracaic) = عمل عتيق أثري (إنها رواية نشرت سنة ١٩٧٥ ، ولكن أحداثها لاتلفت نظرك بقدر ما تشغلك معاناتها في القراءة . إحدى الناقدا ت قالت عنها : « إنها نظام نسقي يوحي بأنه نتيجة صبر ، بكل معنى كلمة الصبر ، على ماض سابق أساسي . إن الكلمات التي تزهو بموجات طويلة على شفقي راوي القصة مستأصلة الطبقات الدفينة في الكائن ، هي رقي وتعاويد وعزائم ، وهي تنبثق بهدوء أول الأمر ، متخلصة من ثقلها النوعي ، بعد أن حورها الجسد الخارج من خدره وهو يتلمس حدوده التي تمسكه سواء أكانت تحميه أم تتناقض معه » يقول نصار في الرواية :

« العرى في الغرفة (. . . .) الغرفة غير ممكنة الانتهاك . الغرفة فردية (. . .) الغرفة عالم . غرفة كاندراوية . هذه الغرفة المجهولة في البانسيون كمن فيها ، خلال هربه ، الابن الثائر ، الشاة الجرباء من الأسرة . إنها تغلق عليه كما يغلق الزحم الأمومي ، معارضة « بيت الأب » « معبد القوة القاهرة في الأسرة » وإن تكن . على اتصال غامض سري به .

في سنة ١٩٧٨ أصدر نصار روايته الثانية (Un copo de colera) (كأس من الغضب) ، ونجد فيها السمات ذاتها التي وجدناها في الرواية السابقة ، والتي جعلت قراءتها تصدم القارئ ، سواء في البناء أو الكتابة ، ولكن تلك السمات مدفوعة فيها حتى النهاية . إن نقشف نصار في النص لايحوز أن تحمله على حمل الفقر. ثمت مشهد من شخصيتين . ولكن العلاقة الثنائية بينهما تستغل بكل أبعادها في تصعيد متماد يميز فن رضوان وأدبه . « فثمت قبل كل شيء ثقل الأشياء ، ثقل الجسد ، ثم الكلمة التي تطوق الشيء عن أقرب بعد ممكن . و ثمت عالم ينتظر أن يبدعه الكاتب ، ثم ترابط المبادرات ، وتزداد وتصبح مبادرات للحب أو الامتلاك . وهو أخرى أن يسمى امتلاكاً ، فبطلا الرواية ليسا رجلاً وامرأة ، ولكنها الذكر والأنثى في اشكالية علاقاتها . وغموض تلك

العلاقات . إنها علاقة قوى من الحب والكره تذكرنا برقص الزواج عند بعض الحشرات . وكما تدخل هذه الحشرات عنصراً يثير الاضطرابات في عالمها المغلق ، فإن البطل ترك للنمل أن يقرض الكره الحي الذي يحدد أبعاده ، وأن يفتح ثغرة في السور ، في سوره نفسه ، وليس بالغريب بعد ذلك أن يدفعه هذا الحادث ، في فورة الغضب والانفجار المنفلت بعد ذلك ، إلى أن يضع موضع البحث علاقته بالعالم ، وموضعه من العالم نفسه . إنها مجابهة حتى يطفح الكأس ... حتى تطفح كل الكؤوس !»

إن أدب نصار مغامرة صعبة . مع الخيال ومغامرة أكثر صعوبة مع اللغة . ولكنها في الحالين تحد وحافظ في وقت معاً لقدرة القارئ على الخلق والإبداع كما يشاء .

* سيسيليو كارنيرو (سيسيل غنمة) : Cicilio Carneiro

طبيب سوري الأصل غلب عليه الطب بعد الستينات ، ولكنه كان قبل ذلك بين الروائيين الأوائل . روايته (A Fogueira) (وتعني النار الموقدة في بعض الأعشاب والأغصان) نالت جائزة الأدب البان - أمريكي في نيويورك سنة ١٩٤٢ . وماذا في هذه الرواية ؟ إنها تروي قصة الهجرة العربية من خلال أبيه وإخوته . تروي قصة ذلك الذي انحدر من « تربل » ، قرب طرابلس ، على الساحل اللبناني ليلقي العصا والذراري والجهود المنتج في البرازيل ، لقد كتب فيها مالم يكتبه الأدب المهجري مجتمعاً من قصة الاغتراب .

* نعيم أبو سمرة :

كان حتى توفي في الستينات من أبرز الكتاب . يكتب ووجهه إلى المشرق ، ففيه من شرقنا العربي روحه ، وجبريته ، وذلك الأسلوب العطر الذي يتعبد الكلمة . كان « خيامي » الهوى يدعو إلى عناق الحياة ، وامتصاص رحيق

اللحظة كالفراش ، لأنه كان في الأعماق للروح ولما وراء المادة . أعلام الفكر الإنساني تناولهم من هذه الزاوية . في كتاب رسم فيه آفاقه الثقافية الواسعة أكثر مما رسم المذاهب وطرق التفكير . أما في الرواية فكان رمزياً تحليلياً . لم تغلبه الواقعية على قلمه ، فإطاره من الأحداث ذاتي مجنح يوشك أن يلامس دنيا الشعر أكثر مما يقر في دنيا الرواية . لعله لهذا مثلاً هرب بخياله من إطار البرازيل ليكتب (رواية في استامبول 1) .

* ماريو نعمة :

دخل دنيا الفكر والأدب فاتحاً بعدد من المؤلفات التي تتابعت في عشرين سنة ، بين مطلع الأربعينات ومطلع الستينات ، حتى أضحى أمين (أكاديمية الكتاب البرازيليين) . واستمر ينتج بعد ذلك في الأدب والرواية والفكر . فهو روائي نقاد بحاث . ولكنه من وراء ذلك كله ، وفوق ذلك كله ، فنان تندی حروفه بعبادة الجمال وذوب العاطفة ، والايحاء الموحش الكثيب . إنه رغم تبتهل للجمال لا يخلع نظارته السوداء وهو يكتب .

هل ترائنا نتابع قصيدة الدم فنذكر أيضاً :
- باولو تولا الأديب الصحفي .

اسيس فارس ، الشاعر التاعس صاحب ملحمة « الماسكاته » البائع الجوال التي حكى فيها كل آلام المغترب العربي وكل بكائه .

أميل فرحات ، (ابن أخ الشاعر إلياس فرحات) الروائي صاحب رواية (الحلة الكبيرة) . (Grand tanjaron)

- مينرفا سعادة ، وديفا جبور الشاعرتين الرقيقتين .

كلاريس أبو سمرة التي لم تتجاوز اليوم الأربعين إلا قليلاً والتي نشرت في

السابعة عشرة أول ديوان لها بعنوان « نصف وردة » ووقعت القصائد باسم : لا

أحد ! Semi rosa nenhum

إننا سنكتفي من هؤلاء وأمثالهم بالتوقف عند اثنين : جورج مدور وجميل منصور الحداد .

(٣) جورج مدور (١٩١٨)

أديب شاعر كاتب . وبين المجلدين السابقين دماؤه في الشعر والقصص . إنه في الأدب البرازيلي نجم لامع لامع . ولعل ذلك لأنه يحمل في صدره أسرار الشرق ، وفي دماؤه تراثه العربي الخصب ، وفي عينيه أجواء دمشق في ظلها الحاني ، وتراها المخضيل بالندى ، وزهو الربيع .

وهو ابن باهيا ، ذلك البلد الذي نعرف لونا ومجتمعاً حاراً فاجعاً . وراءه ، وقد تجاوز الكهولة ، عشرة دواوين شعر أوزيريد ، وعشر مجموعات من القصص ومواسم الخصب إلى اقبال .

ورث عن والديه الدمشقيين (اميل مدور وماري زيدان) قلباً رقيقاً كأزهار الغوطة ، وعدسة حساسة كعوالم الأضواء ، والألوان في مدن الشرق القديمة . ونشأ في منطقة الكاكاو ، جنوبي ولاية باهيا ، أيام دولة الكاكاو البرازيلي ، وإبان الصراع الدامي ، في البرازيل ، لتملك قطعة من أرض هذا الذهب الأسمر .

أخذ منذ كان في العشرين من العمر ينظم ملاحم الفلاحين ، ورواد المجاهل الغاية ، شعراً يخلج بدقة التصوير ونبيل المشاعر الإنسانية . مجموعته الشعرية الأولى ، يوم نشرت ، لفتت أنظار النقاد فقال فيه كبيرهم ، سيرجيو ميليه : « إنني أقرأ جورج مدور دائماً بتأثر » .

وتتوالى دواوينه الشعرية بعد ذلك : (مسكن السلم) ، (إلى النجمة

والوحوش) ، (اللعبة الصينية) ، وغيرها فتحصد الجوائز الأدبية العديدة من المؤسسات الأدبية والمراجع الرسمية ، على السواء حتى أواخر الخمسينات .

في سنة ١٩٥٨ تحول جورج مدور من الشعر إلى القصص ، وإلى القصص القصير الشبيه باللحظة الشعرية . فنشر أولى مجموعاته القصصية : الماء الأسود . ثم تتوالى مجموعاته القصصية تباعاً : قصص حيي ، الحريق . . . قصص طفل . . . وكلها صور من منطقة الكاكاو ، وبلون الكاكاو المحروق ، فإذا به يحصد عليها بدورها الجوائز ، وإذا به يحتل مكانه المرموق بين كبار كتاب القصة البرازيلية ، وإذا به يقرأ مترجماً ، بالروسية والإنكليزية والإسبانية واليوغسلافية والفرنسية والإيطالية والألمانية ، في انتظار اللغات الأخرى . . . وأين العربية ؟

يتميز أدب جورج مدور بذلك الباب الموصول ما بين العين والقلب ، وذلك الحنين إلى الأرض الأولى ، وتلك الحاسة الاجتماعية ، التي تحتضن الوجود ، فهو غنائية خصبة مؤثرة ، وشاعرية للموسيقى وللترجيع اللانهايي ، ومن وراء ذلك حنين حضاري عربي ليس أعمق من رحمه الإنساني . ومن اعتداده :

« هل تعلمون أي صنعت في طفولتي

من خشب الأرز القديم سفنا

أجراها خيالي على اليم

وأن أبي ابن المدور نسج لسفني أشرعة ،

وأن أمي من آل زيدان نفحتني بحب التوت زاداً ؟

وطويت البحار استهدي النجوم

والآفاق المضرجة بوهج الأغاني والآهات

واليوم صار لي مرافئ أرسوبها آمناً

في ضوء البدر الفضّي ،

وقلبي ثمرة ناضجة . .

فإن حملت لكم من أسفاري مشمشاً وبقلاوة (١)

فهي مما منحني من الطيبات آبائي العرب » .

وقد بقي للمدور الكثير من طفولته وفتوته في البلدة الصغيرة المجاورة للنهر .
جوانحه مثقلة بما بقي . لهذا أصدر « قصص طفل » . ولم لا ؟ « أنا ما انفك
طفلاً - كذلك يقول - الأطفال وحدهم يستطيعون استرجاع عالمنا الذي سطا عليه
الليل . هم نجمة الصباح . إن الطفولة تبرز دائماً في قلوبنا حين يعد ولد لنا
أماناً كل ما لا نستطيع نحن أن نفعله بعد . . . »

وقد حمل المدور معه من أيام بؤسه والمسكنة في باهيا عضه الظلم الاجتماعي ،
كل شاعر فنان : فهو يساري الهوى يعيش في وهج المشكلة الاجتماعية للطبقة
الفقيرة المسحوقة . شخصياته القصصية منها ، وقلمه على الدرب الاشتراكي ،
وحياته للغلاب اليومي الموصول .

وانتقل المدور إلى سان باولو . هاجر مع المهاجرين إلى الجنوب يعمل في
الصحافة والإذاعة وكتابة الشعر والقصص . لكنه احتفظ بباهيا بين جوانحه . لم
يخرج على المدرسة البايانية، فقصته تحمل الطابع الإقليمي لتلك الأرض ، وتحمل
في كل سطر شميم (آغوايرينا) بلده . صديقه وسميه جورج آمادو كتب الرواية
البايانية ، فجاء هو يكتب الأقصوصة . ذلك روائي باهيا وهذا قصاصها .

على أنه دخل القصة عن طريق الشعر . ومن ذا الذي يمر بحقول الربيع فلا
يخرج ملء الصدر والخفت واليدين عطرا وزهرا ؟ إن من السهل أن ترى في
(المدور) القصاص (المدور) الشاعر . التكوين الشعري ، اللفظة الموسيقية ،
الغنائية الراعشة ، الصورة اللامحة هي هي - أبدا لا تفارقه تلك الأدوات

(١) هاتان الكلمتان لها في البرازيل رنين خاص يوحي بروحانية الشرق لا المعنى المادي .

الشعرية ، التي عرف بها كشاعر . وهو يكتب القصة في توازن مكين في الوقت الذي يحتفظ فيه بكل نكهة بلده ، وبحرارة الحديث الشعبي العادي فيه ، وبالأزوية المأسوية المسفوحة . إن نسبا عميقا عريقا يربط شعره بأدبه القصصي .

تستطيع مثلا أن تقرأ قصيدته « ليلية رقم ٨ » (Noturno No. 8) :
بوسعي أن أكون صاحب القصر كله .

- حسبي أن أكون راعيا .

...

لي أن أكون صاحب الزرع كله .

- حسبي أن أكون طحانا .

...

بوسعي أن أكون صاحب الغابة كلها .

- حسبي أن أكون خطابا .

...

لي أن أكون صاحب البستان كله .

- حسبي أن أكون بستانيا .

...

أستطيع إن شئت أن أكون أكثر مما تريدن وتشتهين .

- حسبي أن أكون . . . كما أنا .

وتشعر وأنت تقرأها بالرضى المطمئن نفسه الذي تشعر به وأنت تقرأ مثلا قصة « الدليل » الصغيرة . والدليل ليس سوى فتى صغير اسمه اوزوريو كان يعمل قائدا للاعمى دميان الزنجي . ووجد نفسه فجأة وحيدا في خضم سان باولو الواسع . قال له دميان الضير الذي كان يقتسم الصدقات معه :

- هيا إلى سان باولو : فقال اوزوريو : هيا !! . . .

وركبا الشاحنة وابتلعا من الغبار الكثير عبر مزارع الكاكاو ، والدرب الذي لا ينتهي . . .

كان أوزوريو معتزا بأن يكون دليلا في مدينة يسمع عنها أنها كبيرة . وفي السوق ازدهاه الضجيج والناس ، فاستأذن دميان ، وذهب فلم يرجع وحل محله في قيادة الأعمى فتى أسود . وندم أوزوريو وعاد . . ولكن أين دميان الآن ؟

وزاد ندم أوزوريو ، وتذكر استجداء الأعمى الحزين ، وما كان يصيبه من نصيب الصدقات . إنه لم يحاول مرة أن يمدح الأعمى . أمه كانت تقص عليه ما يجري لمن يفعل ذلك ، تصبح يده قطعة قديد أو كغصن يابس ! بل كان يطرد الفتيان الآخرين حين يحاولون فك قطع النقود من دميان . . . إنه يعرف هذه الحيلة كما كان يعطي دميان الصدقات التي تأتي في غيابه . وحين ماتت أمه لجأ إلى كوخ دميان ينام فيه على الأسمال دون نور . . . العميان لا يهتمون بالنور . . وكان دميان يغيب أحيانا في الليل . وخيل لأوزوريو أنه سمع مرة صوت امرأة والأعمى الأسود يقول لها : الصغير هنا ! وانطفأ النور . . . ويبدو أن العميان لا ينامون ! . . . وكان يدير في الليل بين جوانحه مخاوف شتى : أين ذهبت روح أمه ؟ وروح القتيل لماذا تهيم في الدروب المظلمة سعيا للانتقام ؟ لقد قتل جرذا فهل له من روح ؟ . . .

أما الآن فتستبد به رغبة في البكاء : لماذا ترك الأعمى ؟ كان يجب ألا يتركه للفتى الجديد الذي قد يمدحه . . . ووقف في محطة السيارات ينظر في الوجوه لعله يعرف وجها من تلك الوجوه التي رافقته في المجيء . . . عيناه أضحتا حراوين منتفختين ورأي وجها . وسأله الرجل :

- إذن ستعود يا أوزوريو . . . وأين الأعمى ؟
فقال وعيناه مليئتان بالدموع :

- ذهب مع بعض السيدات . قالوا إنه سيشفى ويمشي دون دليل . . . وهنا ليس من يحتاجني !

من مثل هذه القصة ، قصة المدور (دراهم الكاجو) . الأب بائع ثمار الكاجو يراقب ابنه وهو ينمو ، ويتعلم كيفية جمع الثمر وتنضيده وبيعه ، وحين يطمئن يودعه كل مهمته في الحياة قائلاً :

- دراهم الكاجو لك يا بني ! .

وعلى هذا النمط الإنساني الرهيف العميق الإيحاء تسير قصص المدور الأخرى . إنها في جملتها ، لحظة من الحياة اقتطعت ، في قطاع عرضاني ، ثم بلورت ثم درجت على الورق . إنها ليست ابنة الخيال ولكنها تملك تلك (الحتمية) الواقعية التي تمنحها التعبير الإنساني الكامل ! إن نوعاً من الصدى المصيري يتموج في أبعادها وراء السطر والحرف ، على أنه الصدى المتفائل ، المفعم ثقة بالإنسان . وانظر - إن شئت - ذلك الإيمان بالإنسان في القصتين : الأب في دراهم الكاجو يؤمن بابنه فيودعه كل مهمته في الحياة ، والدليل الطفل الذي أبق من الأعمى يعود لقيادة ضريره القديم ! ما يهم (المدور) أوعينه أن يقص القصص فقط . ما يهمه أن يفجر للإنسان ، في الإنسان ، نبع الأمل . أن يجدد الثقة بالكائن الشعبي البسيط ، بعمله ، باندفاعاته الغريزية وطيبه الفطري ، لا من خلال الزاوية البورجوازية الخارجية ، ولكن من خلال المشاركة المتفاعلة مع أعمق ما في الكائن الشعبي البسيط من نزعات ، وأفجع ما في الحياة من زاوية !

(٤) جميل منصور حداد ؛ ١٩١٤)

اسمه يدل على أنه عربي الأب والأم ، لكن ثقافته العميقة الواسعة تدل أكثر من اسمه على عروبه الأصلية ، وإن كان برازيلي الولادة والنشأة واللغة والثقافة . . .

وهو طبيب في الأصل لكن شهرته الحقيقية إنما كانت في ميدان الفكر والأدب ، وظلت على الدوام كذلك حتى تحت الطب من أذهان عارفه . فهو شاعر كاتب مثقف ثم طبيب .

ولد في سان باولوسنة ١٩١٤ لوالدين هاجرا في مطالع هذا القرن إلى البرازيل تاركين قرية (إبل السقى) قرب مرجعيون ، في جنوب لبنان . وعرف جميل صور الفقر بأنواعها وهو صغير . بكى ثم بكى من شظف العيش ، وعانى مرارة عمل الصغار مع آبائهم بمختلف الأعمال ، ولاسيما في العطل المدرسية . لكن طبيعته المرفهة جعلته يعدل كل ذلك بالهرب إلى الشعر . كان الشعر رفيقه الذي يحمل عنه منذ البداية كل همومه وشجنه . ثم تحسنت أحوال الأسرة بالعمل المتصل ، واستطاع جميل منصور أن يتابع الدراسة في الجامعة ، وأن يدرس الطب ، ويتخصص في الأمراض النفسية والعقلية .

غير أن طبيعة جميل منصور الموسوعية رفضت أن تقعد به عند حدود الطب ، والتحليل النفسي ، واختلالات العقل . وهكذا شرقت به ثقافته وغربت على هواها . فهو تارة لدى الصوفيين القدامي يقرأ شطحياتهم الميتافيزيكية . وطورا يقضي ألف ليلة مع ألف ليلة ، وحيناً يسامر بودلير ورعيله الملعون ، وحيناً آخر يناقش كونت وفرويد ونيتشة ، وحيناً يلقي عنه كل ذلك ليخوض في الأديان أو السياسة أو الشعر . لهذا فأنت تغامر حين تقرأه إن لم تجمع إليك كل ما في الجعبة من الثقافة .

ويجب أن نضيف إلى كل هذا الاطلاع على الثقافة العربية . ولأول مرة يرد ذكر هذه الثقافة مع من يتحدث عنهم هذا الكتاب . وإن جميل منصور يقول في ذلك : « الثقافة العربية كانت بالنسبة إلي حقيقة موروثة . اللغة العربية هي لختي الأم ، لأن أُمِّي لم تستطع أن تتعلم البرتغالية أبداً . وبقيت تخاطبني طول حياتها بالعربية . لذلك استطعت التمكن من قدرة لفظية جيدة (نسبية) بها . وحاولت

في شبابي الترجمة عنها . ثم اطلعت فيها بعد على المتصوفة العرب ، وعلى الكتابات الإسلامية . وكانت دهشتي عظيمة حين قرأت القرآن . ومن يومها شعرت مباشرة بأنني أصبحت مسلماً ، واعتنقت الإسلام بمعناه الروحي والثقافي »^(١) .

وعين خلال ذلك استاذاً في جامعة سان باولو . كما عمل في الصحافة بعض الوقت . وشارك في الأحداث السياسية محرضاً وموجهاً فكرياً . وقام بعدد من الرحلات إلى أوروبا . كما زار الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٥٥ . وزار معه سورية ولبنان . وعاد مرة أخرى إلى أوروبا ولبنان سنة ١٩٨٠ ، واختصم مع أذلة الأدياء فهم منه في عنت شديد . وخاض المعارك ضد الأنظمة السياسية فهي على الحذر الدائم من مبادراته المزعجة ، وتوقف عن النشر فترة طويلة يوم كانت الدكتاتورية العسكرية تحكم قبضتها على البرازيل بعد سنة ١٩٦٤ .

وبين هذا وذاك صارت وراءه قافلة من ستين كتاباً أو نحوها في بضع وسبعين سنة من العمر . فيها الشعر ، وفيها البحث العلمي النفسي ، وفيها النقد الأدبي ، والدراسة الاجتماعية ، والمقالات السياسية بالإضافة إلى ترجمات عدد من الأعمال الأدبية العالمية . فقد ترجم الخيام أيضاً إلى البرتغالية، وترجم بترارك وبوكاشيو من أيام النهضة ، وهوغو وفيرلين ويودلير ، وحاول في شبابه ترجمة جبران خليل جبران في الأجنحة المتكسرة ، وترجمة ألف ليلة وليلة وإن لم تتم المحاولة

كان جميل منصور لا يزال يدرس الطب حين نشر سنة ١٩٣٥ مجموعته الشعرية الأولى (القمر حبيبي) ، ثم اتبعها بمجموعة أخرى عنوانها (صلوات سوداء)

(١) ما هو مذكور من أقوال جميل منصور ضمن حاضرتين في هذه الصفحات فهو مقتطف من أحاديثه الخاصة معنا ، ومن حديث نشرته له بعض الصحف العربية عند زيارته لبنان سنة ١٩٨٠ .

سنة ١٩٣٨ نال عليها جائزة المجمع العلمي البرازيلي للشعر . وتوالى نشر المجموعات الأخرى على فواصل زمنية . . . لكن السلسلة الذهبية لم تنقطع إلى اليوم . آخر حلقاتها كانت سنة ١٩٧٨ ديوانه : (إنذار إلى الملاحين) الذي اضطر أن يكتبه بالفرنسية ، وينشره في باريس بعد أن تأكد من استحالة نشره بالبرازيلية ! إلى أن وقع الانفراج الداخلي هناك ، والغيت الرقابة على المطبوعات سنة ١٩٨٠ فظهر بالبرتغالية ، من أجل هذا الديوان تعلم جميل منصور إجادة الفرنسية كتابة وقراءة ، وقضى في ذلك ثلاث سنوات . . . جعلها في سبيل الشعر !

يقول في بعض حديثه : « أستطيع القول إني خلقت شاعرا . محاولتي الشعرية الأولى كانت وأنا في الثامنة من عمري . كانت أبيات طفولية دون شك ، ولكن القافية كانت موجودة ، وكان الوزن أيضا . فيما بعد ، حين توطدت لدى مسائل ثقافية عديدة ، خضت غمار الشعر مع حركة التحديث الشعري » . وتحرر شعره من الوزن والقافية لكنه لم يتحرر من الموسيقى ، كما عمقت فيه الرؤية الشعرية . واتسعت بالاطلاع على الثقافة الإنكليزية ، ثم بالاطلاع فيما بعد على الثقافة الفرنسية ، وشعر فاليري وفرلين وبودلير وأبولينير وآراغون . وقد حدث لجميل منصور ما حدث لكثيرين غيره . تنازعه جاذبان : الطب الذي اختص به ، ولعله ساير فيه أهله ، والشعر هوايته الغاوية . ولهذا يقول : « حين دخلت كلية الطب أخذت أقسم سنتي قسمين . ثمانية أشهر لدراسة الطب ، وأربعة أشهر للشعر . هذا التقسيم انعكس على حياتي التأليفية كلها : فهو من جهة أبحاث علمية وكتابات نفسية وفلسفية بوصفي طبيا نفسانيا . ومن جهة أخرى دواوين شعر . أما بعض الدراسات الاجتماعية والسياسية فكانت نتيجة معاناة الواقع .

وقد انعكست اهتماماته العلمية على حياته الشعرية وعلى تجربته الروحية .

وكان للعمق العلمي التأثير الكبير حتى على قصائده الأولى سنة ١٩٣٥ . فثمت فيها نوع من المزيج العلمي الفكري ، يشتبك بالشعري التخيلي لديه . وإنه ليعترف بذلك . لكن الطابع العلمي الناعم في قصائده لا ينفي الطبيعة الغنائية فيها ، والارتباط بآلام المعذبين والمسحوقين ، وبواقع الناس في قاع المجتمع .

وتجربة جميل منصور الشعرية هذه ليست حالة خاصة . إنها حالة مستمرة تلاحق أية محاولة أدبية في أمريكا اللاتينية كلها . صدور الأدباء هناك هي كمدادخن المصانع لا تنفث فوهاتها إلا الدخان الأسود الذي تفرج فيه الآلات الكادحة عن كربها . . . إن ذلك عائد إلى طبيعة الحياة وإلى التناقض بين الاستغلال القوي للإنسان ، وبين الإيمان الشديد بقيمة الحياة الإنسانية ، بالإضافة إلى التباين الطبقي المخزي في المجتمعات الأمريكية اللاتينية ، وإلى الأبعاد السياسية لهذا الواقع وبخاصة في البرازيل بعد الانقلاب العسكري سنة ١٩٦٤ ، وتعطل الحريات كلياً ومنع العديد من المؤلفات الأدبية والمؤلفين من النشر ، وما رافق ذلك من قلق سياسي كبيت ، وتعاطف أحرص مع حركات التحرر في أمريكا اللاتينية كلها .

حتى حين ملت السلطات العسكرية الحكم الدكتاتوري ، وازادت العبور بالبلاد إلى الديمقراطية النسبية بعد سنة ١٩٨٠ ، وتوقفت الرقابة السياسية والأدبية ، وعادت حرية التعبير ، ظل جميل منصور يقول : « إنها مرحلة حذرة وخطرة ، لأن هذه المكاسب قد تكون مؤقتة » .

هذا الموقف الرافض إنما هو موقف مبدأ ، لا موقف سياسة . وهو ناجم عن إيمانه بقيم الحق والعدالة ، لا بالاشفاق والمساواة أمام القانون . وقد جر عليه هذا الموقف الكثير من العنت . وأدخله في معارك عنيفة . في بعضها شيء من الطرافة . ففي أواخر سنة ١٩٦٣ نشرت الصحف البرازيلية خبراً غريباً : لقد هاجم جماعة من الكتاب اليساريين والصحفيين مستشفى المجانين في سان

باولو ، وأخرجوا منه سيده مجنونة ! وكان بين المهاجرين الشاعر اليساري المعروف جميل منصور حداد وقبضت الشرطة على المهاجرين ، فهرب بعضهم ، وألقى القبض على بعض . وبعد فترة قصيرة تبينت القصة ، وكانت عدالة مافوق القانون هي هذه التي حرص منصور أصحابه عليها ونفذوها معه . فالسيده التي اختطفت من المستشفى كانت من أصحاب الملايين . ولكنها ذات ميول واضحة للعدالة الاجتماعية . وكانت تنفق الكثير على المحتاجين والكتاب الصغار . وقد استطاع زوجها عن طريق القضاء أن يستصدر حكما بالحجر عليها ، وأن ينصب نفسه وصيا على أموالها . واحتجزوها مع المجانين ، فاستجارت بأصحابها من الكتاب . ولم يكن أمامهم سوى اختطافها لتستطيع جمع الأدلة على صحة عقلها وقد فعلت !

على أن معارك جميل منصور الهامة كانت مع النظام والسلطات . ولعل أعنفها تلك التي أقامها ضد (لاسيردا) حاكم ولاية ريو دي جانيرو . فقد ضجت الصحف البرازيلية أواسط سنة ١٩٦١ بخبر مرعب . لقد ضاق هذا الحاكم بالشحاذين الذين يشوهون اناقة مدينته - العاصمة يومذاك . (ولاسيردا) رهيب ، قوى العارضة ، عنيف التصرف والفكر .

أسقط بخطابات على التلفزيون ثلاثة رؤساء للجمهورية بعضهم وراء بعض ، وبقي في حاكمية العاصمة سنين طويلة لتحالفه مع الكنيسة والمتمولين . وقد تقزز من مناظر الشحادة المؤذية في بلده ، ونسى مئات الألوف من الزنوج الذين يسكنون الزرائب من الشك والاختشاب على السفوح المطلة هنا وهناك في المدينة ، ولم يبق من مشكلة لديه سوى المكدين وأهل الشحادة ! وكان الحل بسيطا . فالمحيط الأطلسي كبير أمام المدينة ! وبالإمكان إغراق كل تلك القذارة في المحيط ! وهكذا كان !

كانت شرطته تضعهم في الزوارق ، وفي أرجلهم أثقال الحديد . ثم تلقى بهم

في عرض البحر . . . واحد من الشحاذين فر هارباً قبل الخروج إلى المحيط ،
وفضح الجريمة الباردة . وضجت الصحف ثم ضجت ، ثم هدأت ، ثم تخد
النفير ! . . . قالوا في التحقيق الذي تولته شرطة لاسيردا نفسه : إنه لم يغرق
سوى ١٧ شحاذاً ! . . . القلب الوحيد الذي ظل يهتز ، ويدين الحاكم
المجرم ، في قصيدة بعد قصيدة ، هو قلب جميل منصور . ديوان من الشعر كتب
ضد هذه الجريمة . ونشره بعنوان : الحاكم والشحاذون . وفي هذا الديوان
نقرأ :

أيتهما الأجساد التي أغرقت بين الصبرخات والزبد

لثلا يغرق أملنا فقط !

سببى دوما نور وظلام . . . يزدان واهرمين^(١)

يا حاكم الغثيان والكهوف الأولى

قابيل يا قابيل ! ماذا فعلت ؟

والديوان صعب القراءة لأن عليك أن تستنجد بأكثر ماوعت الذاكرة من
مجرمي التاريخ ، وبأوسع الادراك للمصطلحات البرتغالية كي تتذوق إشارات
وتراكيبه الغربية . الشاعر الذي بدأ في (صلوات سوداء) وهو يشيع الكتابة في
الحروف ، ولو أنه يدعو لسوانح الحب ، انتهى في (الحاكم والشحاذون) إلى
الثورة . انتهى سوطاً من عذاب . لقد اختار طريقه المتطرف في أقصى اليسار ،
ووقف دون فلسفته المادية يرحم ويتقبل حجارة الرجم !

ثقافة جميل منصور الواسعة هذه هي التي تقف وراء الكثير من مواقف الشعرية
ومن آرائه الجريئة على السواء . لقد تجاوز عقدة « التوركو » القديمة من جهة ،
وتخطى حدود التعصب الأعمى الديني ، من جهة أخرى ، وأطل من أفق عال

(١) يزدان واهرمين هما الألوهتان اللتان ترمزان إلى الخير والشر لدى المجوسية (الزرادشتية) .

على القمم الأدبية الكبرى التي اتفق الناس على تبجيلها ، فناقشها الحساب من جهة ثالثة . وكان له في كل جانب من هذه الجوانب الثلاثة موقف يصدم الكثير من القلوب الرعيدة .

(قصيدة الدم) التي يفتخر فيها بعرويته كانت جوابا على كل تلك القافلة من مظاهر الاحتقار والنبد التي كان يلحق بها البرازيليون - وغيرهم - المغتربين العرب . بعض هؤلاء المغتربين كانوا يتواصون بآلا يتحدثوا بكلمة عربية ، وبعضهم غيروا حتى اسماءهم للخلاص من جريرة (التوركو) . فحسن صار خاسينتو ، ومحمد آمادو (المحبوب) ويوسف جوزيه ، وعلي ايليا . حتى الألقاب لحقتها فصار ابن غنمة من آل (كارنيرو) وابن النجار (كاربنتيرو) . وفي الوقت نفسه يقف جميل منصور في وجه العاصفة عاري الصدر ليقول :

لا تموتي يا بلاد العرب في ذاتي لا تموتي !
في كل حياة سوف تبعثين حياة جديدة .
وفي جوانحي كلها تتفجرين
ضراعة وكلاما وصلاة ونداء .
كل ما هو أنا الآن إنما هو منك .
تلتهب دمائي كما تلتهب صحراواتك .
وعترة يغني في شرايبي !
منك جاءت روحي . . .
منك جاء قصيدي الذي هو قصيدك
والذي يغلغل الآن في كل ذرة من دمي
مندججا في كل خلية من جسدي
كبت في جميع فترات الألق من قومي
لا تموتي يا بلاد العرب في ذاتي . لن تموتي !

وهذه القصيدة الطويلة - وثمت أمثالها لدى جميل منصور - هي قصيدة كل تلك القلوب التي غربت إلى غير رجعة ، وبقي في ذاكرتها الجماعية ، وفي أعماق اللاشعور شميم عرار نجد والفخر بعرار نجد !

وجميل منصور يكشف في شعره التحدي الآخر عنده لكل ما يدخل في إطار التعصب الديني والعقائدي . إنهم يقولون عنه في سان باولو : إنه ملحد لاديني . ويقول هو عن نفسه إنه حر الفكر ! ولا يتردد رغم موروثه الديني المسيحي في امتداح الإسلام، وإعلان شعوره « المسلم » دون أي عقد ! ويقولون إنه « يساري ، متطرف » ويقول هو « إني أحاول أن أحافظ على قدر معين من المسافة والاستقلالية أمام كل التيارات السائدة في العالمين الرأسمالي والشيوعي . . . » ويزعمون أنه شيوعي حزبي ملتزم ، ويضحك هو من ذلك ويقول : « لست أنفي فكرة الالتزام الأدبي . على أي شاعر أن يكون ملتزما . ولكنه الالتزام بفكر ، وبخط فكري ، لأن يكون حزبيا . الحزبية تقضي على حرية الشاعر وبالتالي على إبداعه . لأن الإبداع لا يمكن أن ينحصر في الناحية السياسية فحسب ، بل إنه ينطبق على جميع النواحي التي يعاني منها الإنسان على مر العصور الأزمنة . والالتزام كان عند بعض الأدباء مجالا للتكسب والشهرة أكثر من أي شيء آخر . . . » .

ديوانه الأخير (انذار إلى الملاحين) الذي نشر في سان باولو سنة ١٩٨٠ (بعد باريس) يقول كل هذا وأكثر منه . إنه كما قال صاحبه نفسه « محصلة فترة طويلة من تجربتي الشعرية . كان نوعا من المزيج بين ثقافات وتجارب إنسانية متعددة . أهمها الإسلام ديانة وثقافة . إذ قسمت المجموعة هذه - والتي هي بمثابة قصيدة طويلة - إلى أقسام ، جاءتني فكرتها من تقسيم القرآن إلى سور . . . » كانت رغبتي الدائمة أن أبني معادلة إنسانية وروحية معاصرة ، في داخلي وفي مؤلفاتي . ولذلك عملت طول حياتي ضد الظلم في أمريكا اللاتينية » .

وجميل منصور أخيراً متفرد في الرأي الأدبي والسياسي . يصدر في كل ذلك عما يراه بنفسه لاعما يقال . إنه يرفض تسليم قيادة الثقافي لضجة الناس وللدعايات ، سواء أكانت أدبية أم سياسية . سماه بعضهم (محطم الأساطير) لكثرة معاركه الفكرية ولأنه رأى قلمه الحديد يعري الكثير من القمم الأدبية . ويعريها عن حق . يقول عن نفسه : « لم أبال يوما بما يكتب وينشر عن أسماء كثيرة في العالم . وكنت أنتقد باستمرار جائزة نوبل للآداب ، وجائزة لينين على السواء . (لذلك لم أجد مجالاً للعمل في الصحافة اليومية أو الأسبوعية) . وكانت معركتي مع الأدباء في أمريكا اللاتينية أكثر حدة من معاركي مع الأنظمة السياسية لما يتمتع به هؤلاء الأدباء سواء كانوا على اليمين أو اليسار من نفسية انتهازية . خذ مثلاً وضعية غبريل غارسيا ماركيز . العالم يضح به وبثورته . إلى ما هنالك من أساطير تحاك حوله ، وأتساءل أنا عن طبيعة معيشته سواء في المكسيك أو في أوروبا . إن جميع الصحف التي يراسلها ماركيز هي من الصحف الممولة من الرأسماليين الكبار في أوروبا الغربية ، وفي الولايات المتحدة ، ومن الطبقات الحاكمة في أمريكا اللاتينية . وحين نتحدث عن نيرودا نتحدث كما لو كنا نتحدث عن دانتى أو ميلتون ، هذين « الشعاعين العظمين » حسب تعبير بول كلوديل . هنا لا أريد أن أتناول المناحي الجمالية في شعر نيرودا ، بل أريد أن أقوم بدراسة سياسية له . وأسأل : هل عليّ أن أحرق نيرودا ؟ مادمت أسمى « محطم الأساطير » فالجواب سهل . إنني لا أحرقه بل أحطم فيه أسطورة مضللة . نيرودا نشر مجموعته الشعرية الكاملة في مدريد ، وحذف منها مجموعة (اسبانيا في القلب) التي يتحدث فيها عن الحرب الأهلية الإسبانية ، وذلك إرضاء للسلطات الفرانكية آنذاك . وحين نشر مجموعته في الأرجنتين كذلك حذف النصوص المتعلقة بالثورة الكوبية ! . . . وعلاقته بجامعة « الوحدة الشعبية » التي كان يرئسها سلفادور الليندي إنما كانت علاقة انتهازية صرفاً . إنه لم يخسر شيئاً . فهو لم يكن على تناقض كبير مع العسكر ، أو مع المعسكر الغربي ، بدليل أنه حصل

على جائزة نوبل . ولكننا نعلم ماذا تعني هذه الجائزة التي رفضها سارتر وآخرون عديدون ، فعلاقة نيرودا بسلفادور ألييندي إذن كانت أن ألييندي اعتبر أنه يختار الشخص المناسب حين اختار نيرودا لمنصب سفير شيلي في باريس . إن هذه المسائل في حاجة إلى تدقيق لمعرفة هوية نيرودا السياسية والنضالية . لأن الانتشار الذي عرفه نيرودا في العالم لم يكن انتشارا جماليا بل كان انتشارا سياسيا . . . » .

وسواء أوافقت جميل منصور على آرائه الحادة الجذرية ، أم خالفته فيها ، فإنه يبقى قبل كل ذلك وبعده شاعرا ضخما إن احداً لايماري في مكانته في الشعر البرازيلي . والكثيرون يعتبرونه أحد امراء الشعر في أمريكا اللاتينية كلها منذ سنين طويلة .



خاتمة

واخيراً

هل عرفت شيئاً عن البرازيل الأخرى ، برازيل الفكر والأدب والشعر . لقد قلنا الكثير الكثير ، وإنه لليسير اليسير مما يمكن أن يقال ، أو يجب أن يقال . ثمت أبواب لم نفتحها أبداً كالنقد والمسرح وسيناريو السينما والتلفزيون ومقالة الصحافة ، وثمت إلى هذا مئات من الأسماء كان من حقها أن تأتي ومعها موكب انتاجها . وثمت إلى هذا وذاك مذاهب من الفكر حرية بالتوقف ، وما استطعنا ، على ضيق الصفحات مد الجناح إليها فهي لمحات وإشارات مبعثرة بين الحروف

لقد قلت في التقديم إن هذا الكتاب ليس أكثر من دعوة ، وما أزال أراه بعد هذه الصفحات دعوة أيضاً . وفي الدعوات يكتبون برنامج الحفلات - في لمحات ، ولا يشرحون الحفلات نفسها ، ولا يرسمون التفاصيل في انتظار متعة الحضور الذاتي ، ومهرجان المرح مع الآخرين . . .

أما وقد انتهى الكتاب وانقضت الدعوة ، فإني أجدني مسوقاً برغمي إلى كلمة أخيرة تكون خاتمة الكتاب . وأحسب أنها كان يجب أن يقال أيضاً في فاتحته . هذه الكلمة تتعلق بالسمات العامة التي تنتظم أدب البرازيل منذ وجدت « البرازيل » قبل ما يقرب من ٥٠٠ سنة ، والتي تميزه بين الآداب الأخرى . إنها السمات التي تمنحه وجهه وملامحه ، وتمنح البرازيل نفسها شخصيتها والهوية » .

أول هذه السمات أنه أدب جديد جديد . لعله ليس في الآداب العالمية أدب يعدله جدة . حتى آداب أمريكا اللاتينية - الإسبانية أقدم في الوجود منه . إن

عمره ، في الواقع ، لايزيد على ستين أو سبعين سنة . قبل ذلك لم يكن ثمت أدب برازيلي إلا بالمعنى الجغرافي للكلمة . ماكان فيهمان شعر وأدب كاش شعراً وأدباً برتغالياً في البرازيل . فيه صور وملامح من هذا البلد ولكن ليس فيه روحها الحار ولا المذاق الحريف للآلام . استقلال البلاد الأدبي تأخر عن استقلالها السياسي مائة سنة . استقلالها السياسي أعلن سنة ١٨٢٢ أما استقلالها الأدبي فأعلن سنة ١٩٢٢ مع حركة التحديث التي كانت في الحقيقة حركة « برزلة » ، وإعلاناً لبزوغ الروح الوطنية المميزة للبلاد .

ثاني السمات أنه ذو جذور أوروبية . ولقد استقى من مختلف آداب أوروبا ، وتوقف بخاصة عند فرنسا فشرب من آدابها وشعرها وتياراتها الفكرية حتى الثمالة . كانت فرنسا بالنسبة لأدباء البرازيل كعكة الحبيب ، ومهبط الوحي ، ونموذج التقليد . إن ارتباط أدب البرازيل بالجلب السري الأوروبي والفرنسي على الأخص أمر يعترف به الجميع . ومن ذا الذي يستطيع أن ينكره ؟ لقد تكون حركة التغذية قد تضاءلت بين الأم ولولدها . ولقد تكون التغذية « البرازيلية » الخاصة قد ازدادت منذ مابعد الحرب العالمية الأولى إلى اليوم ، ولكن أقطاب الفكر والأدب والشعر في البرازيل لا يكادون يحIRON بكلمة في هذه الميادين إلا وتنفس على شفاههم أسماء الأقطاب الكبار للشعر والفكر والأدب في فرنسا خاصة ، وفي روسيا القديمة . . . لم يتخلصوا بعد من هذه التبعية التي انتقلت من ارتباط الجزء بالكل ، إلى تبعية التلميذ للاستاذ العظيم .

ثالث السمات أنه وإن كان أدباً بجذور أوروبية فقد شرب من الآمازون حتى ارتوى ، فهو الآن مستقل الرؤية الفنية أويكاد ، مستقل التيارات ، ونكاد نقول إنه مستقل اللغة أيضا . فمنظوره اللغوي مختلف عن المنظور البرتغالي العتيق . وموضوعاته التي كانت تصويراً رومانتيكياً ، من الخارج . لتناقضات المجتمع ، صارت تنبع من الداخل ومن معاناة هذه التناقضات في اللحم والعظم . وإذا

كان ثمت شيء يلفت النظر فعلاً فهو سرعة « التبرزل » التي أصابت الأقلام والأفكار . إن البرازيليين يعيدون اكتشاف البرازيل واكتشاف أنفسهم في هذا الأدب الذي ينتجون .

رابع السمات أنه أدب من آداب بلاد العالم الثالث . فكله تعبير عن الانسحاق أمام القوى العظمى ، وكله رفض للقوى الداخلية المستغلة ، وكله ثورة . . . البرازيل ، كل البرازيل تعرف أن ما يسمى بديونها القومية هي ديون المرابين ، وأنها تدفع أكثر بكثير مما تأخذ . وأن ثرواتها الهائلة تلتهم « لحماً طرياً » ، ولهذا ظهرت فيها خاصة دون غيرها صرخة « أكل لحوم البشر » وكثرت القصص « الخيالية » التي تحكي اليأس القائم من الخلاص . إن الرأسمالية الاحتكارية (الداخلية والخارجية) قد جعلت البرازيل كجارية الحانة مشاعاً للجميع ! وعيون الجميع أيضاً تنظر !

خامس السمات أنه أدب يحاول أن يوجد للبرازيل « وجهاً » خاصاً بها . يبحث عن أيديولوجية تعبر عن آلامها وتطلعاتها . يفتش عن الملامح التي يركب منها « الهوية » الوطنية ، ويحول شتيت العروق والثقافات والمجتمعات التي تشكل البرازيل إلى أمة واحدة . حتى هذا الشتات نفسه حاولوا جعله ميزة من ميزات الروح البرازيلية التي تبتلع المتناقضات . وهذا التنافس الأخرس على إبراز الهندي الأقدم في ميثولوجيته وبدائيته ، وسهامه تارة ، أو التأكيد تارة أخرى على الزنجي في تقاليده ، وآلهته الأولى ، وتصويراته الميتافيزيكية ورقصه ، أو بحث الخلاصي الفلاح وما ورث من البيض والسود والوجوه النحاسية تارة ثالثة إنما القصد منه كله البحث عن « الكنز » الضائع : عن الهوية ! الفتات الذي يلملمونه من هنا وهناك قد لا يقيم شيئاً في رأي الكثيرين ، ولكنهم يرون فيه التعويض الكافي عن افتقاد الهوية الوطنية حتى الآن ، ويصوغون منه الرابطة التي يفقدون . لأنهم يريدون ذلك . يحسبون هذا خشبة الانقاذ !

سادس السمات أن هذا الأدب يشكل وحدة متكاملة لأنه من الشعب البرازيلي ينبع وإلى الشعب يعود . إنه في كتلة انتاجه على الأقل ، يحقق دورة كاملة حقيقية . وحدة المنبع والمصب ووحدة الحركة الإنسانية بين هذين القطبين ، هي التي تميز أدب البرازيل . لقد آمن تدريجياً بأن الإنسان . هو الأساس ، لا الجغرافيا ، ولا التاريخ يفرقان ما يجمعه الإنسان . آلامه وارادته وطموحاته هي الأساس . وهي القدرة الخلاقة . وهاهنا تقوم الوحدة التي تجمع مختلف خطوط الأدب البرازيلي ، وتياراته وأساليبه ، رغم تعدد « البرازيلات » وتباينها حتى التناقض الكامل ! . . . إن وحدة الأدب البرازيلي تتناقض مع الجغرافيا ، ومع التاريخ في البرازيل ، ولكنها مع ذلك موجودة ! بل ! تتناقض مع الجغرافيا لأن هذه البلاد واسعة . وبينما يتعاقى في مناطقها الغربية الأمازونية الصخر والشجر في مجاهل لم يخترقها إنسان بعد ، إذا بخمسة عشر مليوناً من سكانها ، يتكلمون في مدينة سان باولو المفترسة . وبينما يتدفق الخصب والبن وقصب السكر في سانتا كاترينا أوميناس جيرایش يلمس القحط الشديد كل نبت في الشمال الشرقي والسييرا والسرتون . وبينما وحدها الوحوش تعيش في الدغل الأمازوني يعيش بعض البشر أمتع العيش الرضي في الريو . وبين هذا وذاك تختلف الحظوظ ، والمصائر ، وتيارات الفكر ، ونبت الابداع ، وعصير الحياة ، ويختلف التاريخ ، مع الأيام ، بين الزنجي المستريح إلى الأوريشا والكاندوميليه في باهيا ، والألماني الذي نظم نفسه في سانتا كاترينا ، والغاوشو صاحب المراعي المتراصة في أقصى الجنوب ، والكاريوكا المنصرف للذاته في الريو ، والسرطوني الزاحف من الجوع إلى الجنوب في ريسيفه . . وتفرغ من التاريخ ، إلا تاريخ الوحش ، أدغال الأمازون المظلمة ومياهها الموحلة الهادرة ! . . ومع ذلك فإن الوحدة الإنسانية الناجمة عن كل هذا الخليط العجيب من البشر ، والعادات والفكر ، والتطلعات وطرق الحياة تتكون منذ خمسة قرون وتزداد منذ (بورتو ألغره) إلى بيلين ومن حدود بيرو إلى ريسيفه . . الحروب الداخلية التي مزقت

البلاد في النصف الأول من القرن التاسع عشر انتهت بالجميع إلى التسليم لا بالوحدة الجغرافية والتاريخية البرازيلية فحسب ، ولكن بوحدة الغد والمصير أيضاً ، ووحدة الإنسان . . . يقول جورج آمادو : « نحن مختلفون بعضاً عن بعض في كل صفحة نكتب ، ولكننا نلتقي في مقاومة البؤس والملاكين الكبار ، والتخلف الاقتصادي ، والشروط المحزنة للحياة التي يعيش الشعب ضحية لها ، وفي مقاومة الدكتاتورية ، والعسكريتاريا ، وكل ما يستغلنا ويقمعنا ! . . . إن الإنسان الذي يعيش ويناضل في براري السرتون (القاحلة) في رواية (فيريداس) التي كتبها غيمارايش روزا ، هو نفسه الإنسان الذي يبرز في صفحات غراسيليانو راموس أوخوسيه لينز دو ريغو . . . كل منهم يحكي على طريقته ، وبالكلمات واللغة التي ابتكرها مأساة الإنسان البرازيلي ونضاله . . . هذا ماكان يجب أن يكون ، وهذا ماهو واقع » . .

واخيراً تأتي سابع السمات ولعلها السمة الأهم والأنبل في ادب البرازيل وهي : « الإخلاص لمصالح الشعب » - كما يقول جورج آمادو - نفسه إنها الميزة الأساسية فيه . وهي التي تجعله لصيقاً بالأرض وبالناس . في جميع المراحل التي مر بها هذا الأدب ، منذ نشأته الأولى في العهد الاستعماري (الكولونيالي) إلى أن بلغ الرشد واستقل ، وإلى أن وصل مرحلة الإبداع والتحليق ، لن يفوت أحد أن يلاحظ هذا الطابع الذي يميز الأدب البرازيلي ، ويعطيه في الوقت نفسه أصالته الخاصة . إنه الصورة الصادقة لمختلف المشاعر التي تعصف بهذا الخليط من العروق ، والأصلا ب والأشجار والنهر والتربة والصخر الذي يسمى البرازيل .

خيط واحد يجمع التدفق الشعري الممتد من غريغوريو دي ماتوس إلى آخر الجماعات الرافضة من شعراء الشباب اليوم . وهو نفسه الخيط الذي يجمع قصص ماشادودو أسيس إلى روايات جورج آمادو ، وغيمارايش روزا ، وروين

فونسيكا هو الانتباء . إنه ليس طبيعة فيهم ، ولكنه إرادة ورغبة . ليس ناجماً عن شعور عميق بالهوية القومية ولكن عن رغبة عنيفة بخلق هذه الهوية وتوطيدها . كل الأدباء والشعراء والكتاب متمون . كلهم ملتزمون ، وإن اختلف نوع الالتزام . كلهم يشعرون أنه لا يكفي في أعمالهم ابداع الجمال الصافي البسيط ، ولكن من الضروري أن يضيفوا إلى جمال العواطف الإنسانية ، صراخ العرق والدم اللذين تقتضيهما العدالة والحق .

وهكذا فالبطل الأساسي في الأدب البرازيلي في جملته إنما هو الشعب البرازيلي نفسه . لامشاعر تغزل ذاتها كشرنقة الحرير . لا أبراجاً من عاج تسمح بالعزلة والتحليل النفسي ، وتجد البعد عن الناس ، والحياة ، لالعباً لغوياً باللفظ والوزن . كل من حاولوا ذلك سقطوا على الطريق . ألغاهم النسيان . وفي تلك اللحظات النادرة التي حاول بعض الكتاب فيها ان يحلوا الطبقات الحاكمة محل الشعب وأن يكتبوا عن شخصياتها ، ومشكلاتها المسكينة ، المصطنعة في غالب الأحيان ، وأن يجعلوا منها طريقاً إلى العالمية والمجد ، بدلاً من مشكلات الجماهير الشعبية ، وجدنا أن نوعاً من القطيعة قام بينهم وبين الناس . . . سببها قطيعتهم مع أصلب التقاليد الأدبية ! . . . والنتيجة هي السقوط ! لم ينفعهم أنهم ، حين ظهروا ، نالوا التصفيق الشديد ، وأنهم امتدحوا على منابر الكنائس ، وأعمدة الصحف ، لقد ظهروا وغابوا دون أن يتركوا أي أثر «وفي تلك كان الأدب البرازيلي يتابع مسيرته مثيراً مشكلات الشعب ، مناقشاً لها ، عارضاً تفاصيلها للعيون ، مكماً بذلك مهمته الأساسية ، وهي خدمة الإنسان .

لهذه السمات التي هي درس للشعوب الأخرى كان يجب أن يكتب هذا الكتاب .

ألست معي في ذلك ؟



مراجع مختارة

ثمت مراجع لا تحصى لمن يريد التوسع في الموضوع سواء بالبرتغالية لغة البرازيل أم بالاسبانية والانكليزية والفرنسية . وقد ذكرنا فيما يلي مختارات منها ، وأدجنا فيها بعضا من الكتب عن تاريخ البرازيل ، وأخرى عديدة متنوعة عن الأدب البرازيلي :

1. **Alegria, Fernando:** Historia de la novela hispano americana, (Mexico, De Andrea, 1966).
2. **Andrade Mario:** Macounaima Flam marion, (1975).
3. **Andrade Oswalde:** Anthopophagies Flam marion 1982).
4. **Antonio, Juan:** Malaqueta, Perus e Bercanuco 1963).
5. **Arraes, Miguel:** Le Brésil, Le Pouvoir et le Peuple (Maspero 1969).
6. **Arrom, Jose Juam:** Esquema generacional de las letras hispanoamericanas (Nueva york, Reinhart and Wilsom, 1960)
7. **Bastide, Roger:** 1) Bresil terre de Contraste (Hachette 1957) 2) Image du nordeste mystique (Pandora 1978) 3) Préface de la traduction de Quiquin la flotte (1971).
8. **Buarque de Holanda A:** - O Romance Brasileira (Ed. O. Cruzeiro (1952) - Antologia do verso e a poesia concreta (1949-62) - Sao - Paulo, Noigandres 5, 1952)
9. **Callado, Antonio:** - Quarup: (Sao Paulo 1967) - Mon pays en Croix (Le seuil, 1971) - Bar Don Juan (1971)
10. **Campos, Augusto de:** 1) Balanco da Bossa, (Sao Paulo, Perspectiva, 1968). 2) Uma Poetiqua da radicalidade (Introduction a Poesias Reunides O. Andnade (Sao Paulo, Euro, 1966) 3) A Arte no horizonte do Provavel (Sao Paulo Persp, 1969) 4) Literature e Sociedad, (Sao Paulo, Ed. Nocial 1965).

11. Caio Prado, J.: Formacao do Brasil Contemporaneo (1942, Sao Paulo)
12. **Carvalho, Ronald de:** Pequena historia de la literature Brasileira (5 ed). Rio de Janeiro, Briquet & Cia 1938).
13. **Candiao, Antonio:** - Formacao de la Literatura Brasileira, Sao Paulo, (Martins, 1964 (2 vol.) - Introduction: a la literatura del Bresil (Caracas, Monte A vila, 2968). - Literatura e sociedad, Sao Paulo (Ed. Nacional 1965)
14. **Cantinho, Afranio (ed.):** A Literatura no Brasil 5 vol. (Rio 1955/1968).
15. **Castro Josue de:** Geographie de la Faim, (Faim du Bresil) (E.d. Ouvrieres, 1949).
16. **Carilla, Emilio:** Hispanoamerica y Sa expresion literaria (Buenos-Aires, Eudeba (1969)
17. **Concelcao, Manuel de:** Esta terra es nuestra (cette terre est a nous), (Maspero 1981)
18. **Drum mond, Roberto:** - A morte de D.J. en Paris, (1975). - Ernest Hemingway morreu crucificado (1978).
19. **Fernandez Moreno, Cesar: (ed.):** America - Latina en su Literatura (Unesco, 8 ed. Paris 1982).
20. **Freyre, Gilberto:** - Tierra de Sucre, - Terre de Sucre (Gallimard 1950) - Casa grande e Sinzala (Maitres et esclaves) (Gallimard 1952). - Brazil, Intepretation (New York 1945).
21. Fuentes, Carlos: La Nueva novela hispaoamericana (Mexico, Mortiz 1969).
22. **Furtado Celso:** La Formation economique du Bresil. (La Haue 1972)
23. **Henrique Urena, Pedro:** Literary Currents in Hispanic America, (Cambridge. Mass, 1945)
24. **Jarres Tioseco, Arturo:** New world Literature: Tradition and Revolt in Latin America (Berkeley and Los Angeles 1949).
25. **J. de Veiga, Jose:** Os Cavalinhos de Palpitante 1959)

26. **Juliao, Francisco:** Le joug, la face cachee du Bresil (Maspero 1968)
27. **Lazo, Raimundo,:** Historia de la Literatura hispanoamericana (Mexico, Porrua 1963)
28. **Lawrence F, Hill :** (ed.) Brazil (Berkeley 1947)
29. **Leyola, Ignacio de:** Zero, (Sao Paulo, 1975).
30. **Lowe, Elizabeth:** - The city in Brazilian Literature (Fairleigh Dickinson Un. Press 1982)
31. **Lytle Schurz, William:** This New world (E.P. Dutton ine, New York 1954).
32. **Machado, Anibal:** (O Iniciado do Vento, 1949).
33. **Montezuma de Carvalho, Joaquim de:** Panorama Das Literaturas das Americas, Angola, Nova-Lisbao 1958-9)
34. **Nash, Roy:** The Conquest of Brazil (New York 1926)
35. **Onis, Harriet de (ed) The Golden Land:** An Anthology of Latin America Folkore in Literature (New York 1948)
36. **Ortega Julio:** La Contemplation Y la Fiesta (Notes Sobre La novela Latinoamericana actual (Caracas, Monte Avila, 1969).
37. **Patai, Daphne:** Myth and Ideology in contemporary Brazillian Fiction (Fairleigh Dickinson Univ. Press 1982, Cranbury)
38. **Pellegrini, Aldo:** Antologia de la Poesia Viva Latinoamericana, (Barcelone, Seis - Barral, 1966).
39. **Putman, Samuel:** Marvelous Journey, A Survey of Four centuries of Brazillian Writing (New York 1948).
40. **Pereira de Queirroz, Isaura:** Cantacelros (Ed, Juliard 1986)
41. **Ramos Arthur:** Le Metissage au Bresil (Hermann 1952)
42. **Rocha, Glauber:** - Revolucao do cinema novo (ed. Al-Hambra/Embra/Film, Rio de Janeiro, 1981). - Revision critica de cine Brasileira, (ICAIC, la- Habane, 1965).
43. **Rubiao, Murillo:** O Ex - Magico, 1947).

44. **Solt, Mary Ellen:** A world look at Concrete poetry. Introduction al Numero 3-4 de "Artes Hispanicas". Nuevayonk, Iniversity, Mc Millan Com. 1968).
45. **Stefan Zweig:** Bresil, terre d'avenir.
46. **Tapajos, Renato:** Em Camara Lenta (1977).
47. **T. Lynn Smith:** Brazil, people and Institutions (Baton Rouge 1948).
48. **T. Lynn Smith and Alexander (ed s):**Brazil, Potrait of Half a Continent 1951).
49. **Verissimo, Erico:** - Incidente in Antares (1971) Brazilian Literature, - (An Outline (N.Y. 1945).
50. **Wildman, Eugene; Antology of Concretism:** Seleccionada Para "The Chigago Review" Chigago The Shallow Press, 1986).

The Litterary Review: Summer 1984, Vol. 27 N = 4.

Magazine Litteraire: N = 187, Sep. 1982.

O Estado de Sao Paulo, (Sup. Literario).



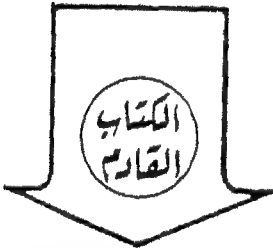
فهرس الكتاب

٥ كلمة لا بد منها
٧ بين يدي الكتاب
١٣ الفصل الأول : البرازيلي : الأرض والإنسان والتاريخ
٤٨ الفصل الثاني : البرازيل الأخرى
٧٣ الفصل الثالث : الأدباء الكبار
١٠٤ الفصل الرابع : اتجاهات في الأدب الحديث والمعاصر
١٦٠ الفصل الخامس : كتاب وشعراء
٢٠٨ الفصل السادس : ادباء معاصرون
٢٤٧ الفصل السابع : الوجه الآخر للأدب المهجري
٢٧٤ خاتمة
٢٨٢ مراجع



المؤلف في سطور

- شاعر مصطفى .
- دكتور في الآداب .
- درس في دمشق والقاهرة وجنيف .
- عمل في التدريس الثانوي والجامعي في سورية وفي السلك السياسي ممثلاً لبلاده عشر سنوات في السودان وكولومبيا والبرازيل .
- عمل وزيراً للإعلام في سورية (١٩٦٦/٦٥) .



الشخصية اليهودية
الاسرائيلية والروح
العدوانية
الدكتور رشاد الشامي

- له عدد من المؤلفات يجاوز الثلاثين في التاريخ وفي الأدب بالإضافة إلى عدة مئات من الأبحاث العلمية والأدبية .
- يعمل حالياً أستاذاً للتاريخ الاسلامي في جامعة الكويت ، ومستشاراً لتحرير

صدر في هذه السلسلة

- ١ - الحضارة
- ٢ - اتجاهات الشعر العربي المعاصر
- ٣ - التفكير العلمي
- ٤ - الولايات المتحدة والمشرق العربي
- ٥ - العلم ومشكلات الإنسان المعاصر
- ٦ - الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها
- ٧ - الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية
- ٨ - تراث الإسلام (الجزء الأول)
- ٩ - أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة
- ١٠ - جحا العربي
- ١١ - تراث الإسلام (الجزء الثاني)
- ١٢ - تراث الإسلام (الجزء الثالث)
- ١٣ - الملاحة وعلوم البحار عند العرب
- ١٤ - جمالية الفن العربي
- ١٥ - الإنسان الحائر بين العلم والخرافة
- ١٦ - النفط والمشكلات المعاصرة للتنمية العربية
- ١٧ - الكون والثقوب السوداء
- تأليف : د/ حسين مؤنس
- تأليف : د/ إحسان عباس
- تأليف : د/ فؤاد زكريا
- تأليف : د/ أحمد عبدالرحيم مصطفى
- تأليف : زهير الكرمي
- تأليف د/ عزت حجازي
- تأليف : د/ محمد عزيز شكري
- ترجمة : د/ زهير السهوري
- د/ شاكرو مصطفى
- مراجعة : د/ فؤاد زكريا
- تأليف : د/ نايف خرما
- تأليف : د/ محمد رجب النجار
- ترجمة : د/ حسين مؤنس
- إحسان العمد
- مراجعة : د/ فؤاد زكريا
- ترجمة : د/ حسين مؤنس
- إحسان العمد
- مراجعة : د/ فؤاد زكريا
- تأليف : د/ أنور عبد العليم
- تأليف : د/ عفيف بهنسي
- تأليف : د/ عبد المحسن صالح
- تأليف : د/ محمود عبد الفضيل
- إعداد : رؤوف وصفي
- مراجعة : زهير الكرمي

- ١٨ - الكوميديا والتراجيديا
ترجمة : د/ علي أحمد محمود
- ١٩ - المخرج في المسرح المعاصر
مراجعة : د/ شوقي السكري
- ٢٠ - التفكير المستقيم والتفكير الأعرج
د/ علي الراعي
- ٢١ - مشكلة إنتاج الغذاء في الوطن العربي
مراجعة : صديقي حطاب
- ٢٢ - البيئة ومشكلاتها
تأليف : د/ سعد أردش
- ٢٣ - السرقة
ترجمة : حسن سعيد الكرمي
- ٢٤ - الإبداع في الفن والعلم
تأليف : د/ محمد علي الفراء
- ٢٥ - المسرح في الوطن العربي
تأليف : رشيد الحمد
- ٢٦ - مصر وفلسطين
محمد سعيد صباريني
- ٢٧ - العلاج النفسي الحديث
تأليف : د/ عبدالسلام الترماتيني
- ٢٨ - أفريقيا في عصر التحول الاجتماعي
تأليف : د/ حسن أحمد عيسى
- ٢٩ - العرب والتحدي
تأليف : د/ علي الراعي
- ٣٠ - العدالة والحسرية في فجر النهضة العربية الحديثة
تأليف : د/ عواطف عبدالرحمن
- ٣١ - الموشحات الأندلسية
تأليف : د/ عبدالستار إبراهيم
- ٣٢ - تكنولوجيا السلوك الإنساني
ترجمة : شوقي جلال
- ٣٣ - الإنسان والثروات المعدنية
تأليف : د/ محمد عماره
- ٣٤ - قضايا أفريقية
تأليف : د/ عزت قرني
- ٣٥ - تحولات الفكر والسياسة
تأليف : د/ محمد زكريا عناني
- ٣٦ - الحب في التراث العربي
ترجمة : د/ عبدالقادر يوسف
- ٣٧ - المساجد
مراجعة : د/ رجا الدريني
- ٣٨ - تكنولوجيا الطاقة البديلة
تأليف : د/ محمد فتحي عوض الله
- تأليف : د/ محمد عبدالغني سعودي
- تأليف : د/ محمد جابر الأنصاري
- تأليف : د/ محمد حسن عبدالله
- تأليف : د/ حسين مؤنس
- تأليف : د/ سعد يوسف عياش

- ٣٩ - ارتقاء الإنسان : ترجمة : د/ موفق شخاشيرو
مراجعة : زهير الكرمي
- ٤٠ - الرواية الروسية في القرن التاسع عشر : تأليف : د/ مكارم الغمري
- ٤١ - الشعر في السودان : تأليف : د/ عبده بدوي
- ٤٢ - دور المشروعات العامة في التنمية الاقتصادية : تأليف : د/ علي خليفة الكواري
- ٤٣ - الإسلام في الصين : تأليف : فهمي هويدي
- ٤٤ - اتجاهات نظرية في علم الاجتماع : تأليف : د/ عبدالباسط عبدالمعطي
- ٤٥ - حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي : تأليف : د/ محمد رجب النجار
- ٤٦ - دعوة إلى الموسيقى : تأليف : يوسف السبيعي
- ٤٧ - فكرة القانون : ترجمة : سليم الصويص
مراجعة : سليم بيسو
- ٤٨ - التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان : تأليف : د/ عبدالمحسن صالح
- ٤٩ - صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي : تأليف : صلاح الدين حافظ
- ٥٠ - التكنولوجيا الحديثة والتنمية الزراعية : تأليف : د/ محمد عبد السلام
- ٥١ - السينا في الوطن العربي : تأليف : جنان ألكسان
- ٥٢ - النفط والعلاقات الدولية : تأليف : د/ محمد الريمحي
- ٥٣ - البدائية : ترجمة : د/ محمد عصقور
- ٥٤ - الحشرات الناقلة للأمراض : تأليف : د/ جليل أبو الحب
- ٥٥ - العالم بعد ماتي عام : ترجمة : شوقي جلال
- ٥٦ - الإنسان : تأليف : د/ عادل النمرdash
- ٥٧ - البيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية : تأليف : د/ أسامة عبد الرحمن
- ٥٨ - الوجودية : ترجمة : د/ إمام عبد الفتاح
- ٥٩ - العرب أمام تحديات التكنولوجيا : تأليف : د/ انطونيوس كرم
- ٦٠ - الايديولوجية الصهيونية (الجزء الأول) : تأليف : د/ عبد الوهاب المسيري
- ٦١ - الايديولوجية الصهيونية (الجزء الثاني) : تأليف : د/ عبد الوهاب المسيري
- ٦٢ - حكمة الغرب (الجزء الأول) : ترجمة : د/ فؤاد زكريا
- ٦٣ - الإسلام والاقتصاد : تأليف : د/ عبدالهادي علي النجار
- ٦٤ - صناعة الجوع (خرافة الندرة) : ترجمة : أحمد حسان عبد الواحد

- ٦٥ - مدخل إلى تاريخ الموسيقى المغربية
 ٦٦ - الإسلام والشعر
 ٦٧ - بنو الإنسان
 ٦٨ - الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية
 ٦٩ - ظاهرة العلم الحديث
 ٧٠ - نظريات التعلم (دراسة مقارنة)
 ٧١ - الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي
 ٧٢ - حكمة الغرب (الجزء الثاني)
 ٧٣ - التخطيط للتقدم الاقتصادي والاجتماعي
 ٧٤ - مشاريع الاستيطان اليهودي
 ٧٥ - التصوير والحياة
 ٧٦ - الموت في الفكر الغربي
 ٧٧ - الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً
 ٧٨ - قضايا التبعية الإعلامية والثقافية
 ٧٩ - مفاهيم قرآنية
 ٨٠ - الزواج عند العرب (في الجاهلية والإسلام)
 ٨١ - الأدب اليوغسلافي المعاصر
 ٨٢ - تشكيل العقل الحديث
 ٨٣ - البيولوجيا ومصير الإنسان
 ٨٤ - المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية
 ٨٥ - دول مجلس التعاون الخليجي
 ومبتريات العمل الدولية
 ٨٦ - الإنسان وعلم النفس
 ٨٧ - في تراثنا العربي الاسلامي
- تأليف : د/ عبدالعزيز بن عبد الجليل
 تأليف : د/ سامي مكى العاني
 ترجمة : زهير الكرمي
 تأليف : د/ محمد موفكو
 تأليف : د/ عبدالله العمر
 ترجمة : د/ علي حسين حجاج
 مراجعة : د/ عطيه محمود هنا
 تأليف : د/ عبدالمالك خلف التميمي
 ترجمة : د/ فؤاد زكريا
 تأليف : د/ مجيد مسعود
 تأليف : د/ أمين عبدالله محمود
 تأليف : د/ محمد نبهان سويلم
 ترجمة : كامل يوسف حسين
 مراجعة : د/ إمام عبد الفتاح
 تأليف : د/ أحمد عثمان
 تأليف : د/ عواطف عبد الرحمن
 تأليف : د/ محمد أحمد خلف الله
 تأليف : د/ عبد السلام الترماني
 تأليف : د/ جمال الدين سيد محمد
 ترجمة : شوقي جلال
 مراجعة : صدقي خطاب
 تأليف : د/ سعيد الحفار
 تأليف : د/ رمزي زكي
 تأليف : د/ بدرية العوضي
 تأليف : د/ عبد الستار إبراهيم
 تأليف : د/ توفيق الطويل

- ٨٨ - الميكروبات والإنسان
- ترجمة : د/ عزت شعلان
- مراجعة : د/ عبد الرزاق العدواني
- د/ سمير، رضوان
- ٨٩ - الإسلام وحقوق الإنسان
- ٩٠ - الغرب والعالم (القسم الأول)
- تأليف : د/ محمد عماره
- تأليف : كافين رايلي
- ترجمة : د/ عبد الوهاب المسيري
- د/ هدى حجازي
- مراجعة : د/ فؤاد زكريا
- تأليف : د/ عبدالعزيز الجلال
- ترجمة : د/ لطفي فطيم
- تأليف : د/ أحمد مدحت اسلام
- تأليف : د/ مصطفى المصمودي
- تأليف : د/ أنور عبد الملك
- تأليف : رجبينا الشريف
- ترجمة : أحمد عبدالله عبدالعزيز
- تأليف : كافين رايلي
- ترجمة : د/ عبد الوهاب المسيري
- د/ هدى حجازي
- مراجعة : د/ فؤاد زكريا
- تأليف د. حسين فهميم
- تأليف د. محمد عماد الدين اسماعيل
- تأليف د. محمد علي الربيعي
- ٩١ - تربية اليسر وتغلب التمية
- ٩٢ - عقول المستقبل
- ٩٣ - لغة الكيمياء عند الكائنات الحية
- ٩٤ - النظام الإعلامي الجديد
- ٩٥ - تغير العالم
- ٩٦ - الصهيونية غير اليهودية
- ٩٧ - الغرب والعالم (القسم الثاني)
- ٩٨ - قصة الانثروبولوجيا
- ٩٩ - الاطفال مرآة المجتمع
- ١٠٠ - الوراثة والإنسان

الاشتراك السنوي : وهو مقصور على الفئات التالية :

- المؤسسات والهيئات داخل الكويت ١٠ دنانير
- المؤسسات والهيئات في الوطن العربي ١٢ ديناراً
- المؤسسات والهيئات خارج الوطن العربي ٨٠ دولاراً أمريكياً
- الأفراد خارج الوطن العربي ٤٠ دولاراً أمريكياً

الاشتراكات :

ترسل باسم الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص . ب : ٢٣٩٩٦ الكويت ● برقياً ثقف ● تلکس ٤٤٥٥٤

TLX No. 44554 NCCAL

مطابع الرسالة - الكويت

سعر النسخة :

٥٠٠ فلس	* الكويت
١٠ ريالات	* السعودية
٦٠٠ فلس	* العراق
٥٠٠ فلس	* الاردن
٦ ليرات	* سوريا
٥ ليرات	* لبنان
٥٠٠ قرش	* ليبيا
١٠ دراهم	* المغرب
دينار واحد	* تونس
١٠ دنانير	* الجزائر
٥٠٠ مليم	* مصر
٥٠٠ مليم	* السودان
ريال واحد	* عمان
٨٠٠ فلس	* اليمن الجنوبية
٩ ريالات	* اليمن الشمالية
٨٠٠ فلس	* البحرين
١٠ ريالات	* قطر
١٠ دراهم	* الامارات العربية